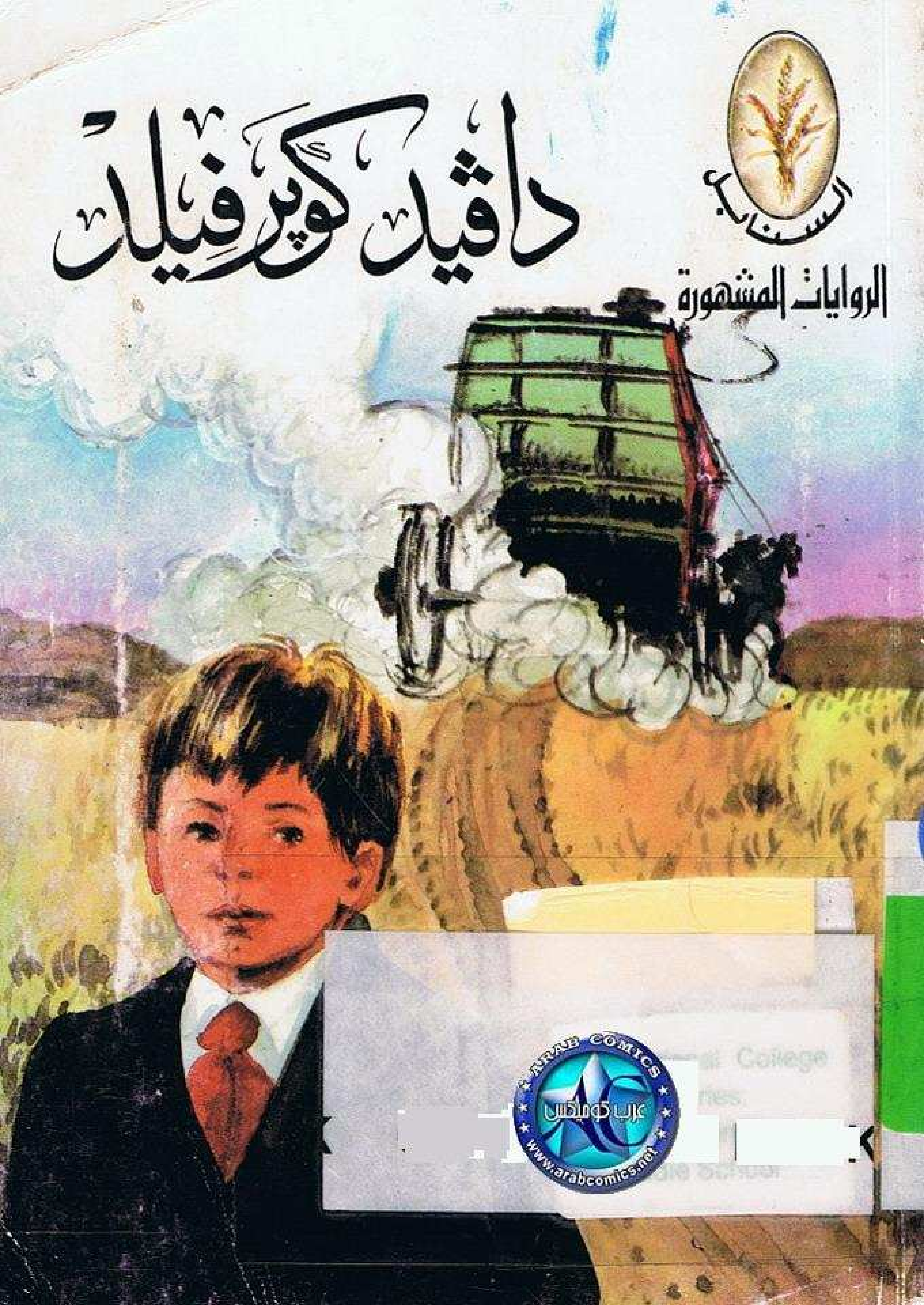

الروايات المشهورة
داڤيد كوپرفيلد



رئيس التحرير : وجدي رزق غالي

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي - الجيزة ، مصر

الطبعة الأولى ١٩٩٢

رقم الإيداع : ٩٦٧٢ / ١٩٩١

الترقيم الدولي : ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠٠٧٢ - ٩

طبع في دار نوبار للطباعة



الروايات المشهورة

داڤيد كوپرفيلد



تأليف : تشارلز ديكنز

أعدها بالعربية : شوقي رياض السنورسي

رسوم : نسيم ج . نصيف

مكتبة لبنان

الفصل الأوّل

ذاتَ مَساءٍ بارِدٍ تَلُفُّهُ العَواصِفُ ، كانَتْ أمّي توشِكُ أنْ تَضَعَ مَوْلودَها الأوّلَ . وكانَ أبي قَدْ ماتَ مُنْذُ أشْهُرٍ قَليلَةٍ .

قالَتْ أمّي لِخادِمَتِها « پيغوتي » ، الّتي كانَتْ صَديقَةً مُحِبَّةً وَوَفِيَّةً لنا في الوَقْتِ نَفْسِهِ : « ثَمَّةَ دَقٌّ على البابِ . تُرى مَنْ يَكونُ الطارِقُ ؟»

وما إنْ فَتَحت پيغوتي البابَ حَتّى انْدَفَعَتِ الآنِسَةُ « تروتْوود » إلى الدّاخِلِ ، وَهِيَ تَصيحُ قائِلةً : « أيْنَ المَوْلودُ ؟» وكانَتِ الآنِسَةُ تروتوود هِيَ عَمّةَ والِدي .

جَفَلَتْ أمّي مِنْ صَوْتِها المُرْتَفِعِ الحادِّ ، لكِنَّها لَمْ تَلْبَثْ أنْ أجابَتْ : « لَمْ يأتِ بَعْدُ ، لكِنّني أتَوَقَّعُ مَجيئَهُ بَيْنَ لَحْظَةٍ وأخْرى .»

قالَتِ العَمّةُ لأمّي : « أنا لم أرَكِ مِنْ قَبْلُ ، وَلَمْ أشْهَدْ زِفافَكِ ،

غَيْرَ أنّني أجِدُكِ أصْغَرَ سِنّاً كثيراً عمّا كُنْتُ أتَخيَّلُ . أنتِ تَبْدينَ صَغيرةً جِدًّا يا طِفْلَتي ، ويُؤْسِفُني أنَّ زَوْجَكِ – الّذي هُوَ ابْنُ أخي – قَدْ ماتَ وتَرَكَكِ تُصارِعينَ الحَياةَ بِمُفْرَدِكِ في هذِهِ السِّنِّ المُبَكِّرَةِ ! لكِنْ أرْجو ألا تَسْتَسْلِمي لِلْيأسِ ، فَقَدْ يَمُنُّ اللّهُ عَليكِ بِطِفْلَةٍ جَميلَةٍ ، عِنْدَئِذٍ سَوْفَ أتَكَفَّلُ أنا بِتَنْشِئَتِها وَرِعايَتِها ، لأنّني أحِبُّ الفَتَياتِ .»

قالَتْ أمّي الّتي بَدَأَتْ تَشْعُرُ بِآلامِ المَخاضِ : « أشْكُرُكِ .» ثُمَّ اسْتأذَنَتْ في الانْصِرافِ إلى حُجْرَتِها الخاصَّةِ .

اسْتَلْقَتِ العَمّةُ في مَقْعَدِها بَعْضَ الوَقْتِ ، وما إنْ رَأتِ الطَّبيبَ خارِجًا مِنْ حُجْرَةِ النَّوْمِ حَتّى وَثَبَتْ قائِلَةً : « هَلْ أتى المَوْلودُ ؟»

« أجَلْ .»

« بِنْتٌ أمْ وَلَدٌ ؟»

« وَلَدٌ .»

وهنا انْتَفَضَتِ الآنِسَةُ تروتْوود صائِحَةً : « لم أكُنْ أريدُهُ وَلَدًا ! فأنا لا أحِبُّ الأوْلادَ .» وأسْرَعَتْ تغادِرُ المَنْزِلَ غاضِبَةً .

كنتُ أنا ذلك الطِّفْلَ الذي لَمْ تَرْغَبْ فيهِ العَمّةُ ، واسْمي



« داڤيد كوپرفيلد .»

ومَرّتِ السّنونَ ، وبَلَغْتُ السّادِسةَ مِنْ عُمْري . وَحَتّى ذلِكَ الحين لَمْ أكُنْ أعْرِفُ في حَياتي سِوى شَخْصَيْن : أمّي ، وخادِمَتِنا بيغوتي وَكنتُ جِدَّ أحِبُّهما ، وكانَتْ بيغوتي عَطوفاً شديدَةَ الحَدَبِ عَلَيَّ . وهكَذا عِشْنا مَعاً حَياةً هانِئَةً سَعيدَةً .

كُنْتُ أذْهَبُ للصَّلاةِ مَعَ أمّي كُلَّ أسْبوعٍ ، وذاتَ يومٍ وَنَحْنُ عائِدانِ إلى البَيْتِ اسْتَوْقَفَنا رَجُلٌ ذو شَعْرٍ أسْوَدَ كَثيفٍ . وَلَقَدْ شَعَرْتُ إزاءَهُ بِالخَوْفِ وَالكَراهِيَةِ مُنْذُ الوَهْلَةِ الأولى .

اِبْتَسَمَ الرَّجُلُ لأمّي قائِلاً : « عِمي صَباحاً ، يا سَيِّدةُ كوپرفيلد.»

أجابَتْ : « عِمْ صَباحاً ، يا سَيِّدُ مِرْدِسْتون .»

« أرْجو أنْ تَكوني عَلى ما يُرامُ .»

« أشْكُرُكَ ، يا سَيِّدُ مِرْدِسْتون .»

و تَطَلَّعَ الرَّجُلُ إليَّ مُبْتَسِماً ، غَيْرَ أنّني لَمْ أبادِلْهُ الابْتِسامَ .

وَرَبَّتَ عَلى رَأسي قائِلاً لأمّي : « هذا هُوَ ابْنُكِ الصَّغيرُ « داڤيد » ، أ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟» فأشَحْتُ بِوَجْهي عَنْهُ في نُفورٍ .

عِنْدَئِذٍ بَدَتْ على مُحَيّاهُ سيماءُ الغَضَبِ ، لكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أنْ عاوَدَ الابْتِسامَ ، وَهُوَ يَقولُ : « هَلْ تَسْمَحينَ لي بِزِيارَتِكِ ؟»

أجابَتْ أمّي قائِلَةً : « أجَلْ ، بِالتَّأْكيدِ .»

وَهكَذا زارَنا السَّيِّدُ مِرْدِسْتون ذاتَ يَوْمٍ ، ثُمَّ تَكَرَّرَتْ زِياراتُهُ لَنا بَعْدَ ذَلِكَ . وَكانَتْ أمّي تَزْدادُ تَعَلُّقاً بِهِ بَعْدَ كُلِّ زِيارَةٍ ، في حينَ ازْدَدْتُ أنا وَبيغوتي نُفوراً مِنْهُ .

وَبَعْدَ بِضْعَةِ أسابيعَ ، قَبِلْتُ الذَّهابَ مَعَ الرَّجُلِ إلى بَلْدَةِ « لُويِسْتوفْت » حَيْثُ كانَ يَعْتَزِمُ زِيارَةَ بَعْضِ أَصْدِقائِهِ . عَلى أنّني لَمْ أقْبَلْ دَعْوَتَهُ تِلْكَ حُبّاً في رُفْقَتِهِ ، لكِنَّني كُنْتُ أتوقُ إلى رُؤْيَةِ تِلْكَ البَلْدَةِ الجَميلَةِ الَّتي تَقَعُ قُرْبَ البَحْرِ .

قالَ لَهُ أحَدُ الأَصْدِقاءِ الَّذينَ التَقى بِهِمْ هُناكَ : « يَقولونَ إنَّ صَديقَتَكَ ، السَّيِّدَةَ كوبرفيلد ، سَيِّدَةٌ بارِعَةُ الجَمالِ .»

قاطَعَهُ مِرْدِسْتون قائِلاً : « صَهْ ؛ فَقَدْ يَفْطَنُ الصَّبِيُّ إلى مَغْزى كَلامِكَ ، وَقَدْ يُفْضي لأُمِّهِ بِما تَقولُ .» وَقَهْقَهَ الحاضِرونَ طَويلاً .

وَلَقَدْ أفْضَيْتُ إلى أمّي بِما سَمِعْتُهُ بِالفِعْلِ . وَأَشْرَقَ وَجْهُها آنَذاكَ ، وَلكِنَّها أجابَتْ وَهِيَ تَضْحَكُ في جَذَلٍ : « لا تُرَدِّدْ هذا

الهُراءَ ثانِيَةً !»

وَلَمْ أعِ حينَئِذٍ شَيْئاً مِمّا يَدورُ بِخَلَدِها ، فَقَدْ كُنْتُ في السّادِسَةِ مِنْ عُمْرِي ، وَكانَ يَسْتَعْصي عَلَيَّ فَهْمُ كَثيرٍ مِنَ الأشْياءِ .

وَمَرَّتْ بِضْعَةُ شُهورٍ ، وَفاجَأَتْني أمّي ذاتَ يَوْمٍ بِقَوْلِها : « هَلْ تُحِبُّ الذَّهابَ إلى شاطِئِ البَحْرِ ؟»

أجَبْتُ : « أجَلْ ، بِالتَّأْكيدِ .»

أرْدَفَتْ قائِلَةً : « إذَنْ تَسْتَطيعُ السَّفَرَ في رِحْلَةٍ إلى هُناكَ .»

« وَلكِنْ أيَّ بَلْدَةٍ سَوْفَ نَقْصِدُ ؟»

أجابَتْني : « لَنْ أرافِقَكَ هذِهِ المَرَّةَ ، يا داڤيد ، بَلْ سَتَذْهَبُ في صُحْبَةِ بيغوتي إلى بَلْدَةِ « يارْمَوْث » الَّتي تَقَعُ عَلى شاطِئِ البَحْرِ . إنَّ أخا بيغوتي يَقْطُنُ هُناكَ ، وَسَوْفَ تَنْزِلانِ ضَيْفَيْنِ عَلَيْهِ . أَ لا تَروقُكَ مِثْلُ هذِهِ الرِّحْلَةِ ؟»

« بَلْ تَروقُني بِالتَّأْكيدِ ، وَلكِنْ لِماذا لا تَأْتينَ مَعَنا ؟»

« لَنْ أسْتَطيعَ الآنَ شَرْحَ السَّبَبِ ، وَلكِنَّكَ سَتَعْرِفُ كُلَّ شَيْءٍ فيما بَعْدُ .»

وَهكذا ذَهبْتُ مَعَ بيغوتي إلى بَلْدَةِ « يارْمَوْث » . وَهُناكَ أعْجَبْتُ كثيراً بِمَنْزِلِ شَقيقِها ، السَّيِّدِ بيغوتي ، الذي كانَ مُصَمَّماً على هَيْئَةِ قارِبٍ . وَكانَ السَّيِّدُ بيغوتي صَيّاداً شَهْماً كَريماً طَيِّبَ القَلْبِ، أفْسَحَ في مَنْزِلِهِ ذاكَ مَكاناً لِسُكْنى ثَلاثَةِ أفْرادٍ مِنْ عائِلاتِ أصْدِقائِهِ، الّذينَ لَقُوا حَتْفَهُمْ في عُرْضِ البَحْرِ . وَهؤُلاءِ الثَّلاثَةُ هُمْ : هام ابْنُ صَيّادٍ مُتَوَفّى ، وإميلي ابْنَةُ أخْتِ السَّيِّدِ بيغوتي الّتي ماتَ أبَواها ، والسَّيِّدَةُ غَميدج زَوْجَةُ صَيّادٍ قَضى نَحْبَهُ كَذلِكَ .

كانَتْ إميلي طِفْلَةً جَميلَةً جَذَبَتْ مَشاعِري ، وَسُرْعانَ ما أصْبَحْنا صَديقَيْنِ حَميمَيْنِ . وَكُنّا نَنْزِلُ إلى البَحْرِ مَعاً ، ثُمَّ نَخْرُجُ إلى الشّاطِئِ لِنَجْلِسَ عَلى الرِّمالِ ، وَنَتَطَلَّعُ إلى الأمْواجِ البَعيدَةِ .

قالَتْ لي إميلي ذاتَ يَوْمٍ : « إنّني أخْشى البَحْرَ . أ لا تَخْشاهُ أنْتَ كَذلِكَ ؟ »

أجَبْتُها بالنَّفْيِ ، غَيْرَ أنّني لَمْ أكُنْ صادِقاً فيما قُلْتُ .

قالَتْ : « لَقَدْ صَرَعَ البَحْرُ والِدي يَوْماً ما ! »

قُلْتُ في أسَى : « أعْرِفُ ذلِكَ . »

« وَبَعْدَ مَوْتِ أبي ، قامَ السَّيِّدُ بيغوتي بِرِعايَتي . إنَّهُ رَجُلٌ عَطوفٌ

طَيِّبُ القَلْبِ ، وأنا أحِبُّهُ كَثيراً . »

« إنَّه كَذلِكَ بِالفِعْلِ ، وَلَقَدْ أحْبَبْتُه أنا أيْضاً . »

قالَتِ الفَتاةُ في حَماسَةٍ ، وَهِيَ تَتَطَلَّعُ إلى بَعيدٍ : « سَوْفَ أشِبُّ في غُضُونِ سَنَواتٍ قَليلَةٍ ، وَعِنْدَئِذٍ سَوْفَ أعْمَلُ بِجِدٍّ وَمُثابَرَةٍ لأقَدِّمَ المالَ لِهذا الرَّجُلِ ، وأهْدِيَهُ المَلابِسَ الغالِيَةَ الثَّمينَةَ ؛ وَفاءً لِبَعْضِ دَيْنِه عَلَيَّ . »

أمّا السَّيِّدَةُ غَميدْج ، فَلَمْ تَكُنْ وَفِيَّةً وَلا مُتَفائِلَةً كَإميلي ؛ بَل كانَ يَغْلِبُ عَلَيْها الاكْتِئابُ ، وَكانَتْ دائِمَةَ التَّبَرُّمِ وَالشَّكْوى . وَكُلَّما غادَرَ السَّيِّدُ بيغوتي البَيْتَ ، أخَذَتْ تَنْدُبُ حَظَّها ، وَتُوَلْوِلُ وَتَقولُ : « أيْنَ ذَهَبَ السَّيِّدُ بيغوتي ؟ لَقَدْ خَرَجَ وَتَرَكَني نَهْباً لِلْوَحْدَةِ وَالانْفِرادِ . لا صَديقَ لي أبَداً في هذا العالَمِ ! لا أحَدَ يَهْتَمُّ بي عَلى الإطْلاقِ ! »

وَلَمْ تَكُنِ السَّيِّدَةُ عَلى حَقٍّ فيما تَزْعُمُهُ ، فَقَدْ كانَ السَّيِّدُ بيغوتي نِعْمَ الصَّديقُ المُخْلِصُ الّذي يَحْدِبُ عَلَيْها ، وَيَرْعى كُلَّ شُؤونِها . عَلى أنَّ جُحودَها لَمْ يَفُتَّ في عَضُدِهِ ، أو يُبَدِّلْ شَيْئاً مِنْ مَسْلَكِهِ النَّبيلِ إزاءَها ، وَكانَ يَلْتَمِسُ لَها الأعْذارَ بِأنَّ تِلْكَ هِيَ طَبيعَتُها الّتي جُبِلَتْ عَلَيْها .

وانْقضَتِ الأيّامُ السَّعيدةُ في يارْمَوْث كَما تَنْقَضي كُلُّ الأشْياءِ البَهيجَةِ الحُلْوَةِ سِراعاً ، وَملَكَتْني الكَآبَةُ وأنا أغادِرُ المكانَ . لَمْ أكُنْ أرْغَبُ في الافْتِراقِ عَنِ السَّيِّدِ بيغوتي وَهام والسَّيِّدَةِ غَميدْج ، كَما شَعَرْتُ بِحُزْنٍ بالغٍ لِفراقي إميلي .

قلتُ لِصَديقَتي الصَّغيرَةِ وأنا أهُمُّ بالرَّحيلِ : « وَداعاً يا إميلي ! وإنْ كُنْتُ لا أرْغَبُ في فِراقِكِ .»

« وَداعاً يا داڤيد ! سَوْفَ أفْتَقِدُكَ كَثيراً .»

« وَأنا كَذلِكَ . سَوْفَ أكْتُبُ لَكِ يا إميلي .»

وَبَدأتْ رِحْلَةُ العَوْدَةِ مَعَ بيغوتي وَأنا في كَرْبٍ وضيقٍ . وَلكِنْ عِنْدَما لاحَ مَنْزِلُنا عَنْ بُعْدٍ ، انْقَشَعَتِ الغُمَّةُ عَنْ صَدْري ، وَشَعَرْتُ بِشَيْءٍ مِنَ الارْتِياحِ . وما إنْ وطِئَتْ أقْدامُنا أرْضَ الحَديقَةِ حَتَّى صِحْتُ قائلاً في حُبورٍ : « ها نَحْنُ أولاءِ قَدْ عُدْنا أخيراً ، يا بيغوتي. كَمْ سَتَكونُ أمّي مَسْرورَةً بِذلِكَ !» غَيْرَ أنَّ بيغوتي لَزِمَتِ الصَّمْتَ .

وَلَمْ تَلْبَثْ أنْ فَتَحَتِ البابَ خادِمَةٌ جَديدَةٌ ، فانْدَفَعْتُ إلى الدّاخِلِ ولكِنَّ البَيْتَ بَدا مُوحِشاً خالِياً .

وَبادَرْتُ بِالسُّؤالِ : « أيْنَ أمّي ؟ أيْنَ ذَهَبَتْ وَهِيَ تَعْلَمُ بِقُدومي

اليَوْمَ ، وتَعْرِفُ لَهْفَتي لِلُقْياها ؟»

أجابَتْ بيغوتي : « تَمَهَّلْ ، فَسَوْفَ تُوَضِّحُ لكَ كُلَّ شَيْءٍ حينَ وُصولِها .»

صَرَخْتُ قائلاً : « لا ، بَلْ أنْتِ الّتي سَتُوَضِّحينَ الآنَ كُلَّ شَيْءٍ ! أيْنَ أمّي ؟»

لَبِثْتُ هُنَيْهَةً وَقَدْ غَشِيَني رُعْبٌ هائلٌ ، ثُمَّ أرْدَفْتُ في أنْفاسٍ مُتَهَدِّجَةٍ : « هَلْ ماتَتْ مِثْلَما ماتَ أبي ؟»

صاحَتْ بيغوتي ، وَهِيَ تَضُمُّني إلى صَدْرِها : « لا ، لا ! إنَّها لَمْ تَمُتْ .»

« ما خَطْبُها إذاً ؟ أخْبِريني في الحالِ .»

« لَقَدْ ... لَقَدْ تَزَوَّجَتْ . وَهِيَ الآنَ في نُزْهَةٍ مَعَ زَوْجِها – أبيكَ الجَديدِ .»

سَأَلْتُها : « وَمَنْ يَكونُ هذا الزَّوْجُ ؟ أ هُوَ ... ؟»

« أجَلْ ، إنَّهُ هُوَ . إنَّهُ السَّيِّدُ مِرْدِسْتون . وَلَقَدْ أصْبَحَتْ أمُّكَ الآنَ : السَّيِّدَةَ مِرْدِسْتون .»

الفصل الثّاني

ذَهَبْتُ إلى حُجْرةِ نَوْمي ، وَدَفَنْتُ وَجْهي في غِطاءِ الفِراشِ ، وَأَخَذْتُ أَنْتَحِبُ . كانَ نَشيجي يَصْدُرُ خافِتاً مِنْ تَحْتِ المُلاءَةِ ، وَلَمْ تَلْبَثْ أُمّي أنْ أَقْبَلَتْ وَمَعَها پيغوتي ، وَقالَتْ : « ما خَطْبُكَ يا داڤيد ؟»

أَجَبْتُ مِنْ بَيْنِ زَفَراتي : « لا أَسْتَطيعُ الإفْصاحَ عَمّا بي .»

وَالْتَفَتَتْ أُمّي إلى پيغوتي قائِلَةً في حِدَّةٍ : « أَنْتِ الّتي فَعَلْتِ بِالصَّبِيِّ هَذا . ماذا قُلْتِ لَهُ ؟»

أجابَتِ الفَتاةُ : « لَسْتُ أنا الّتي فَعَلَتْ بِهِ هذا ، وَلكِنَّ ثَمَّةَ شَخْصاً آخَرَ ، يا سَيِّدَةَ كوپرفيلد .»

عِنْدَئِذٍ ظَهَرَ السَّيِّدُ مِرْدِسْتون وَهُوَ يَتَوَعَّدُ بِصَوْتٍ غاضِبٍ حادٍّ : « إيّاكِ أنْ تُكَرِّري ما قُلْتِهِ مَرَّةً أُخرى ، يا پيغوتي !»

سَأَلَتِ الفَتاةُ في دَهْشَةٍ : « ماذا قُلْتُ ، يا سَيِّدُ مِرْدِسْتون ؟!»

أجابَ الرَّجُلُ : « لقد خاطَبْتِ زَوْجَتي بِقَوْلِكِ : ‹‹ يا سَيِّدةُ كوپرفيلد ›› ، في حِين أنّها الآنَ السَّيِّدَةُ مِرْدِسْتون لا السَّيِّدَةُ كوپرفيلد . أُحَذِّرُكِ مِنَ الوُقوعِ ثانِيَةً في هذا الخَطَأِ !»

قالَتِ الفَتاةُ ، وَهِيَ تُغادِرُ الحُجْرَةَ : « سَمْعاً وطاعةً ، يا سَيِّدُ مِرْدِسْتون .»

وَالْتَفَتَ السَّيِّدُ مِرْدِسْتون إلى أُمّي قائِلاً : « لَقَدْ أَفْسَدْتِ داڤيد بِتَدْليلِكِ يا عَزيزَتي كلارا ، فَأَضْحَى مِثْلَ فَتاةٍ هَشَّةٍ رَقيقَةٍ ! إنَّهُ لَيْس جَسوراً وَلا قَوِيّاً كَالغِلْمانِ الّذينَ في مِثْلِ سِنِّهِ . دَعيني أَتَحَدَّثْ إلَيْهِ عَلى انْفِرادٍ .»

أجابَتْ أُمّي ، وَهِيَ تُغادِرُ الحُجْرَةَ كَذلِكَ : « لِيَكُنْ ما تُريدُ ، يا عَزيزي .»

وَتَركَتْني مَعَ الرَّجُلِ مُنْفَرِدَيْنِ ، فَأَخَذْتُ أَرْتَعِدُ فَرَقاً . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ خاطَبَني قائِلاً : « لا تَتَوَقَّعْ مِنّي أَنْ أُدَلِّلَكَ كما تُدَلِّلُكَ أُمُّكَ ؛ فَأَنْصِتْ إلى ما سَأَقولُ .»

أَجَبْتُ وأنا أَنْتَفِضُ : « أَمْرُكَ ، يا سَيِّدُ مِرْدِسْتون .»

« عِنْدما يُخْطِئُ كَلْبي أَوْ جَوادي ، فإنَّني أضْرِبُهُ ضَرْبًا مُبرِّحًا . وَأنا أحِسُّ فيكَ الآنَ نَزْعَةً سيِّئَةً . لَقَدْ تزَوَّجْتُ مُؤخّرًا بِأمِّكَ ، وأراكَ غاضِبًا لِذلِكَ ؛ لِذا أنْصَحُكَ بِألا تَسْتَرْسِلَ في هذِهِ المَشاعِرِ السَّيِّئَةِ وإلّا سأوقِعُ بِكَ عِقابًا صارِمًا ! ولَسَوْفَ أضْرِبُكَ حينَئِذٍ في قَسْوَةٍ وَعُنْفٍ . هَلْ تَفْهَمُ ما أقولُ ؟»

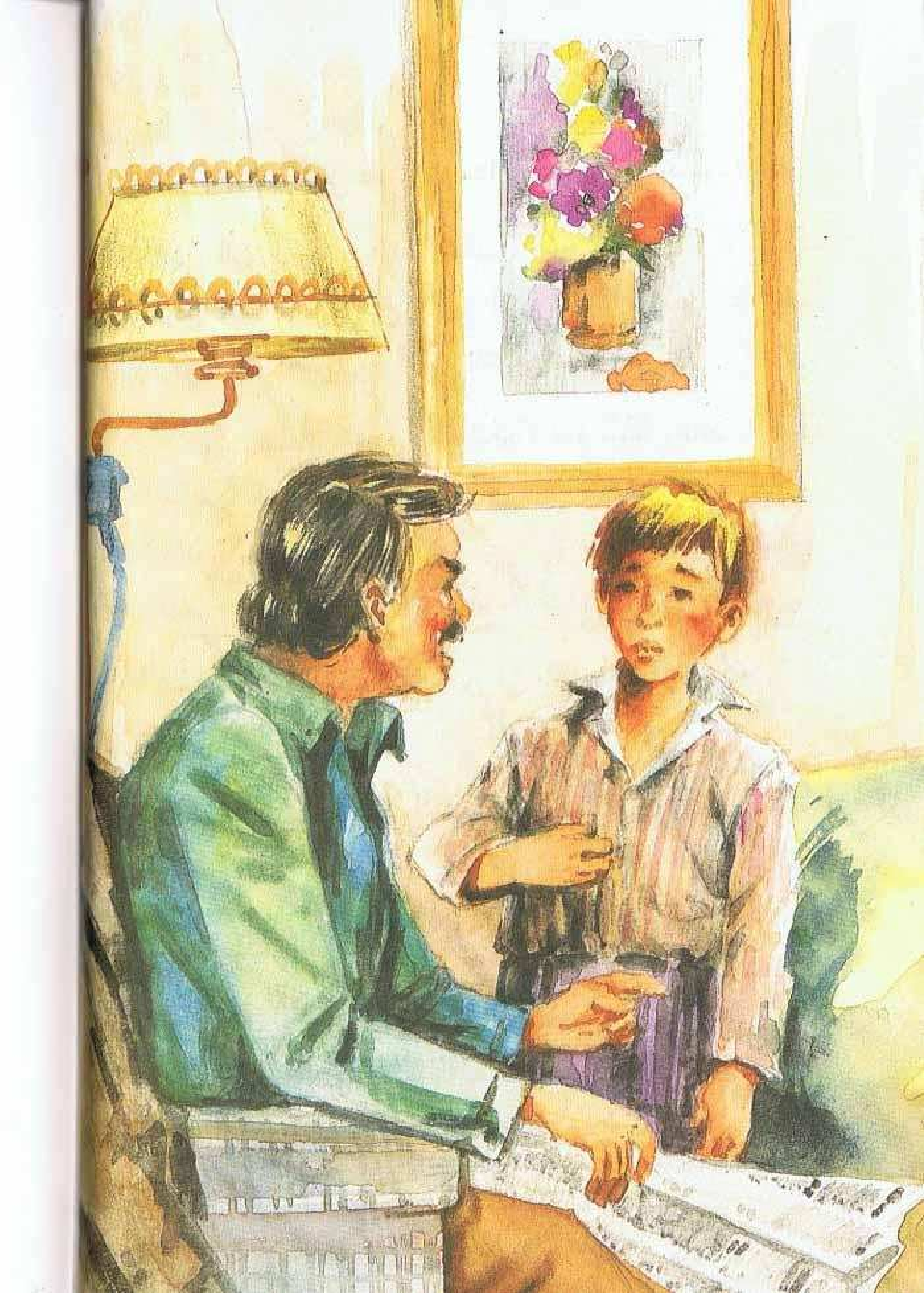
أجَبْتُ في يَأسٍ واسْتِسْلامٍ : « أجَلْ ، يا سَيِّدُ مِرْدِسْتُون .»

أرْدَفَ الرَّجُلُ بِصَوْتِهِ الأجَشِّ : « يَسُرُّني أنْ أسْمَعَ مِنْكَ ذلِكَ . والآنَ ، هيّا مَعي .» وَذَهَبْنا مَعًا إلى أمّي حَيْثُ تَناوَلْنا طَعامَ العَشاءِ .

وما إنْ فَرَغْنا مِنَ العَشاءِ حَتّى دَلَفَتْ إلى الحُجْرَةِ امْرَأةٌ ذاتُ شَعْرٍ أسْوَدَ ، و وَجْهٍ صارِمِ المَلامِحِ ، ونَظَرَتْ إلَيَّ في حِدَّةٍ . وكانَتْ شَقيقَةَ السَّيِّدِ مِرْدِسْتُون ، وكانَتْ عانِسًا لَمْ تَتَزَوَّجْ بَعْدُ ، وإنْ بَدا لي أنَّ قِطارَ الزَّواجِ قَدْ فاتَها .

قالَتِ الآنِسَةُ مِرْدِسْتُون وهِيَ تُشيرُ إلَيَّ : « يَبْدو أنَّهُ غُلامٌ سَيِّئُ الطِّباعِ .»

كانَ صَوْتُها حادًّا أجَشَّ كَصَوْتِ أخيها . ولَقَدْ دَهِشْتُ لِبَقاءِها مَعَنا في البَيْتِ . وكانَتْ تَسْتَيْقِظُ مُبَكِّرًا في الصَّباحِ ، لِتَجوسَ في



أنْحاءِ الدّارِ ، وتَتَفَحَّصَ كُلَّ رُكْنٍ مِنْ أرْكانِها في جُرْأةٍ غَريبَةٍ .

وذاتَ صَباحٍ قالَتْ لأمّي : « سَوْفَ أتَولّى أنا إدارَةَ المَنْزِلِ مِنَ الآنَ فَصاعِداً ، يا كلارا .»

لَمْ يَرُقْ هذا الأمْرُ بِالطَّبْعِ لِوالِدَتي ، لكِنَّها لَمْ تَجْرُؤْ عَلى الاعْتِراضِ ، بَيْدَ أنَّها لَمْ تَلْبَثْ أنْ شَكَتْ ذاتَ يَوْمٍ لِزَوْجِها قائِلَةً : « إنَّ أخْتَكَ تَسْتَأثِرُ بِكُلِّ شُؤونِ المَنْزِلِ ، وَتَتْرُكُني نَهْباً لِلْكَمَدِ وَالفَراغِ ! أنا لا تُعْجِبُني هذِهِ الحالُ !»

وسَمِعَتِ الآنِسَةُ مِرْدِسْتُون ذلِكَ فاسْتَشاطَتْ غَضَباً ، وهدَّدَتْ بِتَرْكِ المَنْزِلِ في الحالِ ؛ لكِنَّ أخاها هَدَّأَ مِنْ ثائِرَتِها قائِلاً : « لا تَأبَهي لِما قالَتْهُ زَوْجَتي ، فَهِيَ لا تَسْتَطيعُ تَحَمُّلَ مُسْؤولِيّاتِ البَيْتِ . أنْتِ الّتي سَتُديرينَ المَنْزِلَ بِمُفْرَدِكِ .»

والْتَفَتَ إلى أمّي صائِحاً في غَضَبٍ : « كُفّي عَنْ هذِهِ الحَماقَةِ ، يا كلارا !»

وَبَكَتْ أمّي طَويلاً ، ولَمْ تُعاوِدِ الكَلامَ في هذا الأمْرِ ثانِيَةً .

وكانَ السَّيِّدُ مَردِسْتُون يُعاوِنُني في اسْتِذْكارِ دُروسي ، وَهِيَ المَهَمَّةُ الّتي كانَتْ تَقومُ بها وَالِدَتي مِنْ قَبْلُ . إلا أنَّني لَمْ أسْتَطِعْ

أنْ أسْتَوْعِبَ شَرْحَ الرَّجُلِ كَما كُنْتُ أفهمُ شَرْحَ أمّي ؛ ذلِكَ لأنَّني كُنْتُ أرْهَبُهُ وأخْشاهُ !

وذاتَ مَساءٍ بادَرَ أمّي بِقَوْلِهِ : « إنَّ ابْنَكِ هذا غلامٌ غَبِيٌّ عاجِزٌ عَنِ التَّعَلُّمِ ، وَأرى أنْ نُعاقِبَهُ بِحِرْمانِهِ اللَّيْلَةَ مِنَ العَشاءِ .» وَكانَ عَشائي عادَةً شَريحَةَ خُبْزٍ .

و ذاتَ يَوْمٍ ، رَفَعَ السَّيِّدُ مِرْدِسْتُون عَصاهُ في وَجْهي قائِلاً : « تَذَكَّرْ دُروسَكَ السّابِقَةَ ، وإلا هَشَّمْتُ عِظامَكَ بِهذِهِ العَصا !»

وحاوَلْتُ أنْ أتذَكَّرَ ما قَرَأتُهُ مِنْ قَبْلُ ، ولكِنْ دُونَ جَدْوى . ولم يَلْبَثْ أنْ صاحَ غاضِباً : « أنْتَ وَلَدٌ كَسولٌ أحْمَقُ ! هيَّا اتْبَعْني مِنْ فَوْرِكَ !»

وتَبِعْتُهُ إلى حُجْرَتي الخاصَّةِ حَيْثُ رَفَعَ عَصاهُ لِلْمَرَّةِ الثّانِيَةِ .

وَأمْسَكْتُ بِيَدِهِ قائِلاً : « أرْجوكَ ، يا سَيِّدُ مِرْدِسْتُون ، أرجوكَ ألا تَضْرِبَني ! لَقَدْ حاوَلْتُ أنْ أتعَلَّمَ عَلى يَدَيْكَ ، ولكِنَّني لَمْ أسْتَطِعْ . صَدِّقْني أنَّني قَدْ حاوَلْتُ ذلِكَ مِراراً دونَ جَدْوى !»

غَيْرَ أنَّهُ طَوَّقَ رَأسي بِإحْدى ذِراعَيْهِ ، وَأخَذَ يَضْرِبُني بِشَراسَةٍ وَهُوَ يُرَدِّدُ : « بَلْ سَوْفَ تَتَعَلَّمُ رَغْماً عَنْكَ !»

وصَرَخْتُ بِصَوْتٍ عالٍ . ولَمَّا لَمْ أجِدْ مُغِيثًا ، عَقَرْتُ يَدَهُ عَقْرَةً قَوِيَّةً .

وَتَصاعَدَتْ حِدَّةُ غَضَبِهِ ، وانْهالَ عَلَيَّ ثانِيَةً بِالضَّرْبِ المُبَرِّحِ . ولَمْ أَلْبَثْ أنْ خَرَرْتُ عَلى الأَرْضِ ، فَغادَرَ الحُجْرَةَ ، ثُمَّ أَغْلَقَ بابَها بِالمِفْتاحِ .

وَبَقيتُ حَبِيسَ غُرْفَتي وَقْتًا طَويلاً ، دونَ أنْ تَأْتِيَ أُمِّي لِتَطْمَئِنَّ عَلَيَّ ، أو تُطْلِقَ سَراحي . وَكانَ السُّكونُ يَلُفُّ المَنْزِلَ كَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَحْدُثْ ! وَانْقَضى الصَّباحُ ، وأَعْقَبَهُ المَساءُ ، ثُمَّ حَلَّ اللَّيْلُ ، وأنا لا أَزالُ حَبِيسًا .

وعِنْدَئِذٍ سَمِعْتُ وَقْعَ خُطُواتٍ أَعْقَبَهُ صَرِيرُ مِفْتاحٍ يُدارُ في قُفْلِ البابِ ، ثُمَّ دَلَفَتِ الآنِسَةُ مِرْدِسْتُون إلى الحُجْرَةِ . وما إنْ قَدَّمَتْ إلَيَّ ما تَحْمِلُهُ مِنْ طَعامٍ حَتَّى غادَرَتِ المَكانَ دونَ أن تَنْبِسَ بِبِنْتِ شَفَةٍ . إلَّا أَنَّها حَضَرَتْ ثانِيَةً في اليَوْمِ التَّالي ، وأَذِنَتْ لي بِالتَّجْوالِ في حَدِيقَةِ المَنْزِلِ .

ومَرَّتِ الأَيَّامُ الخَمْسَةُ التَّالِيَةُ عَلى نَفْسِ المِنْوالِ ، وَلَمْ أَرَ خِلالَها سِوى الآنِسَةِ مِرْدِسْتُون ، الَّتي كانَتْ تَحْتَفِظُ بِمِفْتاحِ الغُرْفَةِ في جَيْبِها ، وتُصَرِّحُ لي بِمُغادَرَتِها حينَ تَشاءُ .

وَلَمْ تَلْبَثْ پيغوتي أنْ حَضَرَتْ ذاتَ صَباحٍ ، وَ وَقَفَتْ خَلْفَ البابِ . وناديْتُها في لَوْعَةٍ قائلاً : « أ هذِهِ أَنْتِ يا پيغوتي ؟ »

أَجابَتْ وَهِيَ تَشْهَقُ بِالبُكاءِ : « أَجَلْ ، يا داڤيد . »

سَأَلْتُ مِنْ خِلالِ عَبَراتي : « هَلْ أُمِّي غاضِبَةٌ مِنِّي ؟ » فَأَجابَتِ الفَتاةُ بِالنَّفْيِ . وَسَأَلْتُها بَعْدَ بُرْهَةٍ وَجيزَةٍ مِنَ الصَّمْتِ : « تُرَى ما الَّذي سَيَحْدُثُ لي ؟ »

« سَوْفَ تُلْحَقُ بِمَدْرَسَةٍ داخِلِيَّةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ لندن . »

« مَتى ؟ »

« سَتَبْدَأُ الرَّحيلَ في صَباحِ الغَدِ . هَلْ تَسْمَعُني ؟ »

« أَجَلْ ، يا پيغوتي ، أَسْمَعُكِ جَيِّدًا . »

أَرْدَفَتِ الفَتاةُ ، وَهِيَ تَنْتَحِبُ : « لا تَنْسَني يا داڤيد ، فَأَنا لَنْ أَنْساكَ . سَوْفَ أَرْعى أُمَّكَ بِكُلِّ الحُبِّ والإخْلاصِ . »

« أَشْكُرُكِ مِنْ كُلِّ قَلْبي ، يا عَزيزَتي پيغوتي . وَلكِنْ أَرْجو أَنْ تَعِديني بِشَيْءٍ واحِدٍ : اُكْتُبي إلى أَخيكِ السَّيِّدِ پيغوتي وإلى إميلي ، وَقولي لَهُما إنَّني ما زِلْتُ غُلامًا حَسَنَ الخُلُقِ وَالسُّلوكِ . »

« اِطْمَئِنَّ ؛ فَسَوْفَ أَكْتُبُ لَهُما غَداً بالتَّأكيدِ .»

وَفي الصَّباحِ التّالي ، دَلَفَتِ الآنِسَةُ مِرْدِسْتون إلى حُجْرَتي حَيْثُ وَضَعَتْ مَلابسي في صُنْدوقٍ ، ثُمَّ قادَتْني إلى غُرْفَةِ أمّي .

و وَدَّعَتْني أمّي قائِلَةً : « يُؤْسِفُني أنَّكَ لَمْ تَكُنْ ابْنًا بارًّا ، يا داڤيد. لَقَدْ أسَأْتَ إلى السَّيِّدِ مِرْدِسْتون ، كَما أسَأْتَ إليَّ في الوَقْتِ نَفْسِهِ ، لأنَّني أحِبُّ زَوْجي .»

لَمْ أقْوَ عِنْدَئِذٍ على تَناوُلِ إفْطاري ، فَقَدْ فَقَدْتُ شَهيَّتي ، كَما غَلَبَني حُزْنٌ عَميقٌ .

وَلَمْ تَلْبَثِ العَرَبَةُ أنْ وَصَلَتْ ، و وَقَفَتْ عِنْدَ مَدْخَلِ البَيْتِ .

وَقالَتْ أمّي ، وَهُمْ يَضَعونَ صُنْدوقي داخِلَ العَرَبَةِ : « وَداعًا يا داڤيد ! سَوْفَ تَكونُ وَلَدًا طَيِّبًا ، وَسَوْفَ تَعودُ إلى البَيْتِ عَمّا قَريبٍ .»

وَانْبَرَتِ الآنِسَةُ مِرْدِسْتون قائِلَةً لأمّي : « دَعي الغُلامَ يَنْطَلِقْ إلى مَدْرَسَتِهِ ، يا كلارا .» ثُمَّ دَفَعَتْ بي إلى داخِلِ العَرَبَةِ بِقَسْوَةٍ .

الفصل الثّالث

انْطَلَقَتِ العَرَبَةُ بي إلى يارْمَوْث ، وَكانَ يَقودُها السَّيِّدُ بارْكِز ، الّذي أخَذَ يَسْألُني طَوالَ الرِّحْلَةِ عَنْ أحْوالِ بيغوتي ؛ فَقَدْ كانَ يَرْغَبُ في الاقْتِرانِ بِها ، وَلَم تَكُنِ الفَتاةُ قَدْ أحَسَّتْ – حَتّى ذلِكَ الحينِ – بِمَشاعِرِهِ نَحْوَها ، إذْ كانَ يَتَهَيَّبُ الإفْضاءَ بِها إلَيْها .

وَفي يارْمَوْث رَكِبْنا عَرَبَةً أخرى إلى مَدينَةِ لندن . وكانَتِ العَرَبَةُ غاصَّةً بالرُّكّابِ ، فَلَمْ أشْعُرْ بِالرّاحَةِ إلا عِنْدَما انْتَهَتِ الرِّحْلَةُ . وَفي لندن اسْتَقْبَلَني شابٌّ نَحيلٌ يَرْتَدي مَلابِسَ سَوْداءَ .

سَألَني الشّابُّ : « هَلْ أنْتَ التِّلْميذُ الجَديدُ ؟»

« أجَلْ ، يا سَيِّدي .»

« إذاً هَيّا مَعي ، فَلَقَدْ أتَيْتُ لأصْحَبَكَ إلى مَدْرَسَتِكَ . اِسْمي « مِلْ » ، وَأنا مُعَلِّمٌ في هذِهِ المَدْرَسَةِ .»

قُلْتُ في خَشْيَةٍ وانْكِسارٍ : « لكِنَّني جائعٌ ! هَلْ يُمْكِنُني شِراءُ شَيْءٍ مِنَ الطَّعامِ ؟»

« يُمْكِنُكَ بِالتَّأكيدِ . وَلَسَوْفَ نَذْهَبُ بَعْدَ ذلِكَ إلى مَنْزِلِ والِدَتي ، حَيْثُ تَسْتَطيعُ أَنْ تَتَناوَلَ طَعامَكَ .»

وَهكذا ابْتَعْتُ بَعْضَ الطَّعامِ ، ثُمَّ انْطَلَقْنا مَعاً إلى مَنْزِلِ أُمِّهِ . وَكانَ المَنْزِلُ صَغيراً رَقيقَ الحالِ . وَما إنْ رَأَتِ الأُمُّ ابْنَها حَتَّى لاحَتْ عَلى وَجْهِها سيماءُ السَّعادَةِ . وَلَمْ أَلْبَثْ أَنِ اسْتَرْخَيْتُ إلى جانِبِ المِدْفَأَةِ لأَسْتَريحَ مِنْ عَناءِ السَّفَرِ الطَّويلِ ، وأتناوَلَ ما اشْتَرَيْتُ مِنْ طَعامٍ .

قالَتِ الأُمُّ لابْنِها : « أَسْمِعْنا شَيْئاً مِنْ عَزْفِكَ يا مِلْ .»

وتناوَلَ الشّابُّ نايَهُ ، وَشَرَعَ يَعْزِفُ بَعْضَ المَقْطوعاتِ . كانَ عَزْفُهُ رَديئاً ، ولكِنَّ الأُمَّ كانَتْ تَبْتَسِمُ في بَهْجَةٍ وَحُبورٍ . وَما إنِ انْتَهى العَزْفُ حَتّى غادَرْنا المَنْزِلَ الصَّغيرَ المُتَواضِعَ ، وَبَدَأْنا سَيْرَنا إلى المَدْرَسَةِ . وَعِنْدَما وَصَلْنا ، قالَ لِيَ السَّيِّدُ مِلْ : « هذِهِ المَدْرَسَةُ هِيَ بَيْتُكَ الجَديدُ ، وَلَسَوْفَ أَطوفُ بِكَ جَميعَ غُرَفِها .» وَدَلَفْنا أَوَّلاً إلى حُجْرَةِ الإدارَةِ ، وكانَتْ فَسيحَةً خاوِيَةً يَسْتَقِرُّ في نِهايَتِها مَكْتَبٌ ضَخْمٌ . وسَرْعانَ ما اسْتَرْعَى انْتِباهي لَوْحَةٌ مَوْضوعَةٌ عَلى المَكْتَبِ

تَحْمِلُ الكَلِماتِ الآتِيَةَ « اِحْتَرِسْ ! إنَّهُ يَعَضُّ !»

وَسَأَلْتُ مُعَلِّمي : « ولكِنْ أَيْنَ الكَلْبُ ، يا سَيِّدُ مِلْ ؟»

قالَ الرَّجُلُ : « أَيُّ كَلْبٍ ؟»

وَما إنْ أَشَرْتُ إلى اللَّوْحَةِ حَتَّى تَجَهَّمَ قائِلاً : « هذِهِ اللَّوْحَةُ خاصَّةٌ بِكَ ، وَيَجِبُ أَنْ تُعَلِّقَها مِنَ الآنَ فَصاعِداً عَلى ظَهْرِكَ !» وَهكَذا حَمَلْتُ اللَّوْحَةَ عَلى ظَهْري في الصَّباحِ التّالي ، وَشَعَرْتُ بِتَعاسَةٍ بالِغَةٍ لِذلِكَ .

ولَمّا كانَتِ المَدْرَسَةُ في إجازَةٍ ، فَقَدْ أَخَذْتُ أَتَجَوَّلُ بِحُرِّيَّةٍ في رَدَهاتِها . ورَأَيْتُ بَوّابَةً كَبيرَةً عُلِّقَتْ عَلَيْها قائِمَةٌ بِأَسْماءٍ عَديدَةٍ . وَلَقَدْ لَفَتَ نَظَري مِنْ بَيْنِها اسْما « ستيرفورث » و « تراديلز » ، فَشَرَعْتُ أُفَكِّرُ فِيمَنْ يَكونُ صاحِبا هذَيْنِ الاسْمَيْنِ .

وَما إنْ عادَ مُديرُ المَدْرَسَةِ ، السَّيِّدُ كريكل ، عَقِبَ الإجازَةِ حَتّى قادَني السَّيِّدُ مِلْ إلى مَكْتَبِهِ . كانَ ذا عَيْنَيْنِ ضَيِّقَتَيْنِ وَوَجْهٍ شَديدِ الاحْمِرارِ . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ بادَرَني في صَوْتٍ غاضِبٍ ، وَهُوَ يَقْرِصُ أُذُني : « أَصْغِ جَيِّداً ! أنا رَجُلٌ صارِمٌ وَلا أُحِبُّ الأَوْلادَ الأَشْقِياءَ ، فَحاوِلْ أَنْ تَكونَ وَلَداً طَيِّباً .»

أجَبْتُ ، وَأنا أرْتَعِدُ مِنَ الخَوْفِ : « سأكونُ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّكَ يا سَيِّدي . وَلكِنْ لَوْ سَمَحَ سَيِّدي .»

« ماذا ؟»

« لا أريدُ أنْ أضَعَ هذِهِ اللافِتَةَ على ظَهْري .»

صاحَ الرَّجُلُ غاضِباً : « كَيْفَ تَجْرُؤُ ؟ بَلْ سَتَضَعُها رَغْمَ أنْفِكَ لأيّامٍ كَثيرَةٍ قادِمَةٍ . وَالآنَ ، اُغْرُبْ عَنْ وَجْهي سَريعاً !» وَانْتَفَضَ واقِفاً ، فَفَرَرْتُ إلى خارِجِ الحُجْرَةِ .

كانَ ترادِيلز أوَّلَ تِلْميذٍ يَعودُ إلى المَدْرَسةِ بَعْدَ انْقِضاءِ العُطْلَةِ، وَلَقَدْ تَحَدَّثَ مَعي طَويلاً دونَ أنْ يُشيرَ إلى اللافِتَةِ التي أحْمِلُها على ظَهْري ، فَكانَ ذلِكَ سَبَبَ إعْزازي وإكْباري لِشَخْصِهِ حتّى نِهايَةِ العُمْرِ .

ثُمَّ أخَذَ الفِتْيانُ يَفِدونَ الواحِدَ تِلْوَ الآخَرِ . وَشَرَعوا يَضْحَكونَ وَيَسْخَرونَ مِنّي قائِلينَ : « اُنْظُروا إلى هذا الفَتى الَّذي عُلِّقَتْ لافِتَةٌ إلى ظَهْرِهِ ! إنَّهُ يَعَضُّ مِثْلَ الكِلابِ !» ، فاضْطُرِرْتُ إلى الوَحْدَةِ وَالانْعِزالِ ؛ وَتَفاقَمَ بِذلِكَ ضيقي وَتَعاسَتي .

وَأخيراً وَصَلَ ستيرفورث .

وبَعْدَ أنْ حَيّاني بادَرَني سائِلاً: « هَلْ لَدَيْكَ نُقودٌ ، يا كوپرفيلد ؟»

« أجَلْ .»

« إذاً أعْطِني إيّاها ، وَسَوْفَ أرَتِّبُ لَكَ قَضاءَ وَقْتٍ مُمْتِعٍ .»

وأرْدَفَ وَأنا أناوِلُهُ النُّقودَ : « أنْتَ تُريدُ إنْفاقَ شَيْءٍ مِنْها ، أ لَيْسَ كَذلِكَ ؟»

« لَسْتُ أدْري .»

« بَلْ أنْتَ تُريدُ ذلِكَ بِالتَّأكيدِ . حَسَنٌ ، سَوْفَ أبْتاعُ لَكَ قِنّينَةً مِنَ العَصيرِ وَبَعْضَ الفَطائِرِ .»

واسْتَخَفَّنا المَرَحُ عِنْدَما كُنّا نأكُلُ وَنَشْرَبُ وَنَسْمُرُ في الغُرْفَةِ الوَحيدَةِ المُخَصَّصَةِ لِنَوْمِنا جَميعاً . وَفي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أبْلَغَني الأوْلادُ بِأنَّ السَّيِّدَ كريكل ، صاحِبَ المَدْرَسَةِ ، مُديرٌ فاشِلٌ وَمُعَلِّمٌ جاهِلٌ ، فاسْتَغْرَبْتُ ذلِكَ القَوْلَ ، إذْ كُنْتُ أظُنُّ أنَّ المُدَرِّسينَ لا بُدَّ أنْ يَكونوا مِنَ المُثَقَّفينَ .

وَفي اليَوْمِ التّالي فاجَأنا السَّيِّدُ كريكل في أثْناءِ جُلوسِنا في حُجْرَةِ الدَّرْسِ ، وتَقَدَّمَ إلى مَقْعَدي قائِلاً : « يَقولونَ إنَّكَ تَعَضُّ ، يا كوپرفيلد ! اِعْلَمْ أنَّ هذِهِ العَصا يُمْكِنُ أيْضاً أنْ تَعَضَّ !»

وأخَذَ يهُزُّ عَصاهُ في وَجْهي ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أنْ هَوى على جَسَدي بِضَرْبَةٍ شَديدَةٍ وهُوَ يَقولُ : « هَلْ تَروقُكَ هذهِ ؟» ثُمَّ أعْقَبَها بِبِضْعِ ضَرَباتٍ أُخَرَ ، فَصَرَخْتُ باكِياً مِنَ الغَيْظِ وَالأَلَمِ .

كانَ يَوْمُنا الدِّراسِيُّ الأَوَّلُ قاتِماً كَئيباً ، نالَتْ فيهِ عَصا السَّيِّدِ كريكل مِنْ أجْسادِنا جَميعاً ، فيما عَدا ستيرفورث .

وَمَرَّتِ الأَيّامُ والأَسابيعُ ، وَكُنْتُ أَقُصُّ عَلى ستيرفورث قِصَّةً طَويلَةً كُلَّ لَيْلَةٍ ، فَلَمْ يَلْبَثِ الفَتى أنِ انْجَذَبَ إليَّ ، وَأَصْبَحْنا صَديقَيْنِ حَميمَيْنِ . وَقَدْ أَحَبَّني السَّيِّدُ مِلْ كَذلِكَ ، فَصِرْتُ أَسْتَوْعِبُ دُروسَهُ جَيِّداً . وَسَرْعانَ ما نَزَعَ اللافِتَةَ عَنْ ظَهْري .

غَيْرَ أَنَّني ما زِلْتُ أَذْكُرُ واقِعَةً أَليمَةً جَرَتْ بَيْنَ السَّيِّدِ مِلْ وَستيرفورث رَغْمَ تَقادُمِ العَهْدِ بِها : فَفي ذاتِ يَوْمٍ مِنْ أَيّامِ العُطْلَةِ المَدْرَسِيَّةِ ، انْعَقَدَ شَمْلُنا في قاعَةِ الدَّرْسِ ، فَأَخَذْنا نَلهو وَنَمْرَحُ في خِفَّةٍ وَطَيْشٍ ، وَكانَ ستيرفورث أَشَدَّنا صَخَباً وَضَجيجاً .

وَفَجْأَةً صاحَ السَّيِّدُ مِلْ في غَضَبٍ قائِلاً : « ستيرفورث ! اِلْزَمِ الهُدوءَ !»

تَساءَلَ ستيرفورث في بُرودٍ : « مَنْ تَعْني بِهذا الأَمْرِ ، يا سَيِّدُ مِلْ ؟»

أجابَ السَّيِّدُ مِلْ : « أَعْنيكَ أَنْتَ يا ستيرفورث . إِنَّكَ لَفي غايَةِ الوَقاحَةِ !»

قالَ ستيرفورث : « أنا لَسْتُ وَقِحاً ، يا سَيِّدُ مِلْ ، وَإِنَّما أنا فَتًى كَريمُ المَحْتِدِ ، في حينِ أَنَّكَ أَنْتَ مُعَلِّمٌ فَقيرٌ مَغْمورٌ . وَلَقَدْ جَرى العُرْفُ عَلى أَنَّ السَّيِّدَ المُهَذَّبَ لا يَتَوَقَّحُ عَلى إِنْسانٍ رَقيقِ الحالِ .»

أجابَ السَّيِّدُ مِلْ عَلى الفَوْرِ : « لَسْتَ سَيِّداً وَلا مُهَذَّباً يا ستيرفورث ! فَإِنَّ سُلوكَكَ يَفْتَقِرُ إِلى الكَرَمِ وَالنُّبْلِ . أَنْتَ تُؤْذي زَميلَكَ الطَّيِّبَ الرَّقيقَ - كوبرفيلد - الَّذي لا تَرْقى أَخْلاقُكَ الوَضيعَةُ إِلى خُلُقِهِ الرَّفيعِ .»

صاحَ ستيرفورث ، وَقَدْ صَعِدَ الدَّمُ إِلى رَأْسِهِ : « اُصْمُتْ ! اُصْمُتْ وَإِلا ضَرَبْتُكَ !»

وَدَخَلَ السَّيِّدُ كريكل ، وَهُوَ يُرْغي وَيُزْبِدُ قائِلاً : « ما هذِهِ الجَلَبَةُ ؟ ماذا يَجْري هُنا يا سَيِّدُ مِلْ ؟»

أجابَ السَّيِّدُ مِلْ : « إِنَّ ستيرفورث يَتَوَقَّحُ عَلَيَّ .»

نَظَرَ السَّيِّدُ كريكل إِلى ستيرفورث ، وَقالَ في دَهْشَةٍ : « ستيرفورث ؟ وَلكِنَّهُ فَتًى كَريمُ العُنْصُرِ ، وَأُمُّهُ سَيِّدَةٌ ثَرِيَّةٌ . أَ حَقًّا

توقَّحْتَ على مُدَرِّسِكَ يا ستيرفورث ؟»

أجابَ ستيرفورث : « لا ، لَقَدْ قُلْتُ إنَّهُ فقيرٌ فَحَسْبُ ، وأنا أعْرِفُ أنَّهُ كَذلِكَ بِالفِعْلِ .»

وَالْتَفَتَ السَّيِّدُ كريكل إلى السَّيِّدِ مِلْ ، وَقالَ : « هَلْ أنْتَ فَقيرٌ بِالفِعْلِ ، يا سَيِّدُ مِلْ ؟»

أجابَ السَّيِّدُ مِلْ : « أجَلْ ، يا سَيِّدي .»

قالَ السَّيِّدُ كريكل : « لَمْ أكُنْ أعْرِفُ أنَّكَ فَقيرٌ يا مِلْ ! هذا أمْرٌ مُؤْسِفٌ ! فَإنَّ جَميعَ المُدَرِّسينَ هُنا مِنْ عِلْيَةِ القَوْمِ ، وَنَحْنُ لا نُحَبِّذُ وُجودَ فُقَراءَ بَيْنَنا !»

بُهِتَ السَّيِّدُ مِلْ ، غَيْرَ أنَّهُ تَمالَكَ نَفْسَهُ ، واسْتَأْذَنَ في الانْصِرافِ. وأذِنَ لهُ السَّيِّدُ كريكل قائِلاً : « تَفَضَّلْ ، فَإنَّهُ يَحْسُنُ أنْ تَمْضِيَ الآنَ مِنْ فَوْرِكَ .»

وَتَطَلَّعْنا جَميعاً إلى السَّيِّدِ مِلْ ، وَهُوَ يَأْخُذُ نايَهُ وكُتُبَهُ ويُغادِرُ الحُجْرَةَ . ورانَ عَلَيْنا صَمْتٌ ثَقيلٌ ، وَلَمْ يَرْغَبْ أحَدٌ في النَّظَرِ إلى وَجْهِ ستيرفورث .

وَعَلِمْتُ فيما بَعْدُ أنَّ السَّيِّدَ مِلْ قَدْ تَرَكَ المَدْرَسَةَ إلى غَيْرِ رَجْعَةٍ.

وَكُنْتُ مِنْ أكْثَرِ التَّلاميذِ حُزْنًا لِفِراقِهِ ، رَغْمَ الصَّداقَةِ الَّتي كانَتْ تَرْبِطُني بستيرفورث ، ذلِكَ أنَّهُ كانَ مُعَلِّماً مُخْلِصاً شَديدَ الحَدَبِ عَلَيَّ ، كَما كانَ مُعيناً لي عَلى اسْتيعابِ دُروسي .

على أنَّ السَّعادَةَ لَمْ تَلْبَثْ أنْ حَلَّتْ بي ؛ فَذاتَ يَوْمٍ فاجَأَني السَّيِّدُ بيغوتي وَمَعَهُ هام بِالزِّيارَةِ .

قالَ السَّيِّدُ بيغوتي : « لَقَدْ حَضَرْنا إلى لَنْدَن لِقَضاءِ بَعْضِ المَهامِّ ، فَعَزَمْنا عَلى زِيارَتِكَ . كَيْفَ حالُكَ يا داقيد ؟»

« إنَّني مُغْتَبِطٌ لِرُؤْيَتِكُما أشَدَّ الاغْتِباطِ ! كَيْفَ حالُ إميلي ؟»

« عَلى خَيْرِ ما يُرامُ .»

« والسَّيِّدة غَميدْج ؟»

« إنَّها بِخَيْرٍ كَذلِكَ .»

عِنْدَئِذٍ تَقَدَّمَ هام قائِلاً : « لَقَدْ أحْضَرْنا لَكَ هَدِيَّةً مِنَ الأسْماكِ الفاخِرَةِ . هَلْ تُحِبُّ لَحْمَ السَّمَكِ ؟»

« أحِبُّهُ لِلغايَةِ .»

وَغَمَرَني الفَرَحُ لِتِلْكَ الهَدِيَّةِ ؛ فَقَدْ كانَ يُلازِمُني الشُّعورُ

بِالجوعِ في تِلْكَ المَدْرَسَةِ .

وَفَجْأةً دَلَفَ ستيرفورث إلى الحُجْرَةِ ، وَما إنْ رَأى هام والسَّيِّدَ بيغوتي حتَّى تَراجَعَ قائِلاً : « مَعْذِرَةً للإزْعاجِ ؛ فَلَمْ أكُنْ أعْلَمُ أنَّ بِصُحْبَتِكَ ضُيوفاً .»

« لَيْسَ ثَمَّةَ إزْعاجٌ . اِجْلِسْ كَيْ أُعَرِّفَكَ بِهذَيْنِ الصَّديقَيْنِ . هذا السَّيِّدُ بيغوتي ، وَهَذا هام .» وَصافَحَهُما ستيرفورث .

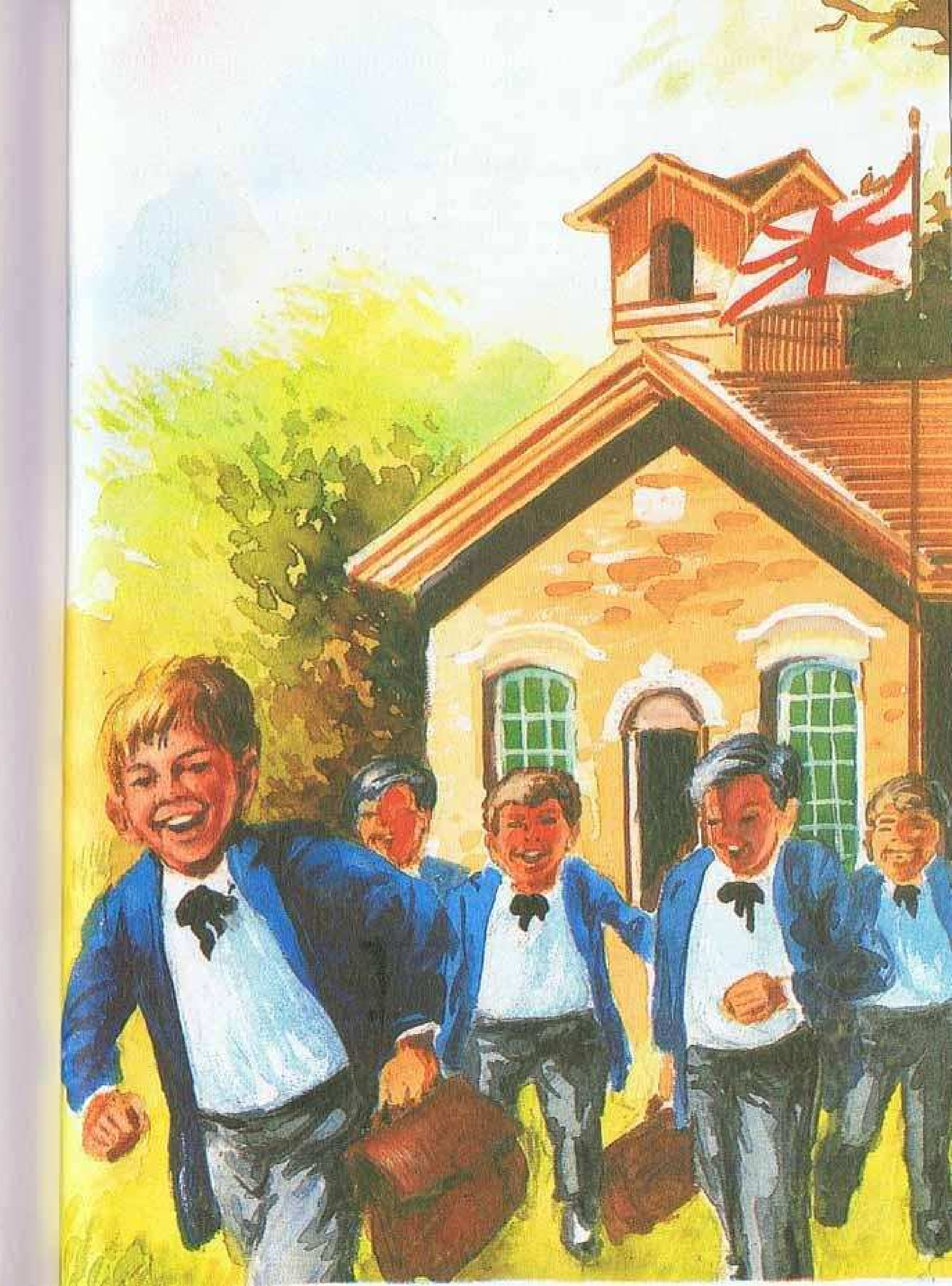
قُلْتُ لَهُ : « إنَّ السَّيِّدَ بيغوتي يَمْتَلِكُ مَنْزِلاً فَريداً في يارْمَوْث ، عَلى هَيْئَةِ قارِبٍ .»

أجابَ ستيرفورث في دَهْشَةٍ : « هذا شَيْءٌ مُثيرٌ !»

قُلْتُ للسَّيِّدِ بيغوتي : « سَوْفَ أحْضُرُ لِزيارَتِكُمْ في القَريبِ العاجِلِ . هَلْ يُمْكِنُني أنْ أصْطَحِبَ ستيرفورث لِيَرى مَنْزِلَكُمُ الفَريدَ ؟»

أجابَ الرَّجُلُ الكَريمُ : « سَوْفَ يُسْعِدُنا ذلِكَ بِكُلِّ تأكيدٍ .»

وَلَم يَلْبَثْ هام والسَّيِّدُ بيغوتي أنِ اسْتَأْذَنا في الانْصِرافِ . وَأخيراً حَلَّ اليَوْمُ السَّعيدُ المُرْتَقَبُ – أوَّلُ أيّامِ إجازَتِنا المَدْرَسِيَّةِ ، وَشَرَعَ جَميعُ التَّلاميذِ في العَوْدَةِ إلى بُيوتِهِمْ .



الفصل الرابع

رَكِبْتُ العَرَبَةَ إلى يارْمَوْث أَوَّلاً ، ومِنْها صَحِبَني بارْكِز إلى مَنْزِلي . وَبَيْنَما كُنْتُ أَقْرَعُ البابَ إذْ سَمِعْتُ أُمِّي وَهِيَ تُغَنِّي في الدّاخِلِ . واسْتَقْبَلَتْني بِفَرَحٍ غامِرٍ ، وعانَقَتْني بِحَرارَةٍ ، وكَذا فَعَلَتْ بيغوتي أَيْضاً . ولَمْ تَلْبَثْ أَنْ جاءَتْ تَحْمِلُ طِفْلاً حَديثَ الوِلادَةِ ، وَهِيَ تَقولُ : « لَقَدْ رُزِقْتَ بِأَخٍ صَغيرٍ ، يا داڤيد .»

وتَناوَلْنا الطَّعامَ مَعاً إلى جانِبِ المِدْفَأَةِ . وأَخْبَرْتُ بيغوتي بِرَغْبَةِ بارْكِز في الزَّواجِ بِها ، فَضَحِكَتْ قائِلَةً بِأَنَّهُ مَجْنونٌ ، غَيْرَ أَنَّها خَفَضَتْ ناظِرَيْها ، وغَطَّتْ بِيَدَيْها وَجْهَها الَّذي كَسَتْهُ حُمْرَةُ الخَجَلِ وَالحَياءِ .

وقالَتْ أُمِّي في حُزْنٍ : « هَلْ سَتَتَزَوَّجينَ بارْكِز ، يا بيغوتي ؟ هَلْ سَيَهونُ عَلَيْكِ فِراقي ؟»

أجابَتْ بيغوتي ، وَهِيَ تُطَوِّقُ والِدَتي بِذِراعَيْها : « لا ، يا حَبيبَتي ، أنا لَنْ أُفارِقَكِ .»

وَ تَحَدَّثْنا عَنِ السَّيِّدِ مِرْدِسْتون ، فَقالَتْ بيغوتي إِنَّها لا تُحِبُّهُ ، لأَنَّهُ لا يُحِبُّني ، عِنْدَئِذٍ لاحَ الغَضَبُ عَلى وَجْهِ وَالِدَتي ، وأَنْكَرَتْ مِنْها هذا القَوْلَ ، فَلَمْ تَجِدِ الخادِمَةُ المُخْلِصَةُ مَناصاً مِنْ الاعْتِذارِ . وَهُنا عادَتْ الابْتِسامَةُ إلى شَفَتَيْ والِدَتي ، وَهِيَ تَقولُ : « إنَّني جِدُّ سَعيدَةٍ بِعَوْدَةِ داڤيد إلى البَيْتِ . أُريدُ أَنْ تَقْرَأَ لَنا إِحْدى القِصَصِ ، يا داڤيد .»

وَقَرَأْتُ لَهُما قِصَّةً ، وَقَضَيْنا مَعاً أُمْسِيَةً سَعيدَةً . وَلَمّا دَقَّتِ السّاعَةُ العاشِرَةَ ، سَمِعْنا صَوْتَ السَّيِّدِ مِرْدِسْتون وَأُخْتِهِ في الخارِجِ .

عِنْدَئِذٍ قالَتْ أُمِّي هامِسَةً : « وَالآنَ اذْهَبْ إلى فِراشِكَ ، يا داڤيد. اِذْهَبْ سَريعاً .» وَذَهَبْتُ إلى فِراشي دونَ أَنْ أَرى الرَّجُلَ .

غَيْرَ أَنَّني رَأَيْتُهُ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي . كانَ واقِفاً قُرْبَ المِدْفَأَةِ ، فَتَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ ، واعْتَذَرْتُ عَنْ عَقْري إِيّاهُ . وَصافَحَني الرَّجُلُ في بُرودٍ ، دونَ أَنْ يَنْبِسَ بِبِنْتِ شَفَةٍ .

وما إِنْ جَلَسَتِ الآنِسَةُ مِرْدِسْتون إلى المائِدَةِ حَتّى بادَرَتْ بِالسُّؤالِ

عَنْ مَوْعِدِ انْتِهاءِ إجازَتي وعَوْدَتي إلى المَدْرَسَةِ . وعِنْدَما أخْبَرْتُها أنَّ العُطْلَةَ سَوْفَ تَمتَدُّ ثَلاثينَ يَوْماً ، مَطَّتْ شَفَتَيْها قائِلَةً : « شَهْرٌ بأكْمَلِهِ ! هذا كَثيرٌ !» ثُمَّ أرْدَفَتْ بِفَظاظَةٍ ، وَهِيَ تَفْتَعِلُ الابْتِسامَ : « على أَيَّةِ حالٍ لن يَلْبَثَ الشَّهْرُ أنْ يَنْقَضِيَ ، ثُمَّ تغادِرَنا بَعْدَ ذلِكَ إلى مَدْرَسَتِكَ .»

كُنْتُ أجْلِسُ عادةً مَعَ أمِّي والآنسةِ مِرْدِسْتُون ، وَلَمْ يَكُنِ السَّيِّدُ مِرْدِسْتُون يَتَحَدَّثُ إليَّ إلّا لِماماً . عَلى أنَّ أخي الطِّفْلَ كانَ مَعَنا دائِماً ، وَلَقَدْ أحْبَبْتُهُ بِشِدَّةٍ . وذاتَ يَوْمٍ كانَتْ أمِّي تُمْسِكُ بالطِّفْلِ ، عِنْدَما حَمَلْتُهُ عَنْها ، وضَمَمْتُهُ إلى صَدْري ؛ عِنْدَئِذٍ أطْلَقَتِ الآنِسَةُ مِرْدِسْتُون صَرْخَةً مُدَوِّيَةً .

سَأَلَتْها أمِّي : « ماذا بِكِ ؟»

صاحَتِ الآنِسَةُ مِرْدِسْتُون قائِلَةً : « لا تَدَعي هذا الفَتى يَحْمِلُ الطِّفْلَ . إنه سَيُلْحِقُ بِهِ الأذى .»

وَانْدَفَعَتْ نَحْوي ، وَنَزَعَتْ مِنّي الطِّفْلَ ، فَشَعَرْتُ بِغُصَّةٍ شَديدَةٍ .

هكَذا كانَ يَرْكَبُني الغَمُّ كُلَّما الْتَقَيْتُ السَّيِّدَ مِرْدِسْتُون أوْ شَقيقَتَهُ . وَلَقَدْ دَعاني ذلِكَ إلى لُزومِ حُجْرَتي الخاصَّةِ حَيْثُ كُنْتُ

أقْضي مُعْظَمَ الوَقْتِ في مُطالَعَةِ القِصَصِ ، كَما كُنْتُ أزورُ بيغوتي في غُرْفَتِها بَيْنَ الحينِ والآخَرِ . ويَبْدو أنَّ السَّيِّدَ مِرْدِسْتُون لَمْ يَرُقْ لَهُ ذلِكَ ؛ إذْ لَمْ يَلْبَثْ أنِ اسْتَدْعاني إلَيْهِ ذاتَ يَوْمٍ ، وَقالَ : « ما لي أراكَ غاضِباً مُتَجَهِّمَ الوَجْهِ على الدَّوامِ ، تَقْضي سَحابَةَ نَهارِكَ في وَحْدَةٍ وانْفِرادٍ ، أوْ في الثَّرْثَرَةِ مَعَ الخَدَمِ الجُهَلاءِ (يعني بيغوتي) أرى أنَّكَ تَتَحاشَى رُؤْيَتي ، وَتَتَجَنَّبُ رُؤْيَةَ أخْتي كَذلِكَ ، وفي هذا صَلَفٌ مِنْكَ وَ وَقاحَةٌ ! يَجِبُ أنْ تَجْلِسَ إلى كِلَيْنا مِنَ الآنَ فَصاعِداً ، وَتَتَحَدَّثَ إلَيْنا وَإلى والِدَتِكَ .»

لَمْ أجِدْ بُدّاً بَعْدَ ذلِكَ مِنْ أنْ أجالِسَهُمْ كُلَّ مَساءٍ ، وإنْ كُنْتُ أزْجي الوَقْتَ بِالقِراءَةِ كالمُعْتادِ ؛ فالسَّيِّدُ مِرْدِسْتُون وَشَقيقَتُهُ كانا عازِفَيْنِ عَنِ الكَلامِ ، وكانَتْ والِدَتي لا تَجْرُؤُ على أنْ تَقْطَعَ صَمْتَهُما بِحَديثٍ ما . وكُنْتُ أهْرَعُ إلى فِراشي في التّاسِعَةِ تَماماً .

وَعِنْدَما حَلَّ اليَوْمُ الأخيرُ مِنْ عُطْلَتي ، وكانَ يَوْماً قارِسَ البَرْدِ ، جاءَ بارْكِز لِيَحْمِلَني في عَرَبَتِهِ إلى المَدْرَسَةِ . وصافَحْتُ السَّيِّدَ مِرْدِسْتُون وشَقيقَتَهُ مُوَدِّعاً ، ثُمَّ قَبَّلْتُ والِدَتي في حَرارَةٍ . و وَقَفَتْ أمِّي تُلَوِّحُ لي بِإحْدى يَدَيْها عِنْدَ البابِ ، وَهِيَ تَحْمِلُ صَغيرَها على اليَدِ الأخْرى . وتَزَوَّدْتُ مِنْهُما بِنَظْرَةٍ أخيرَةٍ ، ثُمَّ انْطَلَقَتِ العَرَبَةُ في

طَريقِها المَرْسومِ .

ومرَّ شَهْرانِ . وذاتَ يَوْمٍ اسْتَدْعَتْني زَوْجَةُ السَّيِّدِ كريكل إلى حُجْرَتِها ، وقالَتْ لي في رِقَّةٍ وعَطْفٍ : « سَوْفَ أُفْضي إلَيْكَ بِنَبأٍ مُؤْسِفٍ يا داقيد ، ولكِنْ أرْجوكَ أنْ تَتَماسَكَ : إنَّ والِدَتَكَ تُعاني مَرَضاً شَديداً .»

لَمْ أسْتَطِعْ أنْ أنْطِقَ بِشَيْءٍ . وَ وَقَفْتُ أنْتَظِرُ تَمامَ الحَديثِ ، وقَدْ غَشِيَني خَوْفٌ عَظيمٌ .

وأرْدَفَتِ السَّيِّدَةُ بَعْدَ هُنَيْهَةٍ مِنَ الصَّمْتِ : « الحَقيقَةُ أنَّ حَياةَ أمِّكَ قَدِ انْتَهَتْ عَلى الأرْضِ ، ولَقَدْ لَبَّتْ نِداءَ رَبِّها بِالأمْسِ !»

شَهِقْتُ شَهْقَةً عالِيَةً ، ثُمَّ انْخَرَطْتُ في البُكاءِ .

وَبَعْدَ أنْ هَدَأتُ قَليلاً سَأَلْتُها : « وَكَيْفَ حالُ أخي الصَّغيرِ ؟»

« إنَّهُ مَريضٌ ، مَريضٌ لِلْغايَةِ . يَجِبُ أنْ تَعودَ غَداً إلى مَنْزِلِكَ .»

كانَتِ الآنِسَةُ مِرْدِسْتون أوَّلَ مَنْ رَأيْتُ لَدى عَوْدَتي إلى البَيْتِ . ولِدَهْشَتي الشَّديدَةِ لَمْ تُعَزِّني في وَفاةِ أمِّي ، واكْتَفَتْ بِأنْ أمَرَتْني بِأنْ ألْزَمَ حُجْرَتي .

وَبَدا السَّيِّدُ مِرْدِسْتون مَكْروباً شَديدَ الحُزْنِ ، وكانَ يَذْرَعُ المَنْزِلَ جيئَةً وذَهاباً ، وقَدِ اسْتَبَدَّ بِهِ التَّوَتُّرُ والقَلَقُ .

أمّا بيغوتي فَقَدْ أحاطَتْني بِذِراعَيْها ، وقالَتْ لي وَهِيَ تَزْفِرُ : « لَقَدْ عانَتْ أمُّكَ مِنَ المَرَضِ طَويلاً ، وكانَتْ تَتَحَدَّثُ عَنْكَ كُلَّ يَوْمٍ . تَذَكَّرْها دائِماً ، يا عَزيزي ، وثِقْ بِأنَّها كانَتْ تُحِبُّكَ .»

أجَبْتُها بِأنَّني سَوْفَ أفْعَلُ – غَيْرَ أنَّني كُنْتُ أوَدُّ أنْ أتَذَكَّرَها كَما كانَتْ تَبْدو في أيّامِها المُشْرِقَةِ السَّعيدَةِ قَبْلَ زَواجِها بِهذا السَّيِّدِ ، لا في أيّامِ بُؤْسِها وشَقائِها بَعْدَ الزَّواجِ مِنْهُ .

لَمْ أعُدْ إلى المَدْرَسَةِ بَعْدَ وَفاةِ أمِّي ، فَلَقَدْ أرادَ السَّيِّدُ مِرْدِسْتون أنْ يُوَفِّرَ نَفَقاتِ الدِّراسَةِ . وهكَذا بَقيتُ رَهينَ البَيْتِ التَّعِسِ الحَزينِ ، وأصْبَحَ هُوَ وشَقيقَتُهُ يُكِنّانِ لي كُرْهاً أكْثَرَ مِنْ ذي قَبْلُ .

وقالَتْ لي بيغوتي ، ذاتَ يَوْمٍ وَأنا جالِسٌ في غُرْفَتِها : « إنَّ السَّيِّدَ مِرْدِسْتون لا يَرْغَبُ في بَقائي بَعْدَ الآنَ ، ولِذا فَقَدْ قَرَّرْتُ البَحْثَ عَنْ عَمَلٍ جَديدٍ . سَوْفَ أذْهَبُ إلى يارْمَوْث أوَّلاً لِقَضاءِ بِضْعَةِ أيّامٍ ، فَهَلْ تُحِبُّ أنْ تَصْحَبَني إلى هُناكَ ؟»

وافَقْتُ عَلى الفَوْرِ ، كَما أذِنَ لِيَ السَّيِّدُ مِرْدِسْتون بِذلِكَ . وفي

ذاتَ صَباحٍ ، انْطَلَقَتْ بنا عَرَبةُ السَّيِّدِ باركز ، وكانَ الرَّجُلُ جِدَّ سَعيدٍ بِجُلوسِ بِيغوتي في عَرَبَتِهِ ، كما كانَتْ هِيَ في الوَقْتِ نَفْسِهِ سَعيدةً بِوُجودِهِ .

وأخيراً وَصَلْنا إلى مَنْزِلِ السَّيِّدِ بِيغوتي الَّذي ابْتَهَجَ لِلقائِنا .

وبادَرْتُهُ بِالسُّؤالِ عَنْ إميلي ، فأجابَ بِأنَّها ما زالَتْ في المَدْرَسَةِ ، وأنَّها لَنْ تَلْبَثَ أنْ تَعودَ .

وَما هِيَ إلّا لَحَظاتٌ حَتّى عادَتِ الفَتاةُ الصَّغيرَةُ الجَميلَةُ ، وعَلَتْ وَجْهَها الدَّهْشَةُ لِرُؤْيَتِنا ، وصافَحْتُها قائلاً : « كَيْفَ حالُكِ يا إميلي ؟ هل تَسْمَحينَ لي بِتَقْبيلِكِ ؟ »

أجابَتْ ، وَقَدِ احْمَرَّتْ وَجْنَتاها : « كُفَّ عَنْ هذا الحُمْقِ ! »

عَلى أنَّها عادَتْ بَعْدَ حينٍ ، وَجَلَسَتْ إلى جانِبي ، ثُمَّ قالَتْ وَهِيَ تُمْسِكُ بِيَدي : « أعرِفُ أنَّ أمَّكَ وأخاكَ الصَّغيرَ قَدْ تُوُفِّيا ، وَلَقَدْ حَزِنْتُ كَثيراً لِذلِكَ . » ودَمَعَتْ عَيْناها الزَّرْقاوانِ الجَميلَتانِ ، وبَدَتْ في حُزْنِها شَديدَةَ السِّحْرِ والجاذِبِيَّةِ . وتَناوَلْنا الطَّعامَ جَميعاً في بَيْتِ السَّيِّدِ بِيغوتي ، ثُمَّ أخَذْنا نَتَجاذَبُ أطْرافَ الحَديثِ .

قالَ السَّيِّدُ بِيغوتي : « إنَّ صَديقَكَ ستيرفورث فتىً رائعٌ ،

يا داڤيد . »

أجَبْتُهُ قائلاً : « أجَلْ ، وَهُوَ ذَكِيٌّ ، شديدُ البَراعَةِ كَذلِكَ . إنَّهُ يَسْتَوْعِبُ دُروسَهُ بِسُرْعَةٍ مُذْهِلَةٍ . »

وأرْدَفَ السَّيِّدُ بِيغوتي ، وَهُوَ يَضْحَكُ : « أُنْظُرْ إلى إميلي . لقد أُعْجِبَتْ بِستيرفورث قَبْلَ أنْ تَراهُ ! »

فَأشْرَقَ وَجْهُ الفَتاةِ خَجَلاً ، وسَرْعانَ ما غَطَّتْهُ بِيَدَيْها . واسْتَرْسَلَ السَّيِّدُ بِيغوتي و هام في مُداعَبَةِ إميلي ؛ فَقَدْ كانا يُحِبّانِها كَثيراً ، ويُدَلِّلانِها أكْثَرَ مِمّا يَنْبَغي .

كانَ الوَقْتُ في يارْمَوْث سَعيداً دائماً . وذاتَ يَوْمٍ كانَتْ بِيغوتي وباركز يَدَّخِرانِ لنا مُفاجَأةً سارَّةً قَبْلَ العَوْدَةِ : فَقَدْ غادَرا المَنْزِلَ في مَلابِسَ جَديدَةٍ أنيقَةٍ ، وإنْ هِيَ إلّا ساعَةٌ وَبَعْضُ السّاعَةِ حتّى عادا بَعْدَ أنْ عَقَدا قِرانَهُما المَيْمونَ .

وانْقَضى الوَقْتُ السَّعيدُ الَّذي قَضَيْناهُ في يارْمَوْث سَريعاً ، وَحانَ مَوْعِدُ عَوْدَتي إلى البَيْتِ التَّعِسِ الكَئيبِ . وَعَزَفَ السَّيِّدُ مِرْدِسْتون عَنْ ضَرْبي ، وإنْ ظَلَّ مُتَحاشِياً التَّحَدُّثَ إليَّ . وكانَتْ أخْتُهُ تُقَدِّمُ لِي الطَّعامَ كُلَّ يَوْمٍ . وَلَمْ يَكَدْ يَمُرُّ أسْبوعانِ حتّى اسْتَدْعاني إلى حُجْرَتِهِ

الخاصَّةِ ، وكانَ يَجْلِسُ بِها رَجُلٌ غَريبٌ ، وحَدَجَني بِنَظْرةٍ سَريعةٍ ، ثُمَّ قالَ : « هَذا هُوَ السَّيِّدُ كوينيون ، يا داڤيد . لَقَدْ حَصَلْتُ لَكَ على عَمَلٍ في مَكْتَبِهِ بِلندن ، وَسَوْفَ تَرْحَلُ غَداً إلى هُناكَ . يَجِبُ أنْ تَحْصُلَ على قُوتِكَ بِعَرَقِ جَبينِكَ مِنَ الآنَ فَصاعِداً ، وسَوْفَ أقومُ بِدَفْعِ إيجارِ الغُرْفَةِ الَّتي سَتَسْكُنُها هُناكَ .»

الفصل الخامس

كانَ مَكْتَبُ السَّيِّدِ كوينيون في لندن قَذِراً ومُظْلِماً ، وكانَ يُشارِكُني في العَمَلِ غُلامانِ يَكْبُرانني بِقَليلٍ – وكُنْتُ إذْ ذاكَ في العاشِرَةِ مِنْ عُمْري . كُنّا نَقْضي سَحابَةَ النَّهارِ في غَسْلِ القَواريرِ المُتَسِخَةِ ، ولَمْ ألْبَثْ أنْ مَلِلْتُ ذَلِكَ العَمَلَ الكَريهَ .

وفي اليَوْمِ الأوَّلِ لالْتِحاقي بالعَمَلِ ، اسْتَدْعاني السَّيِّدُ كوينيون وقَدَّمَ لي رَجُلاً أصْلَعَ يَرْتَدي مِعْطَفاً بُنِّيّاً ، وقالَ : « هَذا هُوَ السَّيِّدُ ميكاوْبر الَّذي سَتُقيمُ عِنْدَهُ .»

وصافَحْتُ الرَّجُلَ ؛ فَبادَرَني بِالسُّؤالِ : « مَتى سَتَفْرُغُ مِنَ العَمَلِ اليَوْمَ ؟»

« في الثّامِنَةِ مَساءً ، يا سَيِّدي .»

قالَ الرَّجُلُ : « إذاً فَسَوْفَ أحْضُرُ في الثّامِنَةِ لاصْطِحابِكَ إلى

مَنْزِلي .»

كانَ السَّيِّدُ ميكاوبر يَعيشُ في مَنْزِلٍ كَثيرِ الحُجُراتِ ، ولكِنَّ الفَقْرَ المُدْقِعَ كانَ يُعَشِّشُ في جَنَباتِهِ. وَلَقَدْ أَخْبَرَتْني زَوْجَتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ رَجُلٌ سَيِّءُ الطَّالِعِ مادِّيٌّ ، وأَنَّهُ مَدينٌ لِعَدَدٍ كَبيرٍ مِنَ النّاسِ .

كُنْتُ حينَئِذٍ فَقيرًا مِثْلَهُ ؛ فَقَدْ كانَ السَّيِّدُ كوينيون يَنْقُدُني سِتَّةَ شِلِناتٍ أَجْرًا في الأُسْبوعِ ، وكانَتْ تَكادُ تَكْفي لِطَعامي – عَلى أَنَّ أُسْرَةَ السَّيِّدِ ميكاوبر كانَتْ أَشَدَّ بُؤْسًا ومُعاناةً !

وقالَتْ لِيَ السَّيِّدَةُ ميكاوبر ذاتَ يَوْمٍ : « لَقَدْ فَرَغَ البَيْتُ مِنَ الطَّعامِ تَمامًا يا دافيد ، وَلَمْ نَعُدْ نَمْلِكُ أَيَّ مَبْلَغٍ مِنَ المالِ ؛ هَلْ يُمْكِنُكَ مُساعَدَتي ؟»

كانَ في حَوْزَتي شِلْنانِ ، فَقَدَّمْتُهُما إِلَيْها عَلى الفَوْرِ ، ولكِنَّها شَكَرَتْني قائِلَةً في حُزْنٍ بالِغٍ : « لَسْتُ أَبْغي مِنْكَ نُقودًا ، يا دافيد ، وإِنَّما أُريدُ أَنْ تُساعِدَني في بَيْعِ كُتُبِ السَّيِّدِ ميكاوبر . هَلْ يُمْكِنُكَ أَنْ تَبيعَ لي هَذِهِ الكُتُبَ ؟»

أَجَبْتُ : « بِالتَّأْكيدِ .»

وعِنْدَما عُدْتُ مِنْ مَتْجَرِ الكُتُبِ القَديمَةِ وَنَقَدْتُها الثَّمَنَ ،

انْفَرَجَتْ أَساريرُها ، وقَبَّلَتْني قُبْلَةً حانِيَةً . وَلَقَدْ بِعْتُ لَها أَشياءَ كَثيرةً بَعْدَ ذَلِكَ ؛ فَقَدْ كانَتْ تَمُرُّ هِيَ وَزَوْجُها بِأَيّامٍ عَصيبَةٍ .

وَلَمْ تَلْبَثِ الكارِثَةُ أَنْ حَلَّتْ بِهِما ذاتَ يَوْمٍ ، حينَ أَعْلَنا عَنْ عَجْزِهِما التّامِّ عَنْ سَدادِ دُيونِهِما ، فَدُفِعَ بِهِما إِلى سِجْنِ لندن حَيْثُ زُرْتُهُما عِدَّةَ مَرّاتٍ . عَلى أَنَّ أَقارِبَ السَّيِّدَةِ ميكاوبر تَعاوَنوا في دَفْعِ الدَّيْنِ ، فَأُطْلِقَ سَراحُهُما بَعْدَ حينٍ .

قالَ لِيَ السَّيِّدُ ميكاوبر ، وَنَحْنُ نَتَناوَلُ العَشاءَ مَعًا احْتِفالاً بِخُروجِهِ وَزَوْجَتِهِ مِنَ السِّجْنِ : « سَوْفَ أَرْحَلُ مَعَ زَوْجَتي غَدًا إِلى مَدينَةِ بِلايموث لِنَبْدَأَ حَياةً أَفْضَلَ هُناكَ . نَحْنُ آسِفانِ أَشَدَّ الأَسَفِ لِفِراقِكَ يا دافيد ، عَلى أَنَّني أَوَدُّ أَنْ أُسْدِيَ إِلَيْكَ نَصيحَةً غالِيَةً قَبْلَ رَحيلي : إِذا ما اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكْسِبَ عِشْرينَ جُنَيْهًا في العامِ ، فَلا تُنْفِقْ سِوى تِسْعَةَ عَشَرَ فَقَطْ – حَذارِ مِنْ أَنْ تُنْفِقَ واحِدًا وعِشْرينَ !» فَشَكَرْتُهُ عَلى تِلْكَ النَّصيحَةِ ، وَأَنا في حُزْنٍ بالِغٍ لِفِراقِهِ .

وعِنْدَما حانَ مَوْعِدُ رَحيلِهِما في اليَوْمِ التّالي ، قَبَّلاني في وُدٍّ وحَنانٍ . وقَدَّمْتُ لأَطْفالِهِما بَعْضَ الهَدايا ، و وَقَفْتُ أُلَوِّحُ لَهُما مُوَدِّعًا ، وَالدُّموعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيَّ .

أَصْبَحْتُ ، بَعْدَ رَحيلِهِما ، بِلا أَصْدِقاءَ في لندن . واجْتاحَني

حينئذٍ شُعورٌ جامحٌ بالوَحْشَةِ ، وَبالكُرْهِ لِهذِهِ المدينةِ الكَبيرةِ . ثُمَّ لَمْ أَلْبَثْ أنْ فَكَّرْتُ في اللُّجوءِ إلى عَمَّتي الآنِسةِ بيتسي تروتوود ، الَّتي كُنْتُ أعْلَمُ أنَّها تُقيمُ في مَدينةِ دوفر .

وَفي صَبيحَةِ يَوْمِ السَّفرِ ، غادَرْتُ المَنزلَ حامِلاً صُنْدوقَ مَلابِسي، ثُمَّ اسْتَوْقَفْتُ حُوذيًّا لِيَحْمِلَني مَعَ الصُّنْدوقِ إلى مَوْقِفِ العَرَبَةِ المُسافِرَةِ إلى دوفر .

لَمْ أَطْمَئِنَّ إلى شَكْلِ الحُوذيِّ أَوْ نَظَراتِهِ ، فَوَضَعْتُ قِطْعَةَ النُّقودِ الَّتي أَحْمِلُها في فَمي خَشْيَةَ أَنْ يَسْلُبَني إيَّاها . وَما أَنْ سارَتْ بِنا العَرَبَةُ قَليلاً حَتَّى تَذَكَّرْتُ أَنَّني لَمْ أَكْتُبْ عُنْواني عَلَى الصُّنْدوقِ ، فَطَلَبْتُ إلى الرَّجُلِ أَنْ يَتَوَقَّفَ رَيْثَما أَفْعَلُ ذَلِكَ . وَتَوَقَّفَ الرَّجُلُ بَعْدَ قَليلٍ في شارِعٍ خالٍ مِنَ المارَّةِ ، ثُمَّ نَزَلَ مِنَ العَرَبَةِ وَحَدَجَني بِنَظْرَةٍ قاسِيَةٍ ، وَهُوَ يَقولُ : « لَسْتُ أَعْرِفُ تَفْسيراً لِهذا الَّذي يَحْدُثُ ! لا يُمْكِنُ أَنْ تَكونَ صاحِبَ هذا الصُّنْدوقِ الَّذي لا يَحْمِلُ اسْمَكَ عَلَيْهِ !»

صِحْتُ في غَضَبٍ قائلاً : « بَلْ أَنا صاحِبُ الصُّنْدوقِ دونَ سِوايَ !»

وَعِنْدَئذٍ سَقَطَتْ قِطْعَةُ النُّقودِ مِنْ فَمي ، فالْتَقَطَها بِسُرْعَةٍ ، وَهُوَ

يَقولُ : « وَهذِهِ أَيْضاً لا تَخُصُّكَ ؛ لَقَدْ سَرَقْتَها كَذلِكَ .»

وَقَفَزَ إلى العَرَبَةِ في لَمْحِ البَصَرِ ، وانْطَلَقَ يُسابِقُ الرِّيحَ ، وَهُوَ يَصيحُ قائلاً : « والآنَ ، وَداعاً أَيُّها الأَبْلَهُ !»

وَعَدَوْتُ صارِخاً خَلْفَ العَرَبَةِ ، غَيْرَ أَنَّني لَمْ أَسْتَطِعِ اللَّحاقَ بِها، بِطَبيعَةِ الحالِ .

وَهكَذا سَلَبَني الوَغْدُ نُقودي وَصُنْدوقي ، وَتَرَكَني في حَنَقٍ وَذُهولٍ .

وَكانَ عَلَيَّ أَنْ أَقْطَعَ المَسافَةَ الطَّويلَةَ إلى دوفر سَيْراً عَلى قَدَمَيَّ ، فَأَخَذْتُ أَسْأَلُ المارَّةَ عَنِ الطَّريقِ المُؤَدِّي إلى تِلْكَ المَدينَةِ . وَما إنْ شَرَعْتُ في السَّيْرِ حَتَّى شَعَرْتُ بِجوعٍ شَديدٍ ، فاضْطُرِرْتُ إلى بَيْعِ صُدْرَةِ سُتْرَتي لِلْحُصولِ عَلى شَيْءٍ مِنَ الطَّعامِ . وَعِنْدَما جَنَّ اللَّيْلُ ، آوَيْتُ إلى أَحَدِ الحُقولِ ، وافْتَرَشْتُ الأَرْضَ لأَنامَ .

واسْتَمَرَّتْ تِلْكَ الرِّحْلَةُ المُضْنِيَةُ زُهاءَ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ، بِعْتُ خِلالَها قِطَعاً أُخْرى مِنْ مَلابِسي كَيْ أَتَمَكَّنَ مِنْ شِراءِ القوتِ الضَّروريِّ ، كَما كُنْتُ أَقْضي اللَّيْلَ بِطولِهِ في العَراءِ . وَأَخيراً وَصَلْتُ مَدينَةَ دوفر مُنْهَكاً ، مَحْزوناً ، مُغَبَّرَ الوَجْهِ وَالجَبينِ .

وَسَأَلْتُ أحَدَ المارَّةِ عمَّا إذا كانَ يَعْرِفُ مَنْزِلَ الآنِسَةِ تروتوود ، فتطَلَّعَ إليَّ في ازْدِراءٍ ، وَقالَ : « أغْرُبْ عَنْ وَجْهي ، فَأنا لا أعْرِفُ هٰذا الاسْمَ ! »

وَدَلَفْتُ إلى أحَدِ المتاجِرِ ، وَسَأَلْتُ الواقِفينَ : « هَلْ يُمْكِنُ لأحَدِكُمْ أنْ يَدُلَّني على مَنْزِلِ الآنِسَةِ تروتوود ؟ »

فَصاحوا في نَفَسٍ واحِدٍ ، ظانِّينَ أنَّني مِنَ المُتَسَوِّلينَ : « اِبْتَعِدْ أيُّها الفَتى ، فأنْتَ في غايَةِ القَذارَةِ ! »

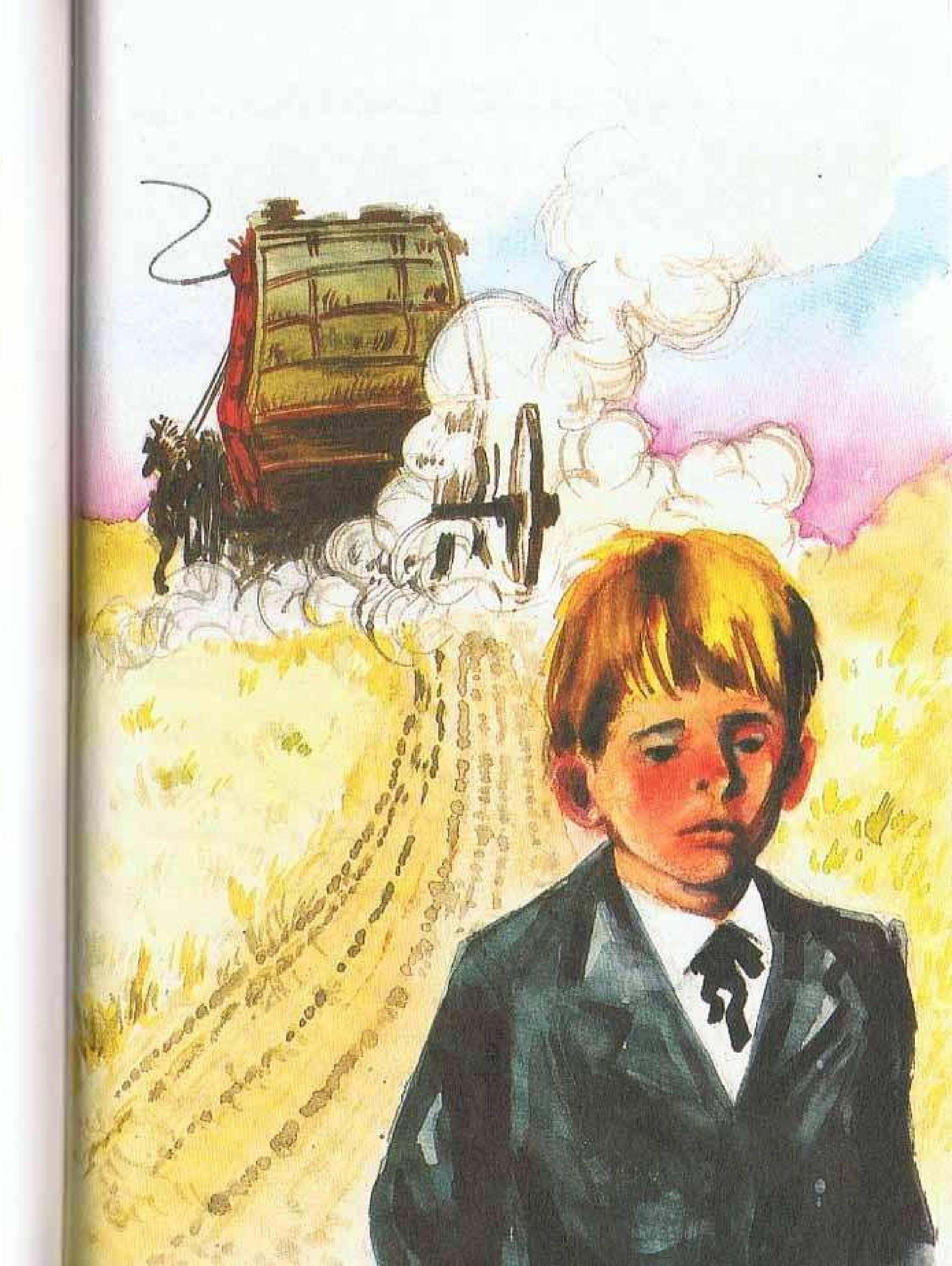
غيْرَ أنَّ فَتاةً انْبرَتْ مِنْ بيْنِهِمْ قائِلَةً : « تَعالَ مَعي يا غُلامُ ، فأنا خادِمَةُ هٰذِهِ السَّيِّدَةِ الَّتي تَبْحَثُ عَنْها . »

وَما إنْ وَصَلْنا إلى بابِ مَنْزِلِ عَمَّتي ، حتَّى قالَتِ الخادِمَةُ : « انْتَظِرْ ها هُنا إلى أنْ تَخْرُجَ السَّيِّدَةُ إلَيْكَ . أنْتَ شَحّاذٌ بِالطَّبْعِ ، ألَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

أجَبْتُها في أسًى شَديدٍ : « لا ، لَسْتُ شَحّاذاً . »

قالَتْ ، وَهِيَ تَدْلِفُ إلى داخِلِ المَنْزِلِ : « ولكِنَّكَ تَبْدو كَأحَدِ الشَّحّاذينَ ! »

وَما إنْ وَقَعَ بَصَرُ العَمَّةِ عَلَيَّ ، حَتَّى صاحَتْ قَبْلَ أنْ تَكْتَشِفَ



مَنْ أكونُ : « ماذا تُريدُ يا فَتى ؟ اِبْتَعِدْ عَنْ مَنْزِلي هذا ، فَأنا لا أُحِبُّ الأَوْلادَ القَذِرينَ !»

قُلْتُ في تَوَسُّلٍ واسْتِرْحامٍ : « ولكِنَّني لَسْتُ شَحَّاذاً ، يا عَمَّتي . أنا داڤيد كوپرفيلد ، وَ والِدي ابْنُ أخيكِ !»

تَهالَكَتِ العَمَّةُ عَلى الأَرْضِ وَصاحَتْ قائِلَةً : « ماذا ؟ يا لَها مِنْ مُفاجَأَةٍ مُذْهِلَةٍ ! اُدْخُلْ يا داڤيد ! اُدْخُلْ حالاً البَيْتَ !»

وَلَمّا احْتَوَتْنا غُرْفَةُ المَعيشَةِ ، نَظَرَتِ العَمَّةُ ثانِيَةً إليَّ ، و قالَتْ : « ولكِنَّكَ تَبْدو في غايَةِ القَذارَةِ ! يَجِبُ أنْ تَغْتَسِلَ على الفَوْرِ .» ثُمَّ أَمَرَتِ الخادِمَ بِحَرْقِ مَلابِسي ، وإِحْضارِ مَلابِسَ أُخْرى جَديدَةٍ .

وَعاوَدَني النَّشاطُ بَعْدَ الاسْتِحْمامِ . وَسَأَلْتُها بَعْدَ أَنْ جَلَسْنا إلى مائِدَةِ العَشاءِ : « هَلْ مِنَ المُحَتَّمِ أَنْ أعودَ إلى السَّيِّدِ مِرْدِسْتُون ، يا عَمَّتي ؟»

أجابَتِ العَمَّةُ بِقَوْلِها : « سَوْفَ أُقَرِّرُ في الغَدِ ما يَجِبُ عَمَلُهُ . وَالآنَ اذْهَبْ إلى فِراشِكَ لِتَنامَ .»

وَذَهَبْتُ إلى فِراشي في التَّوِّ ، واسْتَسْلَمْتُ لِنَوْمٍ هادِئٍ .

الفصل السادس

في الصَّباحِ التّالي ، جَلَسَتِ العَمَّةُ مَعي إلى مائِدَةِ الإفْطارِ . وشَرَعَتْ تَتَطَلَّعُ إليَّ في صَمْتٍ ، فَشَعَرْتُ بِشَيْءٍ مِنَ القَلَقِ . ولكِنْ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ قالَتْ : « لَقَدْ بَعَثْتُ بِرِسالَةٍ إلى السَّيِّدِ مِرْدِسْتُون .»

أَجَبْتُ ، وقد غَشِيَني الخَوْفُ : « أ حَقّاً فَعَلْتِ ذَلِكَ ؟»

« أَجَلْ ، وَسَوْفَ يَحْضُرُ إلى هُنا عَمّا قَريبٍ .»

« هَلْ سَيَأْخُذُني مَعَهُ ؟»

أجابَتِ العَمَّةُ : « لَسْتُ أَدْري . ولكِنْ هَلْ فَرَغْتَ مِنْ تَناوُلِ إفْطارِكَ ؟»

« أَجَلْ .»

قالَتِ العَمَّةُ : « إذاً فاخْرُجْ لِلَّعِبِ ، فَإنَّ الجَوَّ صَحْوٌ بَهيجٌ .»

وَبَعْدَ بِضْعَةِ أيامٍ ، كُنّا جالِسَيْنِ خَلْفَ النّافِذَةِ نَتَطَلَّعُ إلى حَديقَةِ المَنْزِلِ النَّضيرَةِ الخَلّابَةِ . وَفَجأةً لاحَ لِعَمَّتي حِمارٌ يَسيرُ فَوْقَ السُّنْدُسِ الأَخْضَرِ الجَميلِ .

هَرْوَلَتِ العَمَّةُ في غَضَبٍ إلى الخارِجِ ، وَهِيَ تَصيحُ قائِلَةً لِخادِمَتِها جانيت : « لَقَدْ تَسَلَّلَ إلى حَديقَتِنا حِمارٌ ضَخْمٌ ، وَهُوَ يَطَأُ الآنَ سُنْدُسَها المُشَذَّبَ الأَنيقَ . »

كانَ الرّاكِبانِ هُما السَّيِّدَ مِرْدِسْتُون وَشَقيقَتَهُ ، وكانَتْ عَمَّتي تَجْهَلُهُما . وَما إنْ نَزَلا عَنْ ظَهْرِ الدّابَّةِ حَتّى صَرَخَتِ العَمَّةُ في وَجْهِ الآنِسَةِ مِرْدِسْتُون قائِلَةً : « يا لَلْوَقاحَةِ ! كَيْفَ تَجْرُئينَ عَلى أَنْ تَدْخُلي بِحِمارِكِ هذا أَرْضَ حَديقَتي ؟ »

وَهُرِعْتُ إلى العَمَّةِ ، وَصِحْتُ قائِلاً : « هذِهِ هِيَ الآنِسَةُ مِرْدِسْتُون يا عَمَّتي ، وَهذا هُوَ شَقيقُها السَّيِّدُ مِرْدِسْتُون ! » ، ولكِنَّها لَمْ تُلْقِ بالاً إلَيَّ .

وَعِنْدَما هَدَأَتْ ثائِرَتُها ، دَعَتْهُما إلى دُخولِ البَيْتِ ، وَطَفِقَتْ تَتَأَمَّلُهُما لِلَحَظاتٍ . وَأخيراً قالَتْ لِلسَّيِّدِ مِرْدِسْتُون : « أَنْتَ إذاً الرَّجُلُ الَّذي اقْتَرَنَ بِزَوْجَةِ ابْنِ أَخي بَعْدَ وَفاتِهِ . يا لَها مِنْ طِفْلَةٍ بائِسَةٍ ! »

وَلاحَ الغَضَبُ عَلى وَجْهِ السَّيِّدِ مِرْدِسْتُون ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ نَظَرَ إلَيَّ ، وَقالَ : « إنَّ داڤيد وَلَدٌ عاقٌّ . لَقَدْ أَلْحَقْتُهُ بِوَظيفَةٍ في لندن ، وَدَفَعْتُ لَهُ إيجارَ مَسْكَنِهِ هُناك ، فَماذا كانَ رَدُّهُ لِهذا المَعْروفِ ؟ إنَّهُ لَمْ يُقَدِّمْ لِيَ الشُّكْرَ حَتّى الآنَ ، ولكِنَّهُ هَجَرَ عَمَلَهُ دونَ مُبَرِّرٍ ! »

وَصَمَتَ الرَّجُلُ هُنَيْهَةً ، ثُمَّ أَرْدَفَ : « يَجِبُ أَنْ يَعودَ الفَتى لِعَمَلِهِ السّابِقِ في الحالِ ، وَيَجِبُ أَنْ يَكْسِبَ رِزْقَهُ بِكَدِّهِ . »

عِنْدَئِذٍ صَرَخْتُ قائِلاً : « الرَّحْمَةَ يا عَمَّتي ! فَأَنا أَمْقُتُ هذا العَمَلَ ، وَلا أَسْتَطيعُ العَوْدَةَ إلَيْهِ ! »

صاحَ السَّيِّدُ مِرْدِسْتُون مُتَوَعِّداً : « بَلْ يَجِبُ أَنْ تَعودَ لِعَمَلِكَ في التَّوِّ ، وَإلّا فَلَنْ أَرى وَجْهَكَ بَعْدَ اليَوْمِ ، وَلَنْ أُساعِدَكَ بِأَيَّةِ نُقودٍ . »

عِنْدَئِذٍ رَدَّتِ العَمَّةُ عَلَيْهِ في حِدَّةٍ قائِلَةً : « أَنْتَ لَمْ تُساعِدْهُ بِشَيْءٍ حَتّى الآنَ ! يُمْكِنُ لِداڤيد أَنْ يَبْقى مَعي إذا شاءَ ، أَمّا أَنْتَ فَيُمْكِنُكَ الانْصِرافُ ! »

صاحَ السَّيِّدُ مِرْدِسْتُون قائِلاً : « سَوْفَ أَفْعَلُ بِالتَّأْكيدِ . غَيْرَ أَنَّني أُريدُ أَنْ أُضيفَ قَبْلَ انْصِرافي أَنَّكِ سَيِّدَةٌ حَمْقاءُ ، وَأَنَّ داڤيد وَلَدٌ عاقٌّ وَشِرّيرٌ . »

أجابَتْ عَمَّتي في بُرودٍ : « بَلْ أَنْتَ الوَغْدُ الأَشِرُ بِلا مِراءٍ ! فَقَدْ كُنْتَ فَظًّا ، غَليظَ القَلْبِ ، مَعَ داڤيد وَ والِدَتِهِ . وهكَذا كانَتْ أُخْتُكَ أَيْضًا . لَقَدْ أَشْقَيْتُما حَياتَيْهِما بِقَسْوَتِكُما البالِغَةِ . »

صاحَتِ الآنِسَةُ مِرْدِسْتُون قائِلَةً: « إِنَّكِ لَسَيِّدَةٌ في غايَةِ الوَقاحَةِ ! »

رَدَّتِ العَمَّةُ بِطَرْدِها وَشَقيقِها مِنَ المَنْزِلِ . وَما إِنْ غابا عَنِ البَصَرِ حَتَّى نَظَرَتْ إِلَيَّ في عَطْفٍ ، وَقالَتْ : « وَالآنَ ، هذا هُوَ بَيْتُكَ يا داڤيد ، وَيُمْكِنُكَ البَقاءُ فيهِ عَلى الدَّوامِ . »

شَكَرْتُها بِحَرارَةٍ ، وأَمْطَرْتُها بِقُبُلاتِ الوُدِّ وَالامْتِنانِ . وقالَتْ لِي العَمَّةُ بَعْدَ بُرْهَةٍ قَصيرَةٍ : « لَنْ تَكونَ مُضْطَرًّا إِلى العَمَلِ الآنَ ، بَلْ يَجِبُ أَنْ تَسْتَأْنِفَ دِراسَتَكَ أَوَّلاً . سَوْفَ نَذْهَبُ في الغَدِ إِلى مَدينَةِ كانْتِرْبري كَيْ يُلْحِقَكَ السَّيِّدُ وِكْفيلد بِالمَدْرَسَةِ المُناسِبَةِ لَكَ هُناكَ . »

« مَنْ يَكونُ السَّيِّدُ وِكْفيلد يا عَمَّتي ؟ »

« إِنَّهُ مُحامٍ بارِعٌ في كانْتِرْبري ، كَما أَنَّهُ صَديقٌ مُخْلِصٌ لي في الوَقْتِ نَفْسِهِ . »

وَفي اليَوْمِ التّالي ، حَمَلَتْنا عَرَبَةُ العَمَّةِ إِلى مَكْتَبِ السَّيِّدِ وِكْفيلد في مَدينَةِ كانْتِرْبري . وَبَيْنَما كُنّا نَهْبِطُ مِنَ العَرَبَةِ أَطَلَّ

عَلَيْنا وَجْهٌ نَحيلٌ مِنْ خِلالِ إِحْدى نَوافِذِ الدّارِ ، وَلَقَدْ عَرَفْتُ فيما بَعْدُ أَنَّهُ وَجْهُ « يُرْيا هيپ » ، الَّذي كانَ يَعْمَلُ كاتِبًا بِالمَكْتَبِ . وَسُرْعانَ ما دَلَفْنا إِلى حُجْرَةِ مَكْتَبِ السَّيِّدِ وِكْفيلد ، فَأَلْفَيْتُهُ رَجُلاً ضَخْمَ الجُثَّةِ ، أَشْيَبَ الشَّعْرِ ، وَيَتَمَيَّزُ بِوَجْهٍ شَديدِ الاحْمِرارِ .

وَبَعْدَ أَنْ حَيّا السَّيِّدُ وِكْفيلد عَمَّتي ، سَأَلَها : « ما هِيَ الخِدْمَةُ الَّتي يُمْكِنُ أَنْ أُقَدِّمَها لَكِ يا آنِسَةُ تروتوود ؟ »

أَجابَتِ العَمَّةُ بِقَوْلِها : « أُريدُ أَنْ أَبْعَثَ بِداڤيد إِلى مَدْرَسَةٍ جَيِّدَةٍ . هَلْ تَسْتَطيعُ أَنْ تَدُلَّني إِلى مِثْلِ هذِهِ المَدْرَسَةِ ؟ »

« أَجَلْ ، وَيُمْكِنُ أَنْ أُلْحِقَهُ بِها في الغَدِ . »

« في الغَدِ ؟ وَلكِنْ أَيْنَ سَيَقْضي هذِهِ اللَّيْلَةَ ؟ »

« في مَنْزِلي هذا ، بِالطَّبْعِ . »

وَعادَتْ عَمَّتي إِلى دوڤر بَعْدَ أَنْ عَهِدَتْ بي إِلى صَديقِها السَّيِّدِ وِكْفيلد . وَفي المَساءِ أَخَذْتُ أَتَجَوَّلُ في أَنْحاءِ المَكْتَبِ ، وَكانَ يُرْيا هيپ يَتَطَلَّعُ إِلَيَّ في صَمْتٍ مُريبٍ . وَلَمْ أَطْمَئِنَّ إِلى ذلِكَ الفَتى النَّحيلِ ذي المَلابِسِ السَّوْداءِ الكَئيبَةِ .

وَعَلى مائِدَةِ العَشاءِ ، قَدَّمَني السَّيِّدُ وِكْفيلد إِلى ابْنَتِهِ « أَغْنيس » ،

وَكانَتْ فَتاةً لَطيفَةً ذاتَ وَجْهٍ مَلائِكِيٍّ جَذّابٍ .

وذَهَبْتُ إلى المَدْرَسَةِ في الصَّباحِ التّالي ، ومَكَثْتُ بِها طَوالَ اليَوْمِ . وَفي المَساءِ عُدْتُ إلى مَنْزِلِ السَّيِّدِ وِكْفيلد ، حَيْثُ تَناوَلْنا مَعًا طَعامَ العَشاءِ . وَبَعْدَ أنْ تَوَجَّهَتْ أغْنيس إلى غُرْفَتِها ، قالَ لِي الرَّجُلُ : « أَيْنَ تَعْتَزِمُ السُّكْنى ، يا داڤيد ؟ »

أَجَبْتُ بَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الصَّمْتِ : « هَلْ يُمْكِنُني أنْ أَبْقى هُنا ، يا سَيِّدُ وِكْفيلد ؟ »

قالَ الرَّجُلُ : « أَجَلْ . غَيْرَ أنَّ المَنْزِلَ هُنا مُمِلٌّ بَعْضَ الشَّيْءِ بِالنِّسْبَةِ لِأَمْثالِكَ مِنَ الأَوْلادِ . »

« ولكِنَّني أُحِبُّ هَذا البَيْتَ ، كَما أنَّ أغْنيس سَعيدَةٌ بِالعَيْشِ فيهِ وَهِيَ مِثْلي . »

صَمَتَ السَّيِّدُ وِكْفيلد هُنَيْهَةً ، ثُمَّ قالَ : « أغْنيس ! تُرى هَلْ تَشْعُرُ بِالسَّعادَةِ في هَذا البَيْتِ ؟ عَجَبًا ، إنَّني لَمْ أُفَكِّرْ في هَذا الأَمْرِ مِنْ قَبْلُ . »

وَسَكَتَ الرَّجُلُ فَجْأَةً عَنِ الكَلامِ ، وَأَخَذَ يَعُبُّ بِشَراهَةٍ مِنَ الشَّرابِ المَوْضوعِ أَمامَهُ عَلى المائِدَةِ ، فانْصَرَفْتُ عَنْهُ إلى يُريا هيب

الَّذي كانَ لا يَزالُ جالِسًا يَقْرَأُ في حُجْرَتِهِ الخاصَّةِ بِالمَكْتَبِ .

سَأَلْتُ يُريا : « ماذا تَقْرَأُ ؟ »

أجابَ : « أَقْرَأُ كِتابًا في القانونِ . إنَّني أَدْرُسُ القانونَ الآنَ . »

« هَلْ تَرْغَبُ في أنْ تَكونَ مُحامِيًا ؟ »

« أَجَلْ ، فالمُحامونَ يَكْسِبون مالاً كَثيرًا ، أَ لَيْسَ كَذلِكَ ؟ »

« لَسْتُ أَدْري . ولكِنْ يَبْدو أنَّكَ شَديدُ البَراعَةِ . »

« لا ، إنَّني امْرُؤٌ رَقيقُ الحالِ . لَقَدْ نَشَأْتُ في أُسْرَةٍ مُتَواضِعَةٍ ، وَكانَ أَبي رَجُلاً فَقيرًا بَسيطَ الشَّأْنِ ، غَيْرَ أنَّني مِنَ المُمْكِنِ أنْ أُصْبِحَ مُحامِيًا عَلى أَيَّةِ حالٍ . هَذا بِالإِضافَةِ إلى أنَّ السَّيِّدَ وِكْفيلد يُحِبُّني ، وَيَمُدُّ لي يَدَ العَوْنِ دائِمًا . وَأَنا أَشْكُرُ لَهُ هَذا الصَّنيعَ . »

وَالْتَوى الفَتى في مَقْعَدِهِ ، فَبَدا مِثْلَ مَسْخٍ قَميءٍ قَبيحِ المَنْظَرِ .

وَأَضافَ قائِلاً : « كَما أنَّ الآنِسَةَ أغْنيس لَطيفَةٌ مَعي . إنَّني أُحِبُّها ، فَهِيَ فَتاةٌ رَقيقَةٌ ذاتُ حُسْنٍ وَجاذِبِيَّةٍ ، أَ لَيْسَ كَذلِكَ ؟ »

لَمْ أُعَلِّقْ بِشَيْءٍ ، فَنَظَرَ إلى ساعَتِهِ ، وَقالَ : « لَقَدْ حانَ مَوْعِدُ عَوْدَتي إلى البَيْتِ . أُكَرِّرُ دَعْوَتي لَكَ لِزِيارَتي في مَنْزِلي البَسيطِ

المُتواضعِ ، ولسَوْفَ تُسَرُّ أمّي كثيراً برُؤْيَتِكَ .»

شَكَرْتُهُ ، وَ وَعَدْتُهُ بِالزِّيارَةِ في يَوْمٍ قريبٍ .

وَفي تِلْكَ اللَّيْلَةِ حَلَمَتُ بِيُرْيا حُلْماً مُزْعِجاً . لَقَدْ أخَذْتُ أتوَجَّسُ الشَّرَّ مِنْ ذلِكَ الفتى القَميءِ الَّذي يَرْتَسِمُ الخُبْثُ في عَيْنَيْهِ .

الفصل السّابع

ذاتَ يَوْمٍ وَأنا في طَريقِ عَوْدَتي مِنَ المَدْرَسَةِ ، قابَلْتُ يُرْيا هيپ ، وَما كادَ الفتى يَراني ، حتَّى صاحَ قائِلاً : « إنَّها لَمُفاجَأَةٌ مُدْهِشَةٌ يا سَيِّدُ كوپرفيلد ! إنَّني ذاهِبٌ إلى مَنْزِلي ، فَهَيّا مَعي إلى هُناكَ .»

اُضْطُرِرْتُ إلى مُرافَقَتِهِ رَغْماً عَنّي . وسَأَلْتُهُ ، وَنَحْنُ نَسيرُ إلى مَنْزِلِه : « هَلْ ما زِلْتَ مُداوِماً على دِراسَةِ القانونِ ؟»

« أجَلْ ، ولكِنَّها دِراسَةٌ عَسيرَةٌ لِلْغايَةِ . إنَّ كُتُبَ القانونِ تَزْدَحِمُ بِالكَلِماتِ اللّاتينِيَّةِ ، وَأنا لا أعْرِفُ شَيْئاً مِنْ هذِهِ اللُّغَةِ القَديمَةِ الصَّعْبَةِ .»

قُلْتُ لَهُ مُشَجِّعاً : « ولكِنَّني أعْرِفُ اللّاتينِيَّةَ جَيِّداً ، وأسْتَطيعُ أنْ أعَلِّمَكَ إيّاها .» فَلَوى الفتى جَسَدَهُ كَالمُعْتادِ ، ثُمَّ قالَ : « لا يا سَيِّدي ، فأنا رَجُلٌ بَسيطٌ مُتواضِعٌ ، وأمْثالي مِنَ البُسَطاءِ لا

يَشُقُّونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِتَعَلُّمِ اللاّتينِيَّةِ ، الَّتي هِيَ حِكْرٌ عَلى السّادَةِ المُتَمَيِّزينَ دونَ سِواهُمْ .»

أَلْفَيْتُ السَّيِّدَةَ هيپ شَديدَةَ الشَّبَهِ بِابْنِها يُرِيا ؛ فَقَدْ كانَتْ نَحيلَةَ الجِسْمِ ، وَتُؤْثِرُ المَلابِسَ السَّوْداءَ القاتِمَةَ عَلى ما عَداها مِنَ الثِّيابِ . وَما إِنْ أَخَذْنا نَتَجاذَبُ أَطْرافَ الحَديثِ حَتّى انْهالا عَلَيَّ بِوابِلٍ مِنَ الأَسْئِلَةِ عَنْ عائِلَتي ، وَعَنْ حَياتِي السّابِقَةِ في لَنْدن ، كَما سَأَلاني عَنْ أَخْبارِ السَّيِّدِ وِكْفيلد ، وابْنَتِهِ أَغْنيس كَذلِكَ .

قالَتِ السَّيِّدَةُ هيپ : « إِنَّ السَّيِّدَ وِكْفيلد مُدْمِنٌ لِلشَّرابِ ، وَلَقَدْ أَضَرَّ تَعاطي الخَمْرِ بِصِحَّتِهِ ، أَ لَيْسَ كَذلِكَ ؟»

امْتَعَضْتُ مِنْ فُضولِها الشَّديدِ ، فَأَجَبْتُها في بُرودٍ : « لَسْتُ أَدْري .»

وَكانَ بابُ المَنْزِلِ الخارِجِيُّ مَفْتوحاً ، فَلَمَحْتُ رَجُلاً يَمُرُّ مِنْ أَمامِهِ وَيَقِفُ فَجْأَةً عِنْدَ البابِ ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنِ انْدَفَعَ نَحْوي وَعانَقَني ، وَهُوَ يَصيحُ قائِلاً : « وَلَدي كوبرفيلد ! يا لَلصُّدْفَةِ السَّعيدَةِ !»

كانَ الرَّجُلُ هو السَّيِّدَ ميكاوبر ، الَّذي أَلْقَتْ بِهِ المَقاديرُ ثانِيَةً في

طَريقي . وَقَدَّمْتُ لَهُ يُرِيا والسَّيِّدَةَ هيپ ، وَأَنا أَشْعُرُ بِعَدَمِ الارْتِياحِ ؛ ذلِكَ أَنَّني خَشيتُ أَنْ يَتَحَدَّثَ أَمامَهُما عَنْ حَياتي البائِسَةِ مَعَهُ في لندن ؛ فَقَدْ كانا يَظُنّانِني مِنَ السّادَةِ الأَثْرِياءِ .

غَيْرَ أَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يَتَحَدَّثْ في شَيْءٍ مِنْ ذلِكَ ، واقْتَصَرَ حَديثُهُ عَلى زَوْجَتِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ دَعاني إِلى العَشاءِ في الفُنْدُقِ الَّذي كانَ يَنْزِلُ بِهِ في المَدينَةِ .

وَفي اليَوْمِ التّالي رَأَيْتُهُ ، في أَثْناءِ عُبوري أَحَدَ الشَّوارِعِ ، يَسيرُ بِرُفْقَةِ يُرِيا ، غَيْرَ أَنَّهُما لَمْ يَلْحَظاني . وَفي مَساءِ ذلِكَ اليَوْمِ ، أَقامَ لَنا الرَّجُلُ مَأْدُبَةً فاخِرَةً بِالفُنْدُقِ . وَسَأَلْتُهُ عَلى انْفِرادٍ عَنْ رَأْيِهِ الخاصِّ في يُرِيا ، فَأَجابَ بِأَنَّهُ شابٌّ ذَكِيٌّ وَجَديرٌ بِالإِعْجابِ . كَما حَدَّثَتْني السَّيِّدَةُ ميكاوبر عَنْ حَياتِها السّابِقَةِ في پلايموث . وَقالَتْ فيما قالَتْهُ إِنَّ الشِّقاقَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ دَبَّ بَيْنَ عائِلَتِها والسَّيِّدِ ميكاوبر؛ بِسَبَبِ تَفاقُمِ دُيونِهِ في تِلْكَ المَدينَةِ ، كالمُعْتادِ ، وَأَنَّها رَأَتْ حَسْماً لِلخِلافِ ، أَنْ تَرْحَلَ مَعَ زَوْجِها إِلى كانْتِربري حَيْثُ يُمْكِنُ لَهُما أَنْ يَبْدَآ عَمَلاً جَديداً . ثُمَّ ذَكَرَتْ أَنَّهُما يَنْتَظِرانِ مَبْلَغاً مِنَ المالِ سَوْفَ يَصِلُهُما في القَريبِ العاجِلِ . وَكانَ السَّيِّدُ ميكاوبر جِدَّ فَرِحٍ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، وَشَدا مَعَنا كَثيراً مِنَ الأَغْنِياتِ الطَّريفَةِ .

بَيْدَ أنَّ المالَ المُرْتَقَبَ لَمْ يَصِلْهُ على الإطْلاقِ . وَفي اليَوْمِ التّالي ، تَلقَّيتُ رِسالَةً تُنْبِئُني بِأَنَّهُ قَدِ اضْطُرَّ لِلرَّحيلِ عَنِ المَدينَةِ ، بَعْدَ أَنْ أَمْسَى عاجِزًا عَنْ سَدادِ دُيونِهِ فيها .

وَمرَّتْ سَنواتُ الدِّراسَةِ في كانْتربري سِراعًا ، وتُوِّجَتْ جُهودي خِلالَها بالنّجاحِ . وَلَقَدْ جَلَسْتُ أثْناءَها كَثيرًا إلى أغْنيس والسَّيِّدِ وِكْفيلد . كانَتْ أغْنيس رَقيقَةً هادِئَةَ الطَّبْعِ عَلى الدَّوامِ ، وكانَتْ مِثْلَ أخْتٍ وَفِيَّةٍ مُخْلِصَةٍ لي . أمّا السَّيِّدُ وِكْفيلد فَكانَ مُنْصَرِفًا إلى الشَّرابِ ، وَلَقَدْ أدّى بِهِ ذَلِكَ الدّاءُ إلى التَّواكُلِ والكَسَلِ ، فَأَخَذَ يَعْهَدُ بِكَثيرٍ مِنْ أعْمالِهِ إلى كاتِبِهِ يُرْيا . وَإِنْ هِيَ إلّا فَتْرَةٌ قَصيرَةٌ حَتّى صارَ هذا الكاتِبُ المُخادِعُ يَعْرِفُ مِنْ أسْرارِ مَكْتَبِ مَخْدومِهِ أكْثَرَ مِمّا يَنْبَغي لِمِثْلِهِ أنْ يَعْرِفَ .

وانْتَهَتْ دِراسَتي في كانْتربري ، وَسَأَلَتْني العَمَّةُ عَمّا أعْتَزِمُ أنْ أفْعَلَ ، فَأَجَبْتُها قائِلاً : « لَسْتُ أعْرِفُ عَلى وَجْهِ التَّحْديدِ ، غَيْرَ أنَّني أُريدُ القِيامَ بِعَمَلٍ ناجِحٍ وَمُفيدٍ . »

وَنَصَحَتْني العَمَّةُ بِأنْ أقومَ بإجازَةٍ قَبْلَ التَّخْطيطِ لِلْمُسْتَقْبَلِ ، وَأشارَتْ عَلَيَّ بِزِيارَةِ بيغوتي .

وَفي طَريقي إلى يارْمَوْث ، عَرَّجْتُ عَلى لندن . وَكُنْتُ أرْتَدي

مَلابِسَ جَديدَةً أنيقَةً ، وأبْدو كَأحَدِ الأثْرِياءِ .

وقَصَدْتُ فُنْدُقًا شَهيرًا في المَدينَةِ ، حَيْثُ جَلَسْتُ إلى إحْدى المَوائِدِ ، وأمَرْتُ بِعَشاءٍ فاخِرٍ . وَفَجْأَةً وَقَعَ بَصَري على شابٍّ وَسيمٍ كانَ يَتَناوَلُ عَشاءَهُ عَلى مَقْرُبَةٍ مِنّي ، فَسِرْتُ نَحْوَهُ قائِلاً : « أَلا تَذْكُرُ أنَّكَ رَأَيْتَني مِنْ قَبْلُ ، يا صاح ؟ »

نَهَضَ الشّابُّ عَنْ مَقْعَدِهِ ، وَتَطَلَّعَ إلَيَّ هُنَيْهَةً ، ثُمَّ قالَ : « لا ، لا أظُنُّ ذلِكَ . »

غَيْرَ أنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أنِ احْتَضَنَني ، وَهُوَ يَصيحُ قائِلاً : « آه ، كوبرفيلد ! إنَّهُ أنْتَ يا صَديقِيَ العَزيزَ ! »

كانَ هُوَ ستيرفورث ، الَّذي ظَهَرَ في حَياتي مَرَّةً أخْرى .

وَفي الصَّباحِ التّالي ، قالَ لي ستيرفورث وَنَحْنُ نَتَناوَلُ مَعًا طَعامَ الإفْطارِ : « ما زِلْتَ تَبْدو صَغيرَ السِّنِّ ، وكَأَنَّ سَنواتٍ كَثيرَةً لَمْ تَنْقَضِ مُنْذُ افْتَرَقْنا ! وَالآنَ ، هَيّا إلى مَنْزِلي لِنَقْضِيَ مَعًا أمْسِيَةً لَطيفَةً . »

« لكِنَّني أعْتَزِمُ الذَّهابَ إلى يارْمَوْث في الحالِ . »

« لا تَفْعَلْ ذلِكَ اليَوْمَ ، أرْجوكَ ! اقْضِ اللَّيْلَةَ مَعي ، ثُمَّ اذْهَبْ

في الغَدِ إلى هُناكَ .»

وتَطَلَّعَ إليَّ في تَوَسُّلٍ ، فابْتَسَمْتُ قائِلاً : « لا أَسْتَطيعُ أنْ أرْفُضَ لكَ طَلَباً ، يا ستيرفورث . سَوْفَ أمْكُثُ معَكَ اللَّيْلَةَ .»

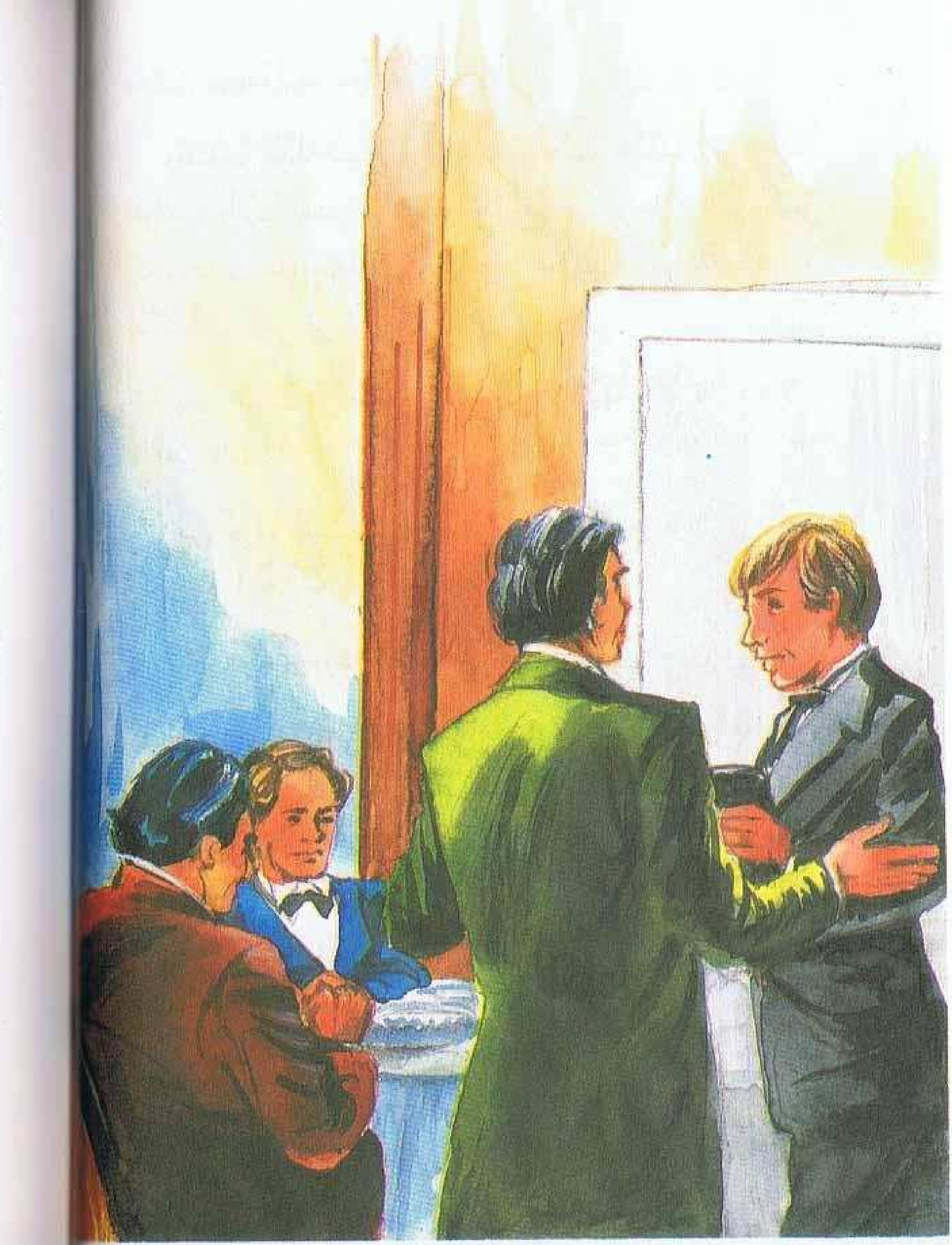
واصْطَحَبني إلى مَنْزِلِهِ في « هايْغِيت » ، وَهِيَ ضاحِيَةٌ قَريبَةٌ مِنْ لندن . وَهُناكَ الْتَقَيْتُ أُمَّهُ ، كَما الْتَقَيْتُ سَيِّدَةً أخْرى تَسْكُنُ مَعَهُما ، اِسْمُها « روزا دارتل » . كانَتْ أُمُّهُ قَدْ تَجاوَزَتِ العَقْدَ الرّابعَ ، وَتَتَميَّزُ بِقامَةٍ مَديدَةٍ ، وَبِأَنَفَةٍ وَكِبْرِياءَ شَديدَيْنِ . أمّا السَّيِّدَةُ الأخْرى فَكانَتْ غَريبَةَ الأطْوارِ ، وَلا تَبْعَثُ على الارْتِياحِ ، كَما كانَتْ تَتَمَيَّزُ بِنَظَراتٍ حادَّةٍ قاسِيَةٍ ، وبِنَدَبَةٍ بَيْضاءَ قَبيحَةِ المَنْظَرِ ، تَسْتَقِرُّ على وَجْهِها قَريباً مِنَ الفَمِ .

وَتَحَدَّثْنا عَنْ أهْلِ يارْمَوْث ، فَسَأَلَتِ السَّيِّدَةُ ستيرفورث قائِلَةً : « هَلْ يُشْبِهونَنا في المَظْهَرِ وَالطِّباعِ ؟»

أجابَ ستيرفورث بِقَوْلِهِ : « كَلا ، فَهُمْ يَميلونَ إلى الفَظاظَةِ وَالخُشونَةِ .»

ورَغْمَ إيماني بِزَيْفِ هذا الزَّعْمِ ، فَلَمْ أُعَلِّقْ بِشَيْءٍ .

وَلَقَدْ سَأَلْتُ صاحِبي فيما بَعْدُ عَنْ روزا دارتل قائِلاً : « كَيْفَ



أصيبتِ السَّيِّدةُ بهذهِ النَّدبَةِ ؟»

فلاحَ الأسى والضيقُ على مُحيّاه ، وقالَ : « كُلّما تذكَّرْتُ هذا الأمْرَ شعرْتُ بالذَّنْبِ . لقَدْ أحْدَثْتُ بها هذهِ الإصابةَ حينَ قذفْتُها بِشَيْءٍ ما ، عِنْدَما كُنْتُ غُلاماً صغيرَ السِّنِّ !»

ومكثْتُ بِمنْزِلِ ستيرفورث بِضْعَةَ أيّامٍ ، ثُمَّ رافقَني صاحِبي إلى يارمُوث . وما إنْ وَصلْتُ إلى تِلْكَ البَلْدَةِ الحبيبَةِ إلى نَفْسي حتَّى هُرِعْتُ لِرُؤْيَةِ بيغوتي ، تارِكاً ستيرفورث بِمُفْرَدِهِ في الفُنْدُقِ .

وَدَلَفْتُ إلى مَنْزِلِ السَّيِّدِ باركز ، فَنَظَرَتْ بيغوتي في دَهْشَةٍ إليَّ ، ثُمَّ قالَتْ : « مَنْ أنْتَ ؟»

صِحْتُ قائلاً : « بيغوتي ، يا عزيزتي ! أ لا تعرفينني ؟ هَل كَبِرْتُ إلى هذا الحدِّ ؟»

تطَلَّعَتْ إليَّ ثانِيَةً ، وسَرْعانَ ما انْدَفَعَتْ نَحْوي ، وضَمَّتْني إلى صَدْرِها ، وَهِيَ تَصيحُ قائِلَةً : « داڤيد ! آه ، لكَمْ تغيَّرتَ يا صَغيريَ العَزيزَ !» وانْهَمَرتِ الدُّموعُ من عَيْنَيْها . وَلَمْ تَلْبَثْ أنْ قادَتْني إلى حُجْرَةِ زَوْجِها السَّيِّدِ باركز ، الّذي كانَ مُلازِماً فِراشَهُ مِنْ مَرَضٍ . وَبَعْدَ أن تناوَلْنا معًا طَعامَ العَشاءِ حَضَرَ ستيرفورث ، وَلَفَّنا جَوٌّ مِنَ المَرحِ وَالحُبورِ .

ثُمَّ ذَهَبْتُ وَستيرفورث إلى مَنْزِلِ السَّيِّدِ بيغوتي ، فَسَمِعْنا صِياحَ الرَّجُلِ وَضَحِكاتِهِ عِنْدَ البابِ . وَلَمّا خَطَوْنا إلى الدّاخِلِ ، رَأَيْنا هام مُمْسِكاً بِيَدِ إميلي ؛ فَأَشْرَقَ وَجْهُ الفتى خَجَلاً ، أمّا الفَتاةُ فَطَأْطَأَتْ رَأْسَها إلى الأَرْضِ .

وَصاحَ السَّيِّدُ بيغوتي قائِلاً : « أسْرِعا بِالدُّخولِ ، فَلَدَيَّ مُفاجَأَةٌ سارَّةٌ لَكُما ! لَقَدِ اتَّفَقَ هام وإميلي عَلى الزَّواجِ !»

قالَ ستيرفورث : « هَذا حَسَنٌ . وَمَتى اتَّفَقْتُمْ عَلى النَّبَأِ السَّعيدِ؟»

أجابَ السَّيِّدُ بيغوتي بِقَوْلِهِ : « مُنْذُ قَليلٍ !»

وَلَمْ يَلْبَثْ هام أنْ قالَ : « لَقَدْ أحْبَبْتُ إميلي مُنْذُ وَقْتٍ بَعيدٍ. أعْرِفُ أنَّها تَصْغُرُني كثيراً في السِّنِّ ، ولكِنَّها قَبِلَتِ الزَّواجَ بي ، وأنا جِدُّ سَعيدٍ بِذلِكَ .»

وشرِبْنا جَميعاً نَخْبَ العَروسَيْنِ المُرْتَقَبَيْنِ . وتَحَدَّثَ الرِّجالُ طَويلاً ، ولكِنَّ إميلي ظَلَّتْ صامِتَةً ، وكانَتْ بَيْنَ الحينِ وَالآخَرِ تَخْتَلِسُ النَّظَرَ إلى ستيرفورث . ومَرَّ الوَقْتُ سَريعاً وجَنَّ اللَّيْلُ ، فاسْتَأْذَنْتُ وَستيرفورث في الانْصِرافِ .

قالَ لي ستيرفورث ، وَنَحْنُ في طَريقِنا إلى الفُنْدُقِ : « يُحزِنُني أنَّ

إميلي سَوْفَ تَتَزَوَّجُ بـ « هام » . إنّها فَتاةٌ لَطيفَةٌ ، رائِعَةُ الحُسْنِ ، وَهِيَ جَديرَةٌ بِأنْ تَكونَ زَوْجَةَ أحَدِ السّادَةِ النُّجَباءِ . لكِنَّ هام شابٌّ قَليلُ الشَّأنِ ، مَحْدودُ الذَّكاءِ ، هَذا بِالإضافَةِ إلى أنَّهُ فَظٌّ ، سُوقيُّ المَظْهَرِ .»

صِحْتُ فيهِ قائِلاً : « أنْتَ عَلى خَطَأٍ مُبينٍ ، فَإنَّ هام شابٌّ طَيِّبُ السَّريرَةِ ، وَسَوْفَ يَكونُ زَوْجاً مُناسِباً لإميلي ، بِالتَّأكيدِ .»

وَضَعَ ستيرفورث يَدَهُ عَلى كَتِفي ، وَابْتَسَمَ ابْتِسامَةً باهِتَةً ، وَهُوَ يَقولُ : « أنْتَ فَتًى ذَكِيٌّ يا داڤيد ، وَلكِنَّكَ لَمْ تَفْهَمْني بَعْدُ .»

ومَكَثْتُ بِمَنْزِلِ السَّيِّدِ باركز لِبِضْعَةِ أيّامٍ تالِيَةٍ ، في حينِ كانَ ستيرفورث يَبيتُ في الفُنْدُقِ ، وَيَقْضي مُعْظَمَ نَهارِهِ مَعَ الصَّيّادينَ . وذاتَ مَساءٍ ، كُنْتُ أجْلِسُ بِمُفْرَدي إلى جانِبِ المِدْفَأةِ عِنْدَما أقْبَلَ نَحْوي ، ثُمَّ طالَعَني بِوَجْهٍ يَنِمُّ عَنِ الكَآبَةِ وَالحُزْنِ .

سَألْتُهُ : « ماذا بِكَ ؟»

أجابَ : « لا شَيْءَ . لَقَدْ ألَمَّ بي هاجِسٌ مُؤْلِمٌ فَحَسْبُ .»

« أيُّ هاجِسٍ هذا ؟»

قالَ بَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الصَّمْتِ : « لَقَدْ ماتَ أبي مُنْذُ عِدَّةِ سَنَواتٍ ،

ولكِنَّني أشْعُرُ الآنَ بِحاجَتي الماسَّةِ إلَيْهِ . لَوْ كانَ عَلى قَيْدِ الحَياةِ ، لأمْكَنَهُ أنْ يُرْشِدَني الآنَ إلى الصَّوابِ . ولكِنَّ أمّي امْرَأةٌ قَليلَةُ الخِبْرَةِ ، وَهِيَ تُفْسِدُني بِتَدْليلِها وَلا تُفيدُني بِشَيْءٍ . آهٍ ، أشْعُرُ أنَّني لَسْتُ شابّاً رَفيعَ الخُلُقِ ، وَهَذا ما يَجْعَلُني أحِسُّ بِالتَّعاسَةِ والبُؤْسِ .»

قُلْتُ في دَهْشَةٍ بالِغَةٍ : « فيمَ تَتَحَدَّثُ ؟ أنا لا أفْهَمُ ما تَعْنيهِ .»

أجابَ بِقَوْلِهِ : « لَيْسَ مُهِماً أنْ تَفْهَمَ .» ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أنْ نَهَضَ ، وَأضافَ وَهُوَ يَبْتَسِمُ : « عَلى أنَّني قَدْ شَعَرْتُ بِالارْتياحِ بَعْدَ أنْ أفْضَيْتُ إلَيْكَ بِما يَضيقُ بِهِ صَدْري . وَالآنَ ، هَيّا نَخْرُجْ لِنَتَرَيَّضَ قَليلاً .»

وأرْدَفَ ، وَنَحْنُ نَسيرُ عَلى الشّاطِئِ قائِلاً : « لَقَدِ اقْتَنَيْتُ هُنا قارِباً بَديعاً .»

أجَبْتُ في دَهْشَةٍ شَديدَةٍ : « هُنا في يارْمَوْث ؟ وَلكِنَّكَ لا تَأتي إلى هَذِهِ البَلْدَةِ إلّا لِماماً !»

« غَيْرَ أنَّ هام سَيَحْتَفِظُ بِهِ نِيابَةً عَنّي .»

« آهٍ . قُلْ إنَّكَ وَهَبْتَهُ لـ « هام » ! لِماذا تُخْفي هَذا الكَرَمَ العَظيمَ ؟»

أسْرَعَ ستيرفورث قائِلاً : « أنا لَمْ أهَبِ القارِبَ لـ « هام » . إنَّهُ يُعْنى بِهِ نِيابَةً عَنّي فَحَسْبُ . لَقَدْ أسْمَيْتُهُ « إميلي الصَّغيرَة » .»

وكَفَّ ستيرفورث عَنِ الحَديثِ في أمْرِ تَعاسَتِهِ واكْتِئابِهِ . وانْقَضى الوَقْتُ في يارْمَوْث سَريعاً كَما تَنْقَضي كُلُّ الأوْقاتِ السَّعيدَةِ ، ثُمَّ حَلَّتْ لَيْلَتُنا الأخيرَةُ في تِلْكَ البَلْدَةِ السّاحِرَةِ . كُنْتُ عائِداً أنا وستيرفورث إلى مَنْزِلِ السَّيِّدِ باركز حينَ اسْتَوْقَفَنا هام في الخارِجِ قائِلاً : « يَحْسُنُ ألا تَدْخُلا الآنَ ، فَإنَّ إميلي تَتَحَدَّثُ حَديثاً خاصّاً إلى فَتاةٍ في الدّاخِلِ . ثَمَّةَ مَأزِقٌ وَقَعَتْ فيهِ المَرْأةُ ، وَهِيَ تَطْلُبُ العَوْنَ مِنْ إميلي .»

وفَتَحَتْ بيغوتي البابَ بَعْدَ قَليلٍ ، وأذِنَتْ لَنا بِالدُّخولِ ، فَرَأيْنا « مارتا إنديلز » جالِسَةً إلى جانِبِ إميلي وَهِيَ تَبْكي بُكاءً حارًّا .

قالَتِ المَرْأةُ بَيْنَ زَفَراتِها المُتَلاحِقَةِ : « لَقَدْ كُنْتُ فَتاةً شِرّيرَةً ! أمّي وأبي تَخَلَّيا عَنّي ، كَما أنَّ أهالي يارْمَوْث يَكْرَهونَني . يَجِبُ أنْ أغادِرَ يارْمَوْث إلى لندن ، فَإنَّها أفْضَلُ مَكانٍ لي .»

سَألَتْها إميلي : « وَماذا سَتَفْعَلينَ في لندن ؟»

أجابَتْ بِقَوْلِها : « سَوْفَ أبْحَثُ عَنْ عَمَلٍ ، غَيْرَ أنَّني في حاجَةٍ الآنَ إلى بَعْضِ النُّقودِ .»

وَسارَعَتْ إميلي بِإعْطائِها مَبْلَغاً مِنَ المالِ ، وَهِيَ تَقولُ : « وَالآنَ يُمْكِنُكِ الذَّهابُ إلى لندن كَما تَشائينَ .»

وَشَكَرَتْها مارتا بِحَرارَةٍ ، وَقالَتْ : « أنْتِ جِدُّ عَطوفٍ يا آنِسَةُ إميلي . لَنْ أنْسى لَكِ هَذا الجَميلَ ما حَييتُ .»

وَما إنْ غادَرَتْ مارتا البَيْتَ حَتّى شَرَعَتْ إميلي في البُكاءِ ، وأخَذَتْ تُرَدِّدُ قائِلَةً : « وَأنا شِرّيرَةٌ مِثْلُ مارتا ! أنا شِرّيرَةٌ كَذلِكَ !»

وَسارَعَ هام إلى تَهْدِئَتِها ، وَهُوَ يَقولُ في ذُهولٍ : « أنْتِ شِرّيرَة ؟ بَلْ أنْتِ قِمَّةُ الرِّقَّةِ وَالطِّيبَةِ وَالجَمالِ !»

وَصاحَتِ الفَتاةُ قائِلَةً : « كَلا يا هام ، لَسْتُ كَما تَزْعُمُ أو تَظُنُّ ؛ وَلِذا فَأنا جِدُّ تَعيسَةٍ . أرْجو أنْ تُساعِدَني كَيْ أرْقى إلى الكَمالِ الَّذي تَنْشُدُهُ .»

وَأحاطَها هام بِذِراعَيْهِ ، فَأخَذَتْ في الهُدوءِ . أمّا أنا فَقَدِ اشْتَدَّتْ بي الحَيْرَةُ فيما رَأيْتُ وَسَمِعْتُ . لَمْ أسْتَطِعْ حينَئِذٍ تَبَيُّنَ ما وَراءَ ذَلِكَ المَشْهَدِ الغَريبِ ، كَما لَمْ أسْتَطِعِ الرَّبْطَ بَيْنَ ما قالَتْهُ إميلي وَما قالَهُ ستيرفورث عَنِ التَّعاسَةِ وَالحُزْنِ . غَيْرَ أنَّني عَرَفْتُ كُلَّ شَيْءٍ فيما بَعْدُ .

الفصل الثّامن

عُدْتُ إلى لندن بَعْدَ أنْ قَدَّمَتْ لي عَمَّتي أعْظَمَ العَوْنِ عَلى تَحقيقِ حُلْمِ حَياتي : وَهُوَ أنْ أصبحَ مُحامِياً ؛ إذْ كانَتْ قَدْ دَفَعَتْ ألْفَ جُنَيْهٍ إلى كُلٍّ مِنَ المُحامِيَيْنِ سبينلو و جوركِنز كَيْ ألْتَحِقَ بِمَكْتَبِهِما ، وَكَيْ يَقومَ السَّيِّدُ سبينْلو بِتَلْقيني مَوادَّ القانونِ ، وَ إعْدادي لِمُمارسَةِ مِهْنَةِ المُحاماةِ . كَما اسْتأجَرَتْ لِيَ العَمَّةُ كَذلِكَ جَناحاً بِمَنزِلِ السَّيِّدَةِ كَرَبٍ في المدينَةِ ، حَيْثُ كانَتْ تِلْكَ السَّيِّدَةُ البَدينَةُ الطَّيِّبَةُ تُعْنى بِغُرَفي وَتُعِدُّ لِيَ الطَّعامَ .

كانَتْ لندن مَدينَةً مُترامِيَةً مُوحِشَةً ، لا سِيَّما بِالنِّسْبَةِ لِشابٍّ غَريبٍ عَنْها مِثْلي . وَلَقَدْ شَعَرْتُ بِالوَحْشَةِ فيها أكْثَرَ مِنْ ذي قَبْلُ ، بَعْدَ أنْ كَفَّ ستيرفورث عَنْ زِيارَتي ، إذْ لَمْ يَكُنْ لي مِنْ صَديقٍ فيها سِواهُ . غَيْرَ أنَّني لَمْ ألْبَثْ أنْ قابَلْتُهُ ذاتَ يَوْمٍ وَهُوَ يَسيرُ مَعَ اثْنَيْنِ مِنَ

أصْدِقائِه ، فَأعْطَيْتُ الجَميعَ عُنْواني ، وَدَعَوْتُهُمْ إلى العَشاءِ في اليَوْمِ التّالي .

وَاجْتَمَعْنا حَوْلَ العَشاءِ ، في المَساءِ المُتَّفَقِ عَلَيْهِ . لكِنَّ الحُمْقَ تَمَلَّكَني في تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، فاسْتَرْسَلْتُ في الشَّرابِ . وَعِنْدَما ثَمِلْتُ ، صِرْتُ أكْثَرَ حُمْقاً .

وَصِحْتُ في الحاضِرينَ قائِلاً : « هَيّا بِنا إلى المَسْرَحِ . إنَّهُ خَيْرُ مَكانٍ نَقْضي فيهِ اللَّيْلَةَ .»

هَتَفَ الرِّفاقُ مُوافِقينَ . وَعِنْدَما وَصَلْتُ إلى بابِ المَسْرَحِ ، كانَ صَديقا ستيرفورث يَسْنُدانني مِنَ الجانِبَيْنِ ، فَقَدْ كُنْتُ أتَرَنَّحُ ثَمِلاً . وَبَعْدَ أنْ جَلَسْتُ في مَقْعَدي بِالدّاخِلِ أخَذْتُ أُقَهْقِهُ بِصَوْتٍ مُزْعِجٍ . وَتَلَفَّتَتْ فَتاةٌ كانَتْ تَجْلِسُ إلى جِواري ، غَيْرَ أنَّ غَشاوَةَ الشَّرابِ حالَتْ دونَ أنْ أفْطِنَ إلَيْها . وَرَنَتْ إلَيَّ الفَتاةُ هُنَيْهَةً ، ثُمَّ قالَتْ : « أ أنْتَ هُوَ داڤيد كوپرفيلد ؟ أكادُ لا أُصَدِّقُ عَيْنَيَّ !»

وَنَظَرْتُ مَلِيًّا إلى الفَتاةِ ، وَما إنْ عَرَفْتُها حَتّى قُلْتُ في تَلَعْثُمٍ : « أغْنيس ؟ يا لَها مِنْ مُفاجَأةٍ !»

قالَتْ تُعاتِبُني ، وَفي صَوْتِها رَنَّةُ حُزْنٍ : « كَيْفَ تَوَرَّطْتَ في هذا الحُمْقِ ، يا داڤيد ؟ وَالآنَ ، أسْرِعْ إلى مَنْزِلِكَ ، وَالزَمْ فِراشَكَ .»

أجَبْتُ في اسْتِحْياءٍ : « أجَلْ ، سَوْفَ أَفْعَلُ .» وَغادَرْتُ المَسْرَحَ بَيْنَ سُخْرِيَّةِ بَعْضِ الحاضِرينَ وَرِثاءِ بَعْضِهِمُ الآخَرِ . وَلَمْ يَلْبَثْ ستيرفورث أنْ وَضَعَني في الفِراشِ .

وَاسْتَيْقَظْتُ في الصَّباحِ مَنْهوكاً مُصَدَّعَ الرَّأْسِ . وَتَذَكَّرْتُ أغْنيس فَشَعَرْتُ بِخَجَلٍ شَديدٍ لِما بَدَرَ مِنّي . غَيْرَ أَنَّني لَمْ أَلْبَثْ أنْ تَلَقَّيْتُ مِنْها خِطاباً تَدْعوني فيهِ إلى مُقابَلَتِها في مَنْزِلِ السَّيِّدِ وُوتَرْبروك .

هُناكَ قابَلَتْني أغْنيس بِابْتِسامَةٍ حانِيَةٍ ، فَتَوَزَّعَتْ نَفْسي بَيْنَ الدَّهْشَةِ وَالسُّرورِ ، وَقُلْتُ في انْفِعالٍ شَديدٍ : « آهٍ يا أغْنيس ! إنَّني خَجِلٌ مِنْ نَفْسي حَقًّا ! كُنْتُ أَحْمَقَ وَسَخيفاً لَيْلَةَ المَسْرَحِ ؛ لأنَّني شَرِبْتُ حَتّى ثَمِلْتُ . أرْجوكِ أنْ تُسامِحيني .»

أجابَتْ في رِقَّةٍ وَحَنانٍ أعادا إلَيَّ هُدوءَ نَفْسي : « لَقَدْ سامَحْتُكَ حَتّى قَبْلَ أنْ تَطْلُبَ إلَيَّ ذَلِكَ ، فَلا تَشْغَلْ بالَكَ بِالأَمْرِ . لكِنَّني أنْصَحُكَ بِالابْتِعادِ عَنْ رَفيقِ السّوءِ .»

قُلْتُ في دَهْشَةٍ : « وَمَنْ يَكونُ هذا الرَّفيقُ السَّيِّءُ ؟»

« ستيرفورث . إنَّهُ شابٌّ خَبيثُ الطَّوِيَّةِ .»

صِحْتُ قائِلاً : « ستيرفورث ! ولَكِنَّهُ أعَزُّ أصْدِقائي !»

أجابَتْ أغْنيس ، وَهِيَ تُشْرِقُ بِابْتِسامَتِها اللَّطيفَةِ الجَذّابَةِ : « آسِفَةٌ ! ولكِنَّني لا أَطْمَئِنُّ إلى هَذا الشّابِّ . وَالآنَ ، أرْجو المَعْذِرَةَ إذا ما كُنْتُ قَدْ أسَأْتُ الأدبَ بِقَوْلي هذا .»

قُلْتُ في حَماسٍ : « لَمْ تَكوني قَطُّ كَذلِكَ ، وَلَنْ تَكوني ! وَالآنَ ، دَعينا مِنَ الحَديثِ عَنْ ستيرفورث .»

أجابَتْ مُسْرِعَةً : « لا ، فَلِلْحَديثِ بَقِيَّةٌ .»

وَصَمَتَتِ الفَتاةُ هُنَيْهَةً ، ثُمَّ قالَتْ : « هَلْ رَأَيْتَ يُرْيا مُنْذُ وَقْتٍ قَريبٍ ؟»

« يُرْيا هيپ ؟ لا ، لَمْ أرَهُ . هَلْ هُوَ في لندن الآنَ ؟»

وَامْتَقَعَ وَجْهُها ، وَهِيَ تُجيبُ قائِلَةً : « أجَلْ ، وَهُوَ يَمْتَلِكُ الآنَ نِصْفَ مَكْتَبِ والِدي . هَلْ تَعْرِفُ ذلِكَ ؟»

قَفَزْتُ مِنْ مَقْعَدي ، وأنا أصيحُ قائِلاً : « يُرْيا يَمْتَلِكُ نِصْفَ مَكْتَبِ السَّيِّدِ وِكْفيلد ؟ هَذا شَيْءٌ لا يُمْكِنُ تَصْديقُهُ !»

أجابَتْ في حُزْنٍ : « وَلكِنَّهُ حَقيقَةٌ واقِعَةٌ !» ثُمَّ ذَكَرَتْ ،

وَالدُّموعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْها ، كَيْفَ أَنَّ والِدَها عَجَزَ عَنْ إِنْجازِ أَعْمالِهِ بِمُفْرَدِهِ بَعْدَ أَنْ أَدْمَنَ الشَّرابَ ، فَزادَ مِنِ اعْتِمادِهِ في تَصْريفِ تِلْكَ الأَعْمالِ عَلى يُرْيا ، وكَيْفَ اسْتَغَلَّ هَذا الكاتِبُ اللَّئيمُ حاجَةَ الرَّجُلِ الماسَّةَ إِلَيْهِ ، فَاضْطَرَّهُ إِلى التَّنازُلِ لَهُ عَنْ نِصْفِ مَكْتَبِهِ .

لَمْ أَتَمالَكْ نَفْسي ، وَصِحْتُ في انْفِعالٍ شَديدٍ : « يُرْيا ! هذا الوَغْدُ الحَقيرُ ! إِنَّني لَمْ أَطْمَئِنَّ يَوْماً إِلَيْهِ !»

ثُمَّ انْحَنَيْتُ عَلى أَغْنيس قائِلاً : « وَلكِنْ لا تَبْكي يا عَزيزَتي ، فَدُموعُكِ تَهُزُّني مِنَ الأَعْماقِ .» وَلَمْ تَلْبَثِ السَّيِّدَةُ وُوتربْروك أَنْ دَلَفَتْ إِلى الحُجْرَةِ وَصافَحَتْني ، وَهِيَ تَقولُ : « هَلْ سَتَتَناوَلُ العَشاءَ مَعَنا اللَّيْلَةَ ؟»

أَجَبْتُها : « أَجَلْ ، إِذا سَمَحْتِ .»

كانَتِ السَّيِّدَةُ قَدْ دَعَتْ كَثيرينَ إِلى العَشاءِ ، بَيْدَ أَنَّهُ كانَ عَشاءً مُحْزِناً كَئيباً . لَمْ يَتَحَدَّثْ إِلَيَّ أَحَدٌ مِنَ الحاضِرينَ ، كَما لَمْ أَسْعَدْ بِالجُلوسِ إِلى جانِبِ أَغْنيس . وَلَقَدْ زادَني حُضورُ يُرْيا هيپ ضيقاً وَكَآبَةً ، رَغْمَ جُلوسِهِ بَعيداً عَنّي . وَفَجْأَةً سَمِعْتُ رَجُلاً مِنَ الحاضِرينَ يَهْتِفُ بِاسْمِ « ترادلز » .

تَلَفَّتُّ فَإِذا بِهِ صَديقُ المَدْرَسَةِ القَديمُ ، فَهُرِعْتُ إِلَيْهِ ، وَأَخَذْنا

نَسْتَرْجِعُ مَعاً ذِكْرَياتِنا الطَّريفَةَ . كانَتْ سَعادَتي لا توصَفُ بِلُقْياهُ ، وَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ قَدَّمْتُهُ إِلى أَغْنيس ، غَيْرَ أَنَّني لَمْ أَرَهُ بَعْدَ ذلِكَ .

ثُمَّ أَتى يُرْيا هيپ ، وَدَعاني إِلى مُرافَقَتِهِ عَلى طَريقِ العَوْدَةِ إِلى مَسْكَنَيْنا . وَرَغْمَ تَبَرُّمي بِهِ وَسُخْطي عَلَيْهِ ، لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَرْفُضَ لَه ذلِكَ المَطْلَبَ ، فَخَرَجْنا مَعاً إِلى الشّارِعِ .

قُلْتُ لَهُ أَثْناءَ السَّيْرِ : « كَيْفَ حالُ السَّيِّدِ وِكْفيلد الآنَ ؟»

أَجابَ : « لَقَدْ أَلَمَّ بِهِ المَرَضُ نَتيجَةَ إِدْمانِهِ لِلْخَمْرِ ، كَما تَعْلَمُ ، وَفَقَدَ جُزْءاً كَبيراً مِنْ ثَرْوَتِهِ . غَيْرَ أَنَّني لَمْ أَتَوانَ في مُساعَدَتِهِ قَدْرَ إِمْكاني ، فَأَنا أُحِبُّ الرَّجُلَ ، كَما أُحِبُّ ابْنَتَهُ الآنِسَةَ أَغْنيس . إِنَّها في غايَةِ الرِّقَّةِ وَالجَمالِ ، أَلَيْسَ كَذلِكَ ؟»

وارْتَسَمَتْ عَلى وَجْهِهِ ابْتِسامَةٌ خَبيثَةٌ ، ثُمَّ أَرْدَفَ : « هَلْ تَعْرِفُ مَتى سَتَتَزَوَّجُ الآنِسَةُ أَغْنيس ؟ وَبِمَنْ ؟»

كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ يَطْمَحُ إِلى الزَّواجِ بِها ، في حينِ أَنَّها تَبْغَضُهُ أَشَدَّ البُغْضِ . وَغَلى الدَّمُ في عُروقي ، وَلكِنَّني تَمالَكْتُ نَفْسي وَلَمْ أُجِبْ بِشَيْءٍ ؛ خَشْيَةَ أَنْ يُلْحِقَ الأَذى بِالفَتاةِ أَوْ بِوالِدِها ، وَكانَ ذلِكَ حينَئِذٍ في مَقْدورِهِ .

اشْتَدَّ شُعوري بِالوَحْشَةِ في لندن ، فَلَقَدْ ذَهَبَ ستيرفورث إلى أكْسفُورد ، كَما لَمْ أعُدْ أرى ترادلز بَعْدَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ . لكنَّني كُنْتُ أذْهَبُ إلى المَكْتَبِ كُلَّ صَباحٍ ، وَأقْضي سَحابَةَ النَّهارِ في تَعَلُّمِ القانونِ على يَدِ السَّيِّدِ سبينلو .

وَذاتَ يَوْمٍ دَعاني السَّيِّدُ سبينْلو لِقَضاءِ عُطْلَةِ نِهايَةِ الأسْبوعِ في مَنْزِلِهِ الكائِنِ بِإحْدَى ضَواحي لندن ، فَسُرِرْتُ كَثيراً بِذَلِكَ . ولَمّا حَلَّ يَوْمُ السَّبْتِ ، اصْطَحَبَني في عَرَبَتِهِ الخاصَّةِ إلى هُناكَ .

كانَ يَمْتَلِكُ مَنْزِلاً كَبيراً تُحيطُ بِهِ حَديقَةٌ واسِعَةٌ غَنّاءُ . وَما إنْ دَلَفْنا إلى الدّاخِلِ حَتّى قَدَّمَني إلى ابْنَتِهِ دورا ، وَإلى سَيِّدَةٍ أخْرى كانَتْ تَعْمَلُ مُرَبِّيَةً لَها وَمُديرَةً لِلْمَنْزِلِ . وَلَشَدَّ ما كانَتْ دَهْشَتي حينَ وَجَدْتُ أنَّ هَذِهِ المَرأةَ هِيَ الآنِسَةُ مِرْدِسْتون !

وَصافَحْتُ الآنِسَةَ مِرْدِسْتون دونَ اكْتِراثٍ مُرَدِّدًا بِأنَّني أعْرِفُها مِنْ قَبْلُ . أمّا دورا ، فَقَدْ وَقَعْتُ أسيرَ جَمالِها وَفِتْنَتِها مُنْذُ النَّظْرَةِ الأولى ؛ فَلَمْ أعُدْ أرى في الحُجْرَةِ أحَدًا سِواها . كانَتْ رائِعَةَ البَهاءِ مِثْلَ زَهْرَةٍ نادِرَةٍ بَديعَةٍ تَتَألَّقُ في نَدى الفَجْرِ البَهيجِ السّاحِرِ .

وَتَوَجَّهْتُ إلى غُرْفَتي لأسْتَريحَ قَليلاً ، لَكِنَّ وَجْهَها الجَميلَ ظَلَّ مُرْتَسِماً في مُخَيِّلَتي . ثُمَّ هَبَطْتُ إلى قاعَةِ الطَّعامِ لِتَناوُلِ العَشاءِ .

وَأخَذَ بَعْضُ الحاضِرينَ يَتَحَدَّثُ إليَّ ، لكِنَّني كُنْتُ في شُغْلٍ عَنْهُمْ بِالتَّطَلُّعِ إلَيْها . وبَعْدَ العَشاءِ غادَرْنا المائِدَةَ إلى الرَّدْهَةِ ، فَاتَّخَذَتِ الآنِسَةُ مِرْدِسْتون مَجْلِسَها إلى جانبي ، ثُمَّ هَمَسَتْ في أذُني قائِلَةً : « سيِّدُ كوبرفيلد ، أصْغِ جَيِّداً إلى ما سَأقولُ .»

أجَبْتُها : « إنَّني في تَمامِ الإصْغاءِ يا آنِسَةُ مِرْدِسْتون .»

« أنْتَ تَعْرِفُ أنَّني لا أحِبُّكَ ، وَلا أحِبُّ عَمَّتَكَ ، وَأنَّكُما لا تُحِبّانِّي كَذلِكَ .»

« هَذا ما أعْرِفُهُ بِكُلِّ تَأكيدٍ .»

« غَيْرَ أنَّهُ مِنَ الأجْدى لِكِلَيْنا في الوَقْتِ الحاضِرِ أنْ يُراعِيَ كُلٌّ مِنّا الأدَبَ في مَسْلَكِهِ تِجاهَ الآخَرِ .»

قُلْتُ : « أجَلْ ، فَلَيْسَ مِنَ اللّائِقِ أنْ يَنْشَبَ بَيْنَنا شِجارٌ في هَذا البَيْتِ .»

قالَتْ : « لا ، لَنْ يَنْشَبَ بَيْنَنا شِجارٌ ، فَأنا ألْزَمُ جانِبَ الأدَبِ في تَصَرُّفي عَلى الدَّوامِ .»

وَتَركْتُها مُنصرِفًا إلى فِراشي . وَفي تِلْكَ اللَّيْلَةِ حَلَمْتُ بِـ « دورا » حُلْماً وَرْدِيًّا بَهيجاً . وَاسْتَيْقَظْتُ مُبَكِّرًا في الصَّباحِ التّالي ،



وأخَذْتُ أتجوَّلُ في حَديقَةِ المَنْزِلِ ، فالْتَقَيْتُ فاتِنَتي هُناكَ .

قالَتْ لي بِصَوْتِها العَذْبِ الهادِئِ : « طابَ صَباحُكَ .»

وَرَدَدْتُ تَحيَّتَها بِقَلْبٍ خافِقٍ ، ثُمَّ أرْدَفْتُ : « أرى أنَّكِ عُدْتِ مِنْ فَرَنْسا مُنْذُ وَقْتٍ قَصيرٍ ، أَلَيْسَ كَذلِكَ ؟»

قالَتْ : « أجَلْ . هَلْ ذَهَبْتَ إلى فَرَنْسا مِنْ قَبْلُ ؟»

« لا ، كَما أنَّني لا أرْغَبُ في مُغادَرَةِ إنْجِلْترا .»

« لا تَرْغَبُ في مُغادَرَةِ إنْجِلْترا ؟ لماذا ؟»

أجَبْتُ في ابْتِسامَةٍ رَقيقَةٍ : « لأنَّكِ تَعيشينَ فيها يا آنِسَةُ دورا . لأنَّكِ هُنا في إنْجِلْترا . فَأشْرَقَ وَجْهُها حَياءً ، ولكِنَّها ضَحِكَتْ قائِلَةً لِكَلْبِها الصَّغيرِ الواقِفِ إلى جِوارِها : « إنَّ السَّيِّدَ كوبرفيلد مُجامِلٌ لَطيفٌ يا جيب ، أَلَيْسَ كَذلِكَ ؟»

وَلَمْ تَلْبَثْ أنْ دَعَتْني إلى مُرافَقَتِها في السَّيْرِ لِمُشاهَدَةِ زُهورِ الحَديقَةِ الجَميلَةِ . وأخَذَتْ تَتَطَلَّعُ إلى أزْهارِها الرّائِعَةِ في حينِ كُنْتُ أخْتَلِسُ النَّظَرَ إلى وَجْهِها الخَلّابِ السّاحِرِ . كانَتْ أشَدَّ فِتْنَةً مِنْ كُلِّ الزُّهورِ الحُلْوَةِ اليانِعَةِ !

واسْتَطْرَدَتْ ، وَنَحْنُ نَسيرُ في رُكْنٍ قَصِيٍّ مِنَ الحَديقَةِ النَّضِرَةِ العاطِرَةِ : « هَلِ الآنِسَةُ مِرْدِسْتُون صَديقَةٌ لَكَ ؟»

أَجَبْتُها بِالنَّفْيِ ، فَأَرْدَفَتْ قائِلَةً : « لَقَدْ أَثْلَجْتَ صَدْري بِهَذِهِ الإِجابَةِ ، فَأَنا أَمْقُتُها . إِنَّها تَتْبَعُني كَظِلِّي ، بَلْ وَتَتَلَصَّصُ عَلَيَّ أَحْيانًا .»

ثُمَّ قَبَّلَتْ كَلْبَها الصَّغيرَ ، وَهِيَ تُخاطِبُهُ في رِقَّةٍ وَعُذوبَةٍ قائِلَةً : « أَلَيْسَ كَذَلِكَ يا جيب ؟»

وَتَجاذَبْنا مَعًا أَطْرافَ الحَديثِ . ثُمَّ حَضَرَتِ الآنِسَةُ مِرْدِسْتُون ، وَطَلَبَتْ مِنّا التَّوَجُّهَ إِلى البَيْتِ لِتَناوُلِ طَعامِ الإِفْطارِ .

غَيْرَ أَنَّني سَأَتَذَكَّرُ دائِمًا ذَلِكَ الأَحَدَ البَهيجَ الَّذي قَضَيْتُهُ مَعَ دورا في غَمْرَةٍ مِنَ النَّشْوَةِ وَالسَّعادَةِ . وَكانَتِ الآنِسَةُ مِرْدِسْتُون مَعَنا في المَنْزِلِ ، ولكِنَّني لَمْ أُحِسَّ بِوُجودِها ، فَقَدْ صارَتْ أَتْفَهَ مِنْ أَنْ تُثيرَ في نَفْسي شَيْئًا مِنَ الأَلَمِ أَوِ التَّعاسَةِ .

لكِنَّ الكَآبَةَ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ عاوَدَتْني عِنْدَما عُدْتُ إِلى لندن . وَبَرَّحَ بِيَ الشَّوْقُ لِرُؤْيَةِ دورا ، فَأَخَذْتُ أَذْرَعُ شَوارِعَ المَدينَةِ جيئَةً وَذَهابًا أَمَلاً في لُقْياها . وَذاتَ مَرَّةٍ رَأَيْتُها داخِلَ عَرَبَتِها الخاصَّةِ ، وَلَوَّحَتْ

لي مِنَ العَرَبَةِ في أَثْناءِ سَيْرِها ؛ فَغَمَرَتْني سَعادَةٌ بالِغَةٌ لِذَلِكَ .

قالَتْ لِيَ السَّيِّدَةُ كرَبْ – صاحِبَةُ المَسْكَنِ – ذاتَ صَباحٍ : « ماذا بِكَ ، يا سَيِّدُ كوبرفيلد ؟ أَراكَ واجِمًا ، شاحِبَ الوَجْهِ .»

أَجَبْتُها مُتَضاحِكًا : « هَلْ تَغَيَّرْتُ إِلى هَذا الحَدِّ ؟»

« أَجَلْ . هَلْ أَنْتَ عَلى ما يُرامُ ؟» فَرَدَدْتُ بِالإِيجابِ .

وَتَطَلَّعَتِ السَّيِّدَةُ إِلَيَّ ثانِيَةً ، ثُمَّ قالَتْ : « إِنَّني أَعْرِفُ سَبَبًا شائِعًا لِهَذِهِ التَّغَيُّراتِ الفُجائِيَّةِ الَّتي تَعْتَري الشَّبابَ مِنْ أَمْثالِكَ . أَغْلَبُ الظَّنِّ أَنَّكَ الْتَقَيْتَ فَتاةً جَميلَةً جَذّابَةً ، وَأَنَّ سِهامَ كيوبيد قَدْ أَصابَتْ قَلْبَكَ الغَضَّ !»

الفصل التّاسع

كُنْتُ لا أزالُ أشْعُرُ بِالغُرْبَةِ ، وَهَكَذا سَعَيْتُ إلى زِيارَةِ ترادِلْز الَّذي كانَ يَسْكُنُ بَيْتًا مُتَواضِعًا في أحَدِ الأحْياءِ الفَقيرَةِ . وَما إنْ رَآني حَتّى صاحَ قائِلاً : « كويرفيلد ! آهٍ يا صَديقيَ العَزيز ! إنَّهُ لَجَميلٌ مِنْكَ أنْ تَبْدَأني بِالزِّيارَةِ ، فَأنْتَ الشَّخْصُ الوَحيدُ الَّذي زارَني مُنْذُ أكْثَرَ مِنْ شَهْرٍ .»

كانَ يُقيمُ بِحُجْرَةٍ صَغيرَةٍ ضَيِّقَةٍ ، تَتَوسَّطُها مِنْضَدَةٌ صَغيرَةٌ ، عَلَيْها أوْراقٌ وَبِضْعَةُ أقْلامٍ .

سَألْتُهُ : « ماذا تَعْمَلُ الآنَ يا ترادِلْز ؟»

أجابَ : « إنَّني أدْرُسُ القانونَ ؛ فَقَدِ اشْتَغَلْتُ بِجِدٍّ وَمُثابَرَةٍ كَيْ أحْصُلَ عَلى نُقودٍ ، ثُمَّ دَفَعْتُ بِالمَبْلَغِ الَّذي جَمَعْتُهُ إلى أحَدِ المُحامينَ ، لأدْرُسَ القانونَ على يَدَيْهِ .»

« متى سَتَنْتَهي مِنْ دِراسَتِكَ ، وَتُصْبِحُ مُحامِيًا ؟»

وَبَدا الضّيقُ على مُحَيّاهُ ، وَهُوَ يَقولُ : « لَسْتُ أدْري عَلى وَجْهِ التَّحْديدِ ، ولكِنَّ هَذا اليَوْمَ يَبْدو بَعيدًا !»

غَيْرَ أنَّ وَجْهَهُ لَمْ يَلْبَثْ أنْ تَهَلَّلَ بِالسَّعادَةِ ، وَهُوَ يَسْتَطْرِدُ قائِلاً : « إنَّني أُحِبُّ فَتاةً لَطيفَةً تُدْعَى « صوفي » ، وَهِيَ تُبادِلُني الحُبَّ . وَلكِنْ يَتَحَتَّمُ أنْ نَنْتَظِرَ بَعْضَ الوَقْتِ حَتَّى نَتَمَكَّنَ مِنْ إتْمامِ الزَّواجِ .»

وأطْرَقَ هُنَيْهَةً ، ثُمَّ أرْدَفَ : « إلّا أنَّنا نَسْتَطيعُ الانْتِظارَ ؛ فَنَحْنُ مُتَحابّانِ ومُتَفاهِمانِ .»

قُلْتُ في جَذَلٍ : « لَقَدْ أسْعَدَني سَماعُ هَذا النَّبأ السّارِّ .»

وَتَجَوَّلَ الفَتى بِبَصَرِهِ في أنْحاءِ الحُجْرَةِ ، ثُمَّ قالَ : « حُجْرَتي هَذِهِ لَيْسَتْ جَيِّدَةً ، كَما تَرى ، وَلكِنَّ إيجارَها زَهيدٌ ، كَما أنَّ جاري رَجُلٌ طَيِّبٌ .»

عِنْدَئِذٍ سَمِعْتُ صَوْتًا يُنادي في الخارِجِ ، فَلَمّا سَألْتُ ترادِلْز عَنْ صاحِبِ الصَّوْتِ ، فاجَأني بِقَوْلِهِ : « إنَّهُ جاري الطَّيِّبُ السَّيِّدُ ميكاوْبر .»

وَدَلَفَ السَّيِّدُ ميكاوْبر إلى الحُجْرَةِ . وَما إنْ رَآني حَتّى صاحَ

قائلاً : « وَلَدِيَ العزيز كوپرفيلد ! إنَّها مُفاجَأةٌ مُدْهِشَةٌ ! سَوْفَ تُسَرُّ زَوْجَتي كَثيراً بِلُقْياكَ . »

سَأَلْتُهُ : « كَيْفَ حالُكَ ، يا سَيِّدُ ميكاوْبر ؟ »

أجابَ : « ما زِلْنا فُقَراءَ ، وَلكِنْ لَنا صَديقٌ مُخْلِصٌ هُنا هُوَ السَّيِّدُ ترادِلْز ، كَما أَنَّنا نَنْتَظِرُ مَبْلَغاً مِنَ المالِ سَوْفَ يَأتينا قَريباً . »
ثُمَّ أَرْدَفَ ، وَهُوَ يَضْحَكُ في جَذَلٍ : « نَحْنُ نَتَعَلَّقُ دائِماً بِحِبالِ الأَمَلِ . »

وَلَقَدْ سُرِرْتُ بِلِقاءِ السَّيِّدِ ميكاوْبر وَزَوْجَتِهِ مَرَّةً أُخْرى ، وَدَعَوْتُهُما مَعَ ترادِلْز إلى عَشاءٍ في مَنْزِلي . وَفي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مَزَجَ لَنا السَّيِّدُ ميكاوْبر شَراباً فَريداً بِأَنْواعٍ مِنَ الفاكِهَةِ ، وَشَرَعَ يُغَنّي في مَرَحٍ شَديدٍ .

كانَ الشَّرابُ رائِعَ المَذاقِ ، وَلكِنَّ اللَّحْمَ لَمْ يَكُنْ كَذلِكَ ؛ فَقُلْتُ لِضُيوفي في خَجَلٍ : « مَعْذِرَةً إذا كانَتِ السَّيِّدَةُ كرپ لَمْ تُنْضِجِ اللَّحْمَ جَيِّداً عَلى النّارِ ! »

صاحَ السَّيِّدُ ميكاوْبر قائِلاً : « لا عَلَيْكَ يا سَيِّدُ كوپرفيلد ، فَسَوْفَ أُعالِجُ أنا الأَمْرَ . »

وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَطَّعَ اللَّحْمَ إلى شَرائِحَ صَغيرَةٍ ، ثُمَّ أعادَ طَهْيَهُ عَلى النّارِ ، فَأَكَلْناهُ بِشَهِيَّةٍ بالِغَةٍ ، في حينٍ كُنّا نَسْمُرُ وَنُغَنّي في سَحابَةٍ مِنَ السَّعادَةِ .

وَسَأَلْتُ السَّيِّدَ ميكاوْبر عَنْ عَمَلِهِ ، فَأَجابَني قائِلاً : « لَيْسَ لي عَمَلٌ في الوَقْتِ الحاضِرِ ، غَيْرَ أَنَّني أَتَوَقَّعُ الحُصولَ عَلى عَمَلٍ في القَريبِ العاجِلِ . »

أَرْدَفْتُ قائِلاً : « أَلَيْسَ في إمْكانِكَ أَنْ تَقْتَرِضَ بَعْضَ المالِ ؟ »

أجابَني : « لَقَدِ اقْتَرَضْتُ بِالفِعْلِ ، غَيْرَ أَنَّني أَنْفَقْتُ ما اقْتَرَضْتُ . »

وَارْتَسَمَ الحُزْنُ لَحْظَةً عَلى جَبينِهِ ، لكِنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ أَنِ ابْتَسَمَ وَقالَ: « أرى أَنَّكَ قَدْ كَبِرْتَ يا كوپرفيلد ، وَأَصْبَحْتَ شابّاً وَجيهاً جَذّاباً . أَلَمْ تُفَكِّرْ بَعْدُ في الزَّواجِ ؟ أَلَمْ تَعْثُرْ بَعْدُ عَلى نِصْفِكَ الحُلْوِ ؟ »

« أَجَلْ ، لَقَدْ عَثَرْتُ . »

قالَ ، وَالفَرْحَةُ مُرْتَسِمَةٌ في عَيْنَيْهِ : « إنَّني سَعيدٌ بِذلِكَ . هَلْ هِيَ فَتاةٌ جَميلَةٌ ؟ »

« بَلْ رائِعَةُ الحُسْنِ . »

وَجَنَّ اللَّيْلُ ، فَاسْتَأْذَنَ الضُّيوفُ في الانْصِرافِ . وَخَرَجَ ترادِلْز والسَّيِّدَةُ ميكاوْبر إلى الشّارِعِ ، وَلكِنَّ السَّيِّدَ ميكاوْبر تَلَكَّأَ بَعْضَ الشَّيْءِ . وأَخْرَجَ الرَّجُلُ مِنْ جَيْبِهِ خِطاباً ، وقَدَّمَهُ لي وَهُوَ يَقولُ : « لا تَقْرَأْ هَذا الخِطابَ الآنَ يا كوبرفيلد ، وَلكِنْ تَسْتَطيعُ قِراءَتَهُ بَعْدَ انْصِرافي . »

وَما إنْ خَرَجَ حَتَّى تَوَجَّهْتُ إلى حُجْرَتي . وَلَمْ أَلْبَثْ أنْ سَمِعْتُ وَقْعَ أَقْدامٍ عَلى السُّلَّمِ ، ثُمَّ صَوْتاً يُناديني قائِلاً : « داڤيد ، هَلْ أَنْتَ بِالدّاخِلِ ؟» كانَ هُوَ صَوْتَ صَديقي ستيرفورث .

وَدَلَفَ ستيرفورث إلى الحُجْرَةِ ، وَصاحَ قائِلاً وَهُوَ يُقَهْقِهُ : « لَقَدْ فاجَأْتُكَ بِهَذِهِ الزِّيارَةِ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

وَتَطَلَّعَ إلى بَقايا الطَّعامِ ، وَقالَ : « آه ، لَقَدْ كُنْتَ في وَليمَةٍ مَعَ أَصْدِقائِكَ . إنَّكَ مُغْرَمٌ بِالأَكْلِ وَالمَرَحِ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

أَجَبْتُهُ : « أَجَلْ ، وَكانَ عِنْدي أَصْدِقاءُ قُدامى . هَلْ تَذْكُرُ ترادِلْز ؟»

« ترادلز ؟ لا ، لا أَذْكُرُهُ . »

« كَيْفَ لا تَذْكُرُهُ ؟ لَقَدْ كانَ زَميلاً وَصَديقاً لَنا في المَدْرَسَةِ . »

وشَرَدَ ستيرفورث بِفِكْرِهِ هُنَيْهَةً ، ثُمَّ قالَ : « ترادِلْز ! آه ، لَقَدْ تَذَكَّرْتُهُ . إنَّهُ ذَلِكَ الفَتى الأَحْمَقُ !»

وَأَخْبَرَني ستيرفورث أَنَّهُ قادِمٌ من يارْمَوْث ، وَأَنَّ إميلي سَوْفَ تَتَزَوَّجُ بِهام خِلالَ أَيّامٍ . ثُمَّ ناوَلَني خِطاباً من بيغوتي قائِلاً : « إنَّ زَوْجَها السَّيِّدَ باركز عَلى شَفيرِ المَوْتِ . »

وَقَرَأْتُ الخِطابَ ، ثُمَّ قُلْتُ : « سَوْفَ أَذْهَبُ إلى يارْمَوْث ؛ فَإنَّ بيغوتي في مِحْنَةٍ شَديدَةٍ ، وَهِيَ تُريدُ أَنْ تَراني . »

أَجابَ ستيرفورث : « لا ، بَلْ سَتَذْهَبُ إلى هايْغيت أَوَّلاً ؛ فَإنَّ أُمّي وروزا تَرْغَبانِ في رُؤْيَتِكَ . »

« وَلكِنْ يَجِبُ أَنْ أَذْهَبَ إلى يارْمَوْث في الحالِ . »

قالَ ستيرفورث في ضِيْقٍ : « يُمْكِنُكَ الذَّهابُ إلى يارْمَوْث بَعْدَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلاثَةٍ . وَالآنَ ، هَيّا لِنَتَرَيَّضْ مَعاً في الخارِجِ . »

وَخَرَجْنا مَعاً إلى الشّارِعِ ، وَأَخَذْنا نَتَجاذَبُ أَطْرافَ الحَديثِ في أَثْناءِ سَيْرِنا نَحْوَ مَنْزِلِهِ . كانَ الفَتى يَبْدو شَديدَ الانْفِعالِ ، وَرُبَّما كانَ ثَمِلاً بَعْضَ الشَّيْءِ . وَما إنْ شارَفْنا المَنْزِلَ حَتَّى وَدَّعْتُهُ ، وَقَفَلْتُ راجِعاً إلى مَسْكَني . عِنْدَئِذٍ شَرَعْتُ في قِراءَةِ خِطابِ السَّيِّدِ

ميكاوْبر ، وَكانَ نَصُّهُ كَما يَلي :

« عَزيزي كوبرفيلد

لَقَدْ أَنْفَقْتُ كُلَّ نُقودي ، وَاقْتَرَضْتُ مِنْ ترادلز ، غَيْرَ أَنَّني أَضَعْتُ نُقودَ ترادلز أَيْضاً ، وَأَصْبَحْتُ مُفْلِساً تَماماً ! لَقَدْ آذَيْتُ ترادلز كَما آذَيْتُ نَفْسي ! وَأَشْعُرُ الآنَ بِالخَجَلِ وَالعارِ لِذَلِكَ ! لَنْ أَراكَ مَرَّةً أُخْرى ، فَأَنا رَجُلٌ سَفيهٌ ، وَغَيْرُ جَديرٍ بِالاحْتِرامِ . »

(وِلْكِنز ميكاوْبر)

شَعَرْتُ بِالأَسى لِمَأْساةِ السَّيِّدِ ميكاوْبر ، كَما حَزِنْتُ لِما أَصابَ ترادِلز كَذَلِكَ .

وَفي الصَّباحِ التّالي ، طَلَبْتُ إِلى السَّيِّدِ سبينلو أَنْ يَمْنَحَني إِجازَةً. ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلى مَنْزِلِ ستيرفورث في هايْغيت . وَأَثْناءَ وُجودي في الحُجْرَةِ مُنْفَرِداً ، دَخَلَتْ روزا دارتل وَجَلَسَتْ إِلى جانِبي ، ثُمَّ قالَتْ في عِباراتٍ مُتَقَطِّعَةٍ : « أَنا أَعْرِفُ ستيرفورث جَيِّداً ، وَأُحِسُّ بِما يَعْتَمِلُ في داخِلِهِ حينَ يَحْزَنُ أَوْ يَضْطَرِبُ . لَقَدْ أَضْحى قَلِقاً ، سَريعَ الانْفِعالِ هَذِهِ الأَيّامَ . تُرى ماذا يَفْعَلُ الآنَ في يارْموث ، أَوْ ماذا ارْتَكَبَ مِنْ خَطَأٍ هُناكَ ؟ إِنَّني لَفي عَجَبٍ شَديدٍ مِنْ أَمْرِهِ ! »

وَصَمَتَتْ هُنَيْهَةً ، ثُمَّ قَطَّبَتْ ما بَيْنَ حاجِبَيْها ، وَأَرْدَفَتْ قائِلَةً : « أَيُّ ريحٍ شِرِّيرَةٍ قادِمَةٌ ؟ إِنَّني أُحِسُّ بِخَطَرٍ وَشيكٍ . »

وَفي المَساءِ ، الْتَأَمَ شَمْلُنا حَوْلَ مائِدَةِ العَشاءِ . وَاقْتَرَبَ ستيرفورث مِنْ روزا قائِلاً : « لِماذا أَنْتِ مُكْتَئِبَةٌ يا روزا ؟ لا تَسْتَسْلِمي لِلْهَواجِسِ وَالأَفْكارِ . هَيّا نُشَنِّفِ أَسْماعَنا بِشَيْءٍ مِنَ الغِناءِ ، فَإِنَّ لَكِ صَوْتاً جَميلاً . » وَنَهَضَتِ الفَتاةُ وَشَدَتْ بِأُغْنِيَةٍ غَريبَةٍ تَنْضَحُ بِالشَّجَنِ . وَما إِنْ فَرَغَتْ مِنَ الغِناءِ حَتّى لَحِقَ بِها ستيرفورث وَأَخَذَ يُداعِبُ شَعْرَها بِيَدِهِ قائِلاً : « يا لَها مِنْ أُغْنِيَةٍ عَذْبَةٍ جَميلَةٍ ! »

غَيْرَ أَنَّ الفَتاةَ انْتَفَضَتْ واقِفَةً ، وَهِيَ تُرَدِّدُ في غَضَبٍ : « لا تَلْمِسْني ، أَرْجوكَ ! » ، ثُمَّ هَرْوَلَتْ إِلى خارِجِ الحُجْرَةِ .

وَسَأَلْتُ صاحِبي عَنْ سَبَبِ هَذا السُّلوكِ مِنْ جانِبِها ، فَأَجابَني بِقَوْلِهِ : « لا تَهْتَمَّ بِالأَمْرِ ، فَإِنَّ روزا فَتاةٌ غَريبَةُ الأَطْوارِ . »

قُلْتُ لِستيرفورث ، بَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الصَّمْتِ : « قَدْ لا أَراكَ ثانِيَةً في الغَدِ ، فَسَوْفَ أَرْحَلُ إِلى يارْموث في الصَّباحِ المُبَكِّرِ . »

وَشَدَّ الفَتى عَلى يَدي مُوَدِّعاً ، وَقالَ وَقَدِ ارْتَسَمَتْ عَلى وَجْهِهِ ابْتِسامَةٌ حَزينَةٌ : « طابَتْ لَيْلَتُكَ يا داڤيد . أَرْجو أَنْ تَتَذَكَّرَني بَيْنَ

الحينِ وَالآخرِ ، فَلَسْتُ شرِيرًا بِالفِطْرَةِ كَما يَظُنُّ البَعْضُ .»

عَجِبْتُ لِهَذِهِ العِبارَةِ ، وَلكِنَّني أَسْرَعْتُ بِالقَوْلِ : « سَوْفَ أَتَذَكَّرُكَ دائِمًا يا ستيرفورث ، فَأَنْتَ أَعَزُّ أَصْدِقائي .»

وَصَلْتُ إلى يارْمَوْث قُرْبَ ظُهْرِ اليَوْمِ التّالي ، وَلكِنْ ما إنْ وَصَلْتُ حَتّى ، كانَ باركز قَدْ وَدَّعَ الحَياةَ .

الفصل العاشر

سِرْتُ في جِنازَةِ السَّيِّدِ باركز . وَكانَ يَوْمًا قارِسَ البُرودَةِ ، وَسارَ في وَداعِهِ أَفْرادٌ قليلونَ . ثُمَّ عُدْتُ بَعْدَ الجِنازَةِ إلى مَنْزِلِ السَّيِّدِ بيغوتي ، وَأَخَذْتُ أُفَكِّرُ في زَوْجِ شَقيقَتِهِ الرّاحِلِ . كانَ قَدِ ادَّخَرَ مَبْلَغًا يَرْبو على ثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الجُنَيْهاتِ ، أَوْصَى بِثُلُثَيْهِ لِزَوْجَتِهِ ، وَبالثُّلْثِ الآخَرِ لِصِهْرِهِ السَّيِّدِ بيغوتي .

كانَ الجَوُّ بارِدًا في الخارِجِ ، وَلكِنَّ مَنْزِلَ السَّيِّدِ بيغوتي كانَ دافِئًا وَمُريحًا . غَيْرَ أَنَّ السَّيِّدَةَ غميدْج كانَتْ لا تَزالُ على حالِها مِنَ السُّخْطِ وَالتَّذَمُّرِ .

وَفُتِحَ البابُ وَدَخَلَ رَجُلٌ تَحْجُبُ قُبَّعَتُهُ الضَّخْمَةُ نِصْفَ وَجْهِهِ . كانَ الرَّجُلُ هُو هام ، وَما إنْ رَآني حَتّى قالَ : « تَعالَ مَعي إلى الخارِجِ ، يا سَيِّدُ داڤيد ، لَوْ سَمَحْتَ .»

وَخَرَجْتُ أنا وَهُوَ مِنَ المَنْزِلِ . وَما إنْ وَطِئَتْ أَقْدامُنا أَرْضَ الشّارِعِ حَتَّى بادَرْتُهُ بِالسُّؤالِ : « ما خَطْبُكَ ، يا هام ؟ »

أجابَ في انْفِعالٍ : « إنَّها إميلي ! »

صِحْتُ في لَهْفَةٍ وَقَلَقٍ : « إميلي ؟ أَ هِيَ مَريضَةٌ ؟ »

قالَ في بُطْءٍ : « لا ، لَيْسَتْ مَريضَةً . لَقَدِ اخْتَفَتْ ! »

صِحْتُ في دَهْشَةٍ بالِغَةٍ : « اِخْتَفَتْ ! وَلكِنْ أَيْنَ ؟ »

وَأَدارَ عَنْ ناظِري وَجْهَهُ المُفْعَمَ بِالحُزْنِ وَالأَلَمِ ، وَهُوَ يَقولُ : « لَقَدْ هَرَبَتْ ! كَيْفَ أَسْتَطيعُ أَنْ أُواجِهَ السَّيِّدَ بيغوتي ؟ ماذا يُمْكِنُ أَنْ أَقولَ لَهُ ؟ »

غَيْرَ أَنَّ السَّيِّدَ بيغوتي لَمْ يَلْبَثْ أَنْ لَحِقَ بِنا . وَما إنْ رَأى وَجْهَيْنا المُمْتَقِعَيْنِ حَتَّى صاحَ قائِلاً : « أَيْنَ إميلي ، يا هام ؟ » ، ثُمَّ مالَ إلى الجِدارِ ، وَكادَ أَنْ يَتَهاوَى إلى الأَرْضِ ، فَأَمْسَكْنا بِهِ ، وَأَدْخَلْناهُ إلى البَيْتِ .

وَأَخْرَجَ هام خِطاباً مِنْ جَيْبِهِ ، وَقالَ : « اِقْرَأْ هذا ، يا سَيِّدُ داقيد ، فَأَنا لا أَسْتَطيعُ قِراءَتَهُ ثانِيَةً . »

كانَ الخِطابُ مُقْتَضَباً ، وَكانَتْ سُطورُهُ كَما يَلي :

« سَوْفَ أُغادِرُ يارْمَوْث إلى مَكانٍ قَصِيٍّ . أَعْرِفُ أَنَّ هذا خَطَأٌ كَبيرٌ ، وَلكِنَّني لا أَمْلِكُ نَفْسي ! لَنْ أَعودَ ثانِيَةً ، وَلكِنْ أَرْجو أَنْ تَغْفِروا لي وَلا تَنْسَوْني . لَنْ أَسْتَطيعَ الزَّواجَ بِهام ، وَلكِنَّني ما زِلْتُ أُحِبُّكُمْ جَميعاً . أنا جِدُّ آسِفَةٍ لِما سَوْفَ يَحْدُثُ . »

(إميلي)

وَتَهالَكَ السَّيِّدُ بيغوتي عَلى أَقْرَبِ مَقْعَدٍ ، وَقَدْ تَصاعَدَ الدَّمُ غَزيراً إلى وَجْهِهِ ، ثُمَّ صاحَ في تَشَنُّجٍ قائِلاً : « مَنْ هُوَ الرَّجُلُ الَّذي تَسَبَّبَ في هَذِهِ الفاجِعَةِ ؟ مَنْ هُوَ ذلِكَ الوَغْدُ ؟ أَخْبِروني بِاسْمِهِ . »

أجابَ هام في هُدوءٍ : « إنَّهُ ستيرفورث . لَقَدْ هَرَبَتْ مَعَ ستيرفورث . »

وَصِحْتُ في دَهْشَةٍ وَحَنَقٍ بالِغَيْنِ : « ستيرفورث ؟ صَديقِي الَّذي قَدَّمْتُهُ إِلَيْكُمْ وَعَرَّفْتُهُ بِكُمْ ؟ »

وَسُرْعانَ ما ارْتَدى السَّيِّدُ بيغوتي مِعْطَفَهُ وَهَمَّ بِالخُروجِ ، فاسْتَوْقَفَتْهُ السَّيِّدَةُ غَميدْج قائِلَةً : « إلى أَيْنَ أَنْتَ ذاهِبٌ ؟ »

أجابَ في انْفِعالٍ شَديدٍ : « سَوْفَ أَذْهَبُ لأُحَطِّمَ قارِبَ ستيرفورث

قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ، ثُمَّ أجوبَ جميعَ طُرُقاتِ العالَمِ بَحْثًا عَنِ الفتاةِ ، حتَّى أعيدَها إلى البَيْتِ .»

سَأَلْتُ هام : « متى غادرا يارمَوْث ؟»

أجابَ : « هَذا المَساءَ . لَقَدْ رَحلا هَذا المَساءَ ، في عَرَبَةِ ستيرفورث الخاصَّةِ .»

وَتَقَدَّمَتِ السَّيِّدَةُ غَميدْج ، وأمْسَكَتْ بِيَدِ السَّيِّدِ بيغوتي ، قائِلَةً: « لَنْ تَخْرُجَ الآنَ يا دانيل ! لا ، لَنْ أَدَعَكَ تَخْرُجُ وَأَنْتَ على هَذِهِ الحالِ مِنَ الغَضَبِ والانْفِعالِ . أعْرِفُ أنَّني كُنْتُ امْرَأةً مُتَشائِمَةً وعَديمَةَ الجَدْوى فيما مَضى ، وَلكِنَّني أَعِدُكَ بِالكَفِّ عَنْ ذَلِكَ ، وبِأنْ أكونَ عَوْنًا حَقيقيًّا لَكَ مُنْذُ هَذِهِ اللَّحْظَةِ . ابْقَ اللَّيْلَةَ مَعَنا إكْرامًا لِخاطِري ، وَلْنُفَكِّرْ مَعًا فيما يُمْكِنُ أنْ نَفْعَلَهُ في الغَدِ .»

وَعادَ السَّيِّدُ بيغوتي مَحْزونًا إلى مَقْعَدِهِ ، ثُمَّ اعْتَمَدَ رأسَهُ بَيْنَ كَفَّيْهِ وَانْفَجَرَ في البُكاءِ . وَلَمْ أَسْتَطِعْ تَحَمُّلَ رُؤْيَةِ هَذا المَشْهَدِ الحَزينِ ، فانْصَرَفْتُ عائِدًا إلى الفُنْدُقِ . غَيْرَ أنَّ شَخْصًا واحِدًا لَمْ يُبارِحْ ذِهْني طيلَةَ الوَقْتِ ؛ هُوَ ستيرفورث !

وَلَقَدْ تَغَيَّرَتِ السَّيِّدَةُ غَميدْج مُنْذُ تِلْكَ اللَّيْلَةِ تَغَيُّرًا عَظيمًا ؛ فَقَدْ

كَفَّتْ عَنِ التَّذَمُّرِ وَالشَّكْوى ، وانْهَمَكَتْ في قَضاءِ حاجاتِ السَّيِّدِ بيغوتي وتَجْهيزِ مَلابِسِهِ لِلرِّحْلَةِ المُرْتَقَبَةِ . وفي مَساءِ اليَوْمِ التّالي ، قالَ لنا الرَّجُلُ : « سَوْفَ أَرْحَلُ إلى لندن في الغَدِ لأَبْدأَ رِحْلَتي مِنْ هُناكَ . لَنْ أعودَ إلّا بِصُحْبَةِ إميلي !»

وَفي الصَّباحِ ، رَكِبْتُ العَرَبَةَ المُسافِرَةَ إلى لندن مَعَ السَّيِّدِ بيغوتي وَشَقيقَتِهِ ، وَكانَ في وَداعِنا هام والسَّيِّدَةُ غَميدْج . وَقَبْلَ أنْ تَتَحَرَّكَ العَرَبَةُ ، هَمَسَ هام في أُذُني قائِلاً : « إذا احْتاجَ السَّيِّدُ بيغوتي إلى نُقودٍ ، قُلْ لَهُ أنْ يَطْلُبَها مِنّي وَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ سِوايَ .»

أجَبْتُهُ : « سَوْفَ أفْعَلُ ، عَلى أنَّ السَّيِّدَ بيغوتي لَمْ يَعُدْ فَقيرًا ؛ فَقَدْ وَرِثَ مَبْلَغًا طَيِّبًا مِنَ السَّيِّدِ باركز ، إلّا أنَّني سَأَنْقُلُ إلَيْهِ رَغْبَتَكَ النَّبيلَةَ هَذِهِ .»

وَبَدَأَتِ العَرَبَةُ في السَّيْرِ . وجَرَتِ السَّيِّدَةُ غَميدْج إلى جانِبِها بِضْعَةَ أمْتارٍ ، وَهِيَ تَصيحُ قائِلَةً لِلسَّيِّدِ بيغوتي : « لا تَقْلَقْ يا دانيل ، أوْ تَبْتَئِسْ ، فَسَوْفَ تَعْثُرُ عَلى إميلي حَتْمًا . سَوْفَ أَعْتَني بالمَنْزِلِ في غِيابِكَ ، وعِنْدَ عَوْدَتِكَ بِالسَّلامَةِ ، سَتَجِدُني هُنا بِالتَّأكيدِ . وَداعًا ، وإلى اللِّقاءِ .»

وَما إنْ وَصَلْنا لندن حَتّى اسْتَأْجَرْتُ حُجْرَةً لِمَبيتِ السَّيِّدِ بيغوتي

وشَقيقَتِهِ ، ثُمَّ ذَهَبْتُ إلى هايْغيت لِزِيارَةِ السَّيِّدَةِ ستيرفورث . كانَتِ السَّيِّدَةُ قَدْ عَلِمَتْ بِقِصَّةِ ابْنِها مَعَ إميلي ، فَلَمّا أَخْبَرْتُها بِوُجودِ السَّيِّدِ بيغوتي في المَدينَةِ ، قالَتْ في غَضَبٍ وانْفِعالٍ : « ماذا يُريدُ السَّيِّدُ بيغوتي مِنّي ؟ أنا لا أَرْغَبُ في مُقابَلَتِهِ .»

غَيْرَ أَنَّها اسْتَدْرَكَتْ ، فَقالَتْ : « لكِنْ مَهْلاً يا سَيِّدُ كوپرفيلد . يُمْكِنُكَ أَنْ تُحْضِرَهُ في الغَدِ ، فَقَدْ يَكونُ مِنَ الأَنْسَبِ أَنْ أَراهُ .»

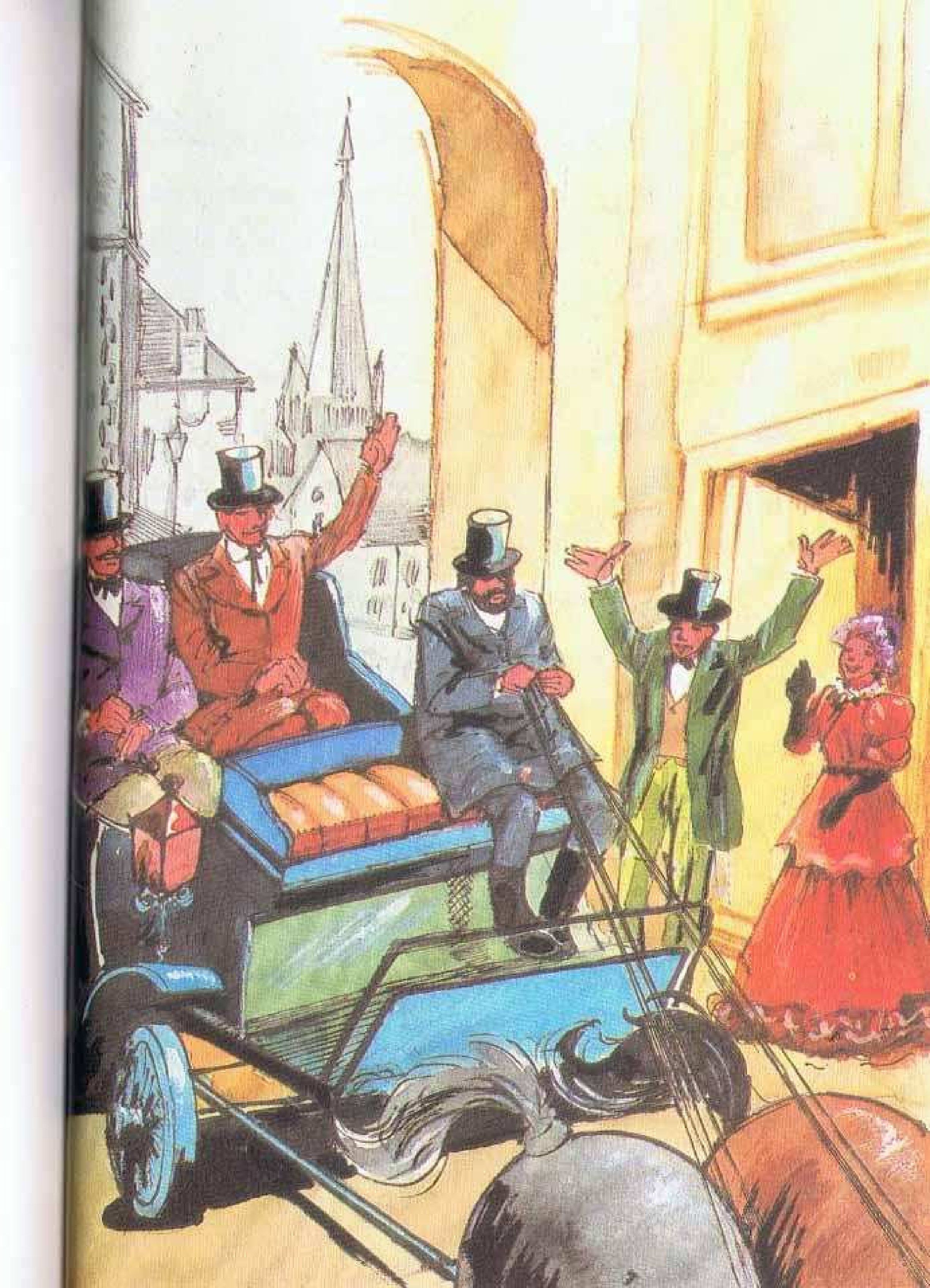
واصْطَحَبْتُ السَّيِّدَ بيغوتي إلى مَنْزِلِ السَّيِّدَةِ ستيرفورث في اليَوْمِ التّالي . وَكانَتْ تَجْلِسُ في صالونِ البَيْتِ ، وإلى جانِبِها روزا دارتل.

سَأَلَتِ السَّيِّدَةُ صاحِبي في أَنَفَةٍ وَتَشامُخٍ : « أَنْتَ خالُ إميلي ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

« أَجَلْ ، أنا خالُ الفَتاةِ .»

قالَتِ المَرْأَةُ في حِدَّةٍ : « اِبْني لَنْ يَتَزَوَّجَ بإميلي ، فَهِيَ لا تَنْتَمي إلى عائِلَةٍ راقِيَةٍ !»

أجابَ الرَّجُلُ في أَدَبٍ وَهُدوءٍ : « لَيْسَ هَذا بِعائِقٍ يَحولُ دونَ زَواجِهِما إذا كانا مُتَحابَّيْنِ ؛ فَإِنَّ إميلي فَتاةٌ ماهِرَةٌ ذَكِيَّةٌ ، وَهِيَ تَسْتَطيعُ أَنْ تُشاكِلَ المُجْتَمَعَ الرّاقِيَ وَتُسايِرَهُ في زَمَنٍ وَجيزٍ .»



صاحَتِ السَّيِّدَةُ في غَضَبٍ : « قُلْتُ إِنَّهُ لَنْ يَتَزَوَّجَها بِحالٍ . وَأَنا أَدْرى النّاسِ بِابْني . »

رَدَّ السَّيِّدُ بيغوتي قائِلاً بِنَفْسِ هُدوئِهِ السّابِقِ : « عِنْدَما جاءَ ابْنُكِ إِلى بَيْتِنا ، أَكْرَمْنا وِفادَتَهُ ظَنًّا مِنّا أَنَّهُ ذو خُلُقٍ رَفيعٍ ، وَلكِنَّهُ فاجَأَنا بِهذا العَمَلِ الخَسيسِ . لَقَدْ خَدَعَنا جَميعاً أَبْلَغَ خِداعٍ . »

أَجابَتِ السَّيِّدَةُ ستيرفورث في وَقاحَةٍ ، وَكَأَنَّها تَتَعَمَّدُ إِهانَتَهُ : « ابْني لا يَخْدَعُ أَحَداً ، لِأَنَّهُ سَيِّدٌ مُثَقَّفٌ كَريمُ المَحْتِدِ ، أَمّا أَنْتُمْ فَجُهَلاءُ وَفُقَراءُ وَلا تَرْقَوْنَ إِلى مَنْزِلَتِهِ الاجْتِماعِيَّةِ . عَلى أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ أَدْفَعَ إِلَيْكَ بِمَبْلَغٍ مِنَ المالِ ، تَعْويضاً لَكُمْ عَمّا حَدَثَ . »

وَانْتَفَضَ السَّيِّدُ بيغوتي ، وَصاحَ في غَضَبٍ قائِلاً : « احْتَفِظي بِنُقودِكِ لِنَفْسِكِ ، فَلَسْتُ في حاجَةٍ إِلَيْها . أَنا حَزينٌ مِنْ أَجْلِكِ يا سَيِّدَتي ؛ فَإِنَّ ابْنَكِ قَدْ خَدَعَكِ مِثْلَما خَدَعَنا تَماماً ؛ غَيْرَ أَنَّكُمْ قَوْمٌ تَعْتَزّونَ بِالإِثْمِ ، وَتُدافِعونَ عَنِ الضَّلالِ في كِبْرِياءَ . لَقَدْ أَدْرَكْتُ الآنَ خَطَئي مِنْ هذِهِ الزِّيارَةِ ، وَلَيْسَ أَمامي سِوى الانْصِرافِ . »

وَهَبَّ واقِفاً ، فَتَبِعْتُهُ إِلى الخارِجِ . وَلكِنَّ روزا اسْتَوْقَفَتْني عَلى السُّلَّمِ ، وَصاحَتْ في وَجْهي قائِلَةً : « لَقَدْ كُنْتَ أَنْتَ السَّبَبَ في كُلِّ ما حَدَثَ ! أَنْتَ الَّذي عَرَّفْتَهُ بِهؤُلاءِ الرِّعاعِ الوَقاحِ ، وَأَنْتَ

الَّذي أَدْخَلْتَهُ بَيْتَهُمْ ! »

أَجَبْتُها قائِلاً في حَزْمٍ وَصَرامَةٍ : « وَلكِنَّ إِميلي لَيْسَتْ وَقِحَةً ، وَلَيْسَتْ مِنَ الرِّعاعِ . كَما أَنَّ خالَها السَّيِّدَ بيغوتي رَجُلٌ طَيِّبٌ وَمُهَذَّبٌ . لَقَدْ أَلْحَقَ بِهِما ستيرفورث أَذًى مُحَقَّقاً بِتَغْريرِهِ بِالفَتاةِ . »

صاحَتْ روزا قائِلَةً : « وَلكِنَّني أَمْقُتُ هذِهِ الفَتاةَ ! أَمْقُتُها مِنْ كُلِّ قَلْبي ! لَقَدْ خَدَعَتْنا جَميعاً ! »

وَبَعْدَ أَنْ غادَرْتُ البَيْتَ بِقَليلٍ ، تَطَلَّعْتُ إِلى الوَراءِ . كانَتْ روزا لا تَزالُ واقِفَةً عِنْدَ البابِ ، وَكانَ وَجْهُها مُمْتَقِعاً مِنَ الغَضَبِ الشَّديدِ ؛ عِنْدَئِذٍ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَرى النَّدْبَةَ القَبيحَةَ بِوُضوحٍ مُسْتَقِرَّةً قُرْبَ الفَمِ !

هكَذا بَدَأَ السَّيِّدُ بيغوتي رِحْلَتَهُ بَحْثاً عَنْ إِميلي . وَكُنْتُ كُلَّما فَكَّرْتُ في أَمْرِهِ ، تَمَلَّكَني حُزْنٌ شَديدٌ .

غَيْرَ أَنَّ دورا عادَتْ تَشْغَلُ فِكْري مَرَّةً أُخْرى . وَذاتَ يَوْمٍ ، قالَ لِيَ السَّيِّدُ سبينلو : « أَنْتَ تَذْكُرُ ابْنَتي ، يا سَيِّدُ كوپرفيلد ، أَلَيْسَ كَذلِكَ ؟ »

لَمْ أَكُنْ قَدْ نَسيتُها قَطُّ حَتّى أَتَذَكَّرَها ، إِلّا أَنَّني أَجَبْتُ مُتَصَنِّعاً

عَدَمَ الاهْتِمامِ : « الآنِسَةُ دورا ؟ أجَلْ ، أتذَكَّرُها بِالطَّبْعِ . ولَكِنْ لِمَ تَسْأَلُني الآنَ عَنْها ، يا سَيِّدي ؟ »

« لأنَّها تَعْتَزِمُ أنْ تُقيمَ حَفْلَةً لِبَعْضِ أصْدِقائِها وَجيرانِها . هَلْ ثَمَّةَ ما يَمْنَعُكَ مِنْ حُضورِ هَذِهِ الحَفْلَةِ ؟ »

كِدْتُ أطيرُ فَرَحًا ، وَلَكِنَّني أخْفَيْتُ مَشاعِري ، وَأَجَبْتُ قائِلاً : « لا مانِعَ لَدَيَّ على الإطْلاقِ . أشْكُرُكَ ، يا سَيِّدُ سبينلو . »

وأرْدَفَ الرَّجُلُ على الفَوْرِ : « سَتَكونُ الحَفْلَةُ في نِهايَةِ الأسْبوعِ القادِمِ ، وَسَتُخْطِرُكَ دورا بِاليَوْمِ المُحَدَّدِ في حينِهِ . »

وَلَمْ تَلْبَثِ الدَّعْوَةُ أنْ جاءَتْني مِنْ دورا في خِطابٍ قَصيرٍ ؛ فَرَقَصَ قَلْبي طَرَبًا ، وَأخَذْتُ أعِدُّ العُدَّةَ لِليَوْمِ المَوْعودِ . وَمَضى الأسْبوعُ بَطيئًا مُتَثاقِلاً ، وَأخيرًا جاءَ اليَوْمُ المُرْتَقَبُ ، فَهُرِعْتُ إلى مَنْزِلِ فاتِنَتي أحْمِلُ بَيْنَ يَدَيَّ باقَةً جَميلَةً مِنَ الوَرْدِ .

كانَتْ دورا تَجْلِسُ في حَديقَةِ الدّارِ مَعَ صَديقَةٍ حَميمَةٍ لَها تُدْعى « جوليا مِلْز » ، وَإلى جِوارِها كَلْبُها المُدَلَّلُ . وَكانَتْ هُناكَ مَجْموعَةٌ كَبيرَةٌ مِنْ أقارِبِها وَأصْدِقائِها وَجيرانِها ، غَيْرَ أنَّ الآنِسَةَ مِرْدِسْتون لَمْ تَكُنْ بَيْنَ الحاضِرينَ .

وَأبْدَتْ دورا إعْجابَها بِالوَرْدِ ، وَقَرَّبَتْها مِنْ أنْفِ كَلْبِها ، قائِلَةً : « تَشَمَّمْ هذا الوَرْدَ الجَميلَ يا جيپ . أ لَيْسَ أريجُهُ عِطْرًا ساحِرًا ؟ »

وَيَبْدو أنَّ الوَرْدَ لَمْ يَرُقْ جيپ ، فَقَدْ أخَذَ يَقْضُمُهُ وَيُذَرّي أوْراقَهُ . وَهُنا صاحَتْ دورا في وَجْهِهِ ، قائِلَةً : « كُفَّ عَنْ هَذا السُّخْفِ يا جيپ ، وَلا تَعْبَثْ بِهَذِهِ الأزْهارِ السّاحِرَةِ الَّتي أهْدانيها السَّيِّدُ كوپرفيلد ! »

سُرِرْتُ كَثيرًا لإعْجابِها بِالوَرْدِ ، وَتَمَنَّيْتُ لَوْ أنَّها تُعْجَبُ بي قَدْرَ إعْجابِها بِهَدِيَّتي المُتَواضِعَةِ ، غَيْرَ أنَّني خَجِلْتُ حينَئِذٍ مِنْ أنْ أُفْضِيَ إلَيْها بِمَشاعِري وَأفْكاري .

كانَ مُقَرَّرًا أنْ تُقامَ الحَفْلَةُ في الخَلاءِ . وَسَرْعانَ ما خَرَجَتِ الجَماعَةُ مُنْطَلِقَةً إلى الرِّيفِ البَديعِ السّاحِرِ . وَرَكِبَتْ دورا مَعَ والِدِها وَصَديقَتِها جوليا إحْدى العَرَباتِ ، عَلى حينَ امْتَطَيْتُ جَوادًا وَسِرْتُ بِهِ إلى جانِبِ العَرَبَةِ . وَتَرَجَّلْنا عِنْدَ غابَةٍ صَغيرَةٍ مِنَ الأشْجارِ الباسِقَةِ ، ثُمَّ جَلَسْنا مُنْتَشِرينَ عَلى حافَةِ حَقْلٍ فَسيحٍ يَتَرامى نَحْوَ تِلالٍ بَعيدَةٍ داكِنَةِ اللَّوْنِ . وَأخَذْنا نَتَناوَلُ ما في جَعْبَتِنا مِنْ طَعامٍ عَلى حينِ كُنّا نَتَطَلَّعُ في انْبِهارٍ إلى تِلْكَ التِّلالِ الشّامِخَةِ المَهيبَةِ ، وَنَسْتَرْوِحُ في تَلَذُّذٍ وَاسْتِرْخاءٍ عَبيرَ الحَقْلِ الرَّحْبِ المُمْتَدِّ أمامَنا ، وَالَّذي كانَ يَغَصُّ

بِالزُّهورِ والرَّياحين .

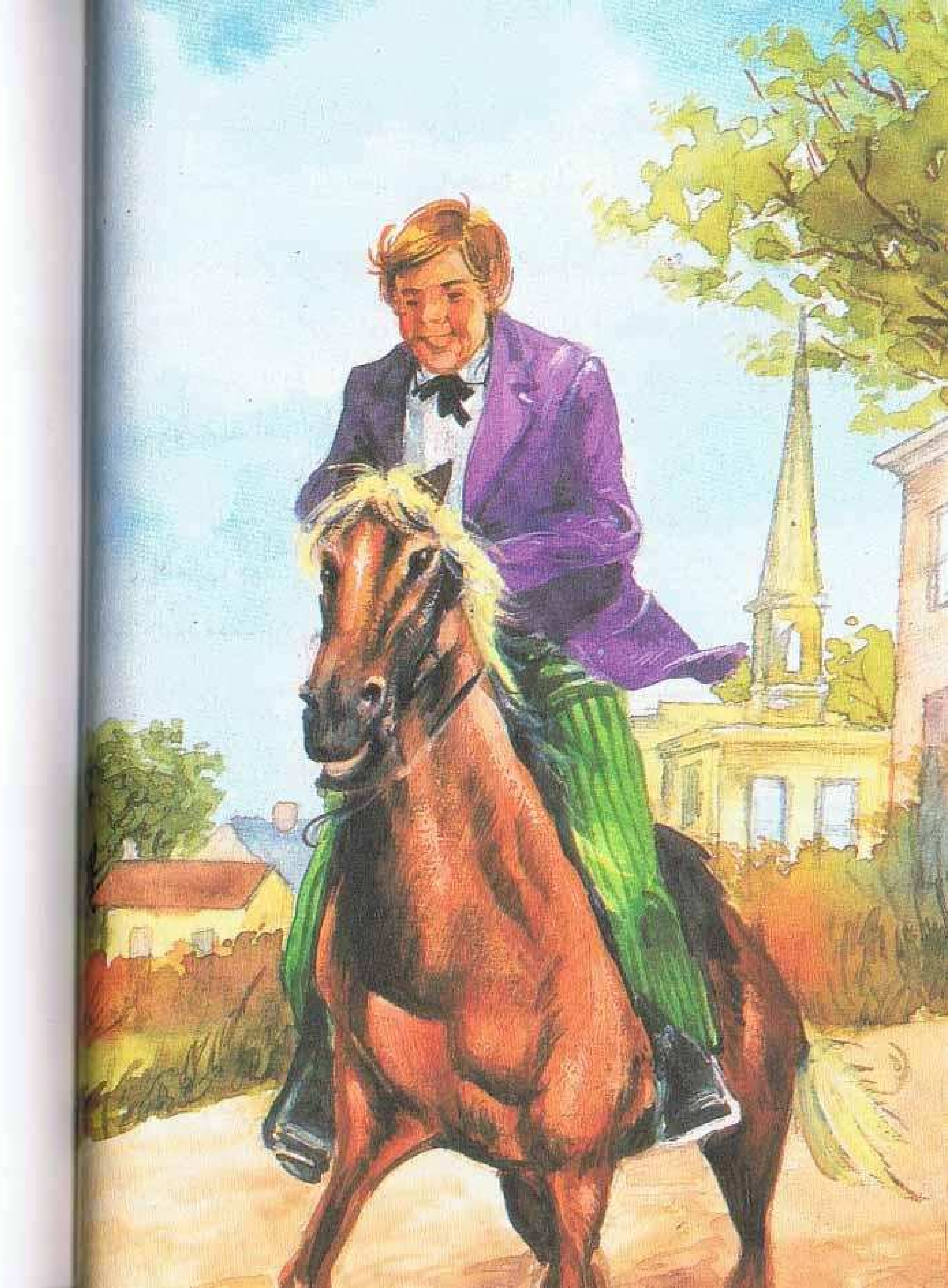
كانَ يَوْمًا رائِعًا أَمْضَيْناهُ في كَنَفِ الطَّبيعَةِ الرَّائِعَةِ الخَلّابَةِ ، لكِنَّهُ لَمْ يَخْلُ مِنْ بَعْضِ الكَدَرِ ؛ فَقَدْ جَلَسَ شابٌّ إلى جانِبِ دورا ، واسْتَأْثَرَ بِالحَديثِ مَعَها مُعْظَمَ الوَقْتِ . وأَخَذَتْ دورا تَتَباسَطُ مَعَ هذا الشّابِّ ، فَشَعَرْتُ بِغَيْرَةٍ شَديدَةٍ ، وَشَرَعْتُ بِدَوْري أَتَحَدَّثُ إلى فَتاةٍ جَميلَةٍ كانَتْ تَجْلِسُ إلى جِواري . وَما إِنْ وَقَعَ نَظَرُ دورا عَلَيْنا حَتّى كَفَّتْ عَنِ الضَّحِكِ وَانْصَرَفَتْ عَنْ جارِها الشّابِّ ، فاسْتَعَدْتُ بَهْجَتي وَحُبوري . وَبَعْدَ أَنْ فَرَغْنا مِنْ تَناوُلِ الطَّعامِ ، اصْطَحَبَتْ دورا صَديقَتَها جوليا ، ويَمَّمَتا نَحْوي .

قالَتْ لي جوليا : « إِنَّ دورا غاضِبَةٌ مِنْكَ . »

أَجَبْتُها سائِلاً : « لِماذا ؟ »

انْبَرَتْ دورا قائِلَةً : « لأَنَّكَ كُنْتَ تَتَحَدَّثُ طيلَةَ الوَقْتِ إلى الآنِسَةِ كِتْ ، مُتَجاهِلاً وُجودي ! »

« وأَنْتِ كُنْتِ مُنْهَمِكَةً في الحَديثِ إلى ذَلِكَ الشّابِّ ، وَلَمْ تُلْقي بالاً إِلَيَّ . يَبْدو أَنَّهُ أَكْثَرُ وَسامَةً مِنّي وأَكْثَرُ جاذِبِيَّةً في نَظَرِكِ ؛ فَلَقَدْ رَأَيْتُكِ تَطْرَبينَ لِحَديثِهِ ، وتَضْحَكينَ عِدَّةَ مَرّاتٍ . »



عِنْدَئِذٍ أَسْرَعَتْ دورا بِالقَوْلِ : « مَعْذِرَةً لِما حَدَثَ ! وَالآنَ ، هيَّا اجْلِسْ إِلى جانِبي ، وَتَحَدَّثْ إِليَّ . »

وَقَضَيْنا بَقِيَّةَ الوَقْتِ في سَمَرٍ عَذْبٍ وَغِناءٍ جَميلٍ . ثُمَّ حانَ مَوْعِدُ الأَوْبَةِ ، فَرَكِبْتُ جَوادي وَسِرْتُ بِهِ إِلى جانِبِ عَرَبَتِها الخاصَّةِ . وَغَلَبَ النُّعاسُ السَّيِّدَ سبينلو ، فاسْتَطَعْتُ أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَيْها بِحُرِّيَّةٍ تامَّةٍ في أَثْناءِ السَّيْرِ . وَهكَذا نَعِمْتُ بِرِحْلَةٍ سَعيدَةٍ لِلْغايَةِ .

وَلكِنْ ما إِنْ وَصَلْنا إِلى مَنْزِلِها حَتّى اعْتَراني الحُزْنُ مَرَّةً أُخْرى ؛ فَقُلْتُ لَها في اكْتِئابٍ : « يَجِبُ أَنْ أَعودَ الآنَ أَدْراجي إِلى البَيْتِ . مَتى سَنَتَقابَلُ ثانِيَةً يا دورا ؟ »

أَجابَتْ في رَنَّةِ أَسًى : « لَسْتُ أَدْري ! »

وَلكِنَّ الآنِسَةَ جوليا انْبَرَتْ قائِلَةً في صَوْتٍ خَفيضٍ : « أَصْغِ جَيِّداً إِلى ما سَأَقولُ ، يا سَيِّدُ كوبرفيلد . سَتَأْتي دورا إِلى مَنْزِلي يَوْمَ الأَحَدِ القادِمَ ، وَتَسْتَطيعُ عِنْدَئِذٍ أَنْ تَراها هُناكَ . لَنْ تَكونَ الآنِسَةُ مِرْدِسْتُون بِرُفْقَتِها في هذا اليَوْمِ . تَذَكَّرْ يَوْمَ الأَحَدِ القادِمَ في مَنْزِلي . »

شَكَرْتُ الآنِسَةَ مِلز بِحَرارَةٍ ، وَقَفَلْتُ عائِداً إِلى بَيْتي عَلى صَهْوَةِ

الجَوادِ ، وَأَنا أَضْحَكُ وَأُغَنّي في سَحابَةٍ مِنَ السَّعادَةِ .

وَفي المَوْعِدِ المُحَدَّدِ ، قَصَدْتُ مَنْزِلَ الآنِسَةِ جوليا ، فَفَتَحَتْ لِيَ الخادِمُ البابَ .

سَأَلْتُها : « هَلِ السَّيِّدُ مِلز في الدّاخِلِ ؟ »

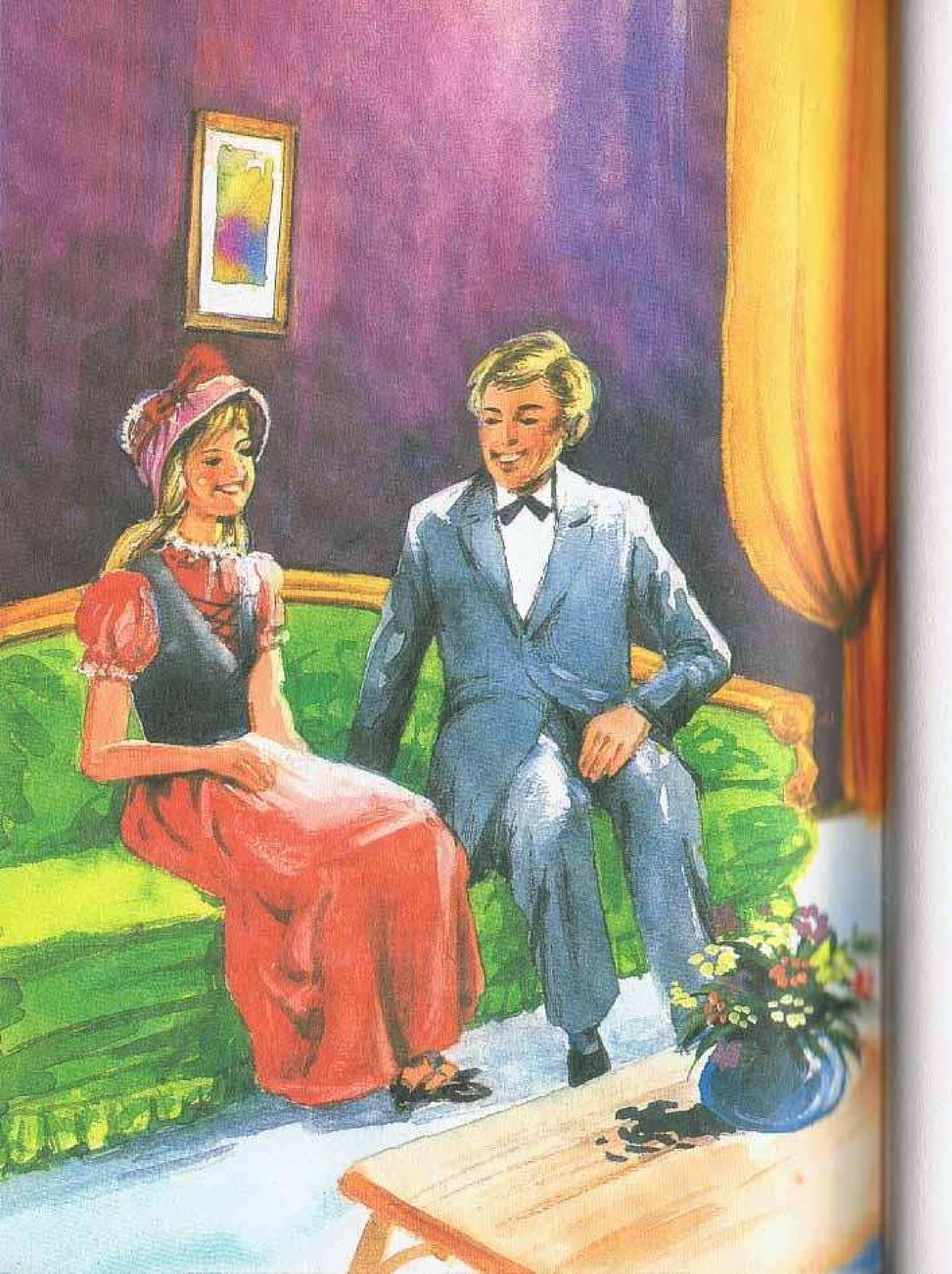
« لا ، وَلكِنَّ الآنِسَةَ مِلز مَوْجودَةٌ . تَفَضَّلْ بِالدُّخولِ . »

وَتَبِعْتُ الخادِمَ عَبْرَ السُّلَّمِ الدّاخِلِيِّ إِلى الطّابَقِ الثّاني . كُنْتُ أَحْمِلُ في جَيْبي خاتَماً ثَميناً اشْتَرَيْتُهُ لِدورا ، وَكانَتْ تَتَوَسَّطُ الخاتَمَ فُصوصٌ مِنَ الماسِ الأَزْرَقِ البَرّاقِ ، وَلكِنَّ عَيْنَيْ حَبيبَتي كانَتا أَشَدَّ زُرْقَةً وَصَفاءً مِنْ تِلْكَ الفُصوصِ الرّائِعَةِ البَرّاقَةِ .

كانَتْ جوليا تَجْلِسُ مَعَ ضَيْفَتِها في إِحْدى الحُجُراتِ ، وَلكِنْ ما إِنْ دَخَلْتُ الحُجْرَةَ حَتّى غادَرَتْها ، وَتَرَكَتْني مَعَ دورا مُنْفَرِدَيْنِ .

غَشِيَني وَجَلٌ وَارْتِباكٌ ، فَجَلَسْتُ عَلى مَبْعَدَةٍ مِنْها أَوَّلَ الأَمْرِ ، وَأَخَذْتُ أُفَكِّرُ كَيْفَ أُصارِحُها بِحُبّي ، وَأَطْلُبُ يَدَها لِلزَّواجِ .

وَلَحَظَتْ هِيَ ذلِكَ ، فَشَجَّعَتْني بِابْتِسامَةٍ عَذْبَةٍ ، ثُمَّ نَظَرَتْ لي بِطَرْفِها السّاحِرِ نَظْرَةً ذاتَ مَغْزًى . وَكانَتْ نَظْرَتُها حُلْوَةً رَقيقَةً ، جَيّاشَةً بِالحُبِّ وَالعاطِفَةِ ، فَلَمْ أَمْلِكْ نَفْسي مِنَ الانْدِفاعِ نَحْوَها ،



وتناوَلْتُ يَدَها قائلاً : « دورا ، إنّني أحِبُّكِ . هَلْ تَقبلين الزّواج بي ؟»

أجابَتْ في رِقَّةٍ وعُذوبَةٍ : « وَأنا أحِبُّكَ كَذَلِكَ يا داڤيد ! أجَلْ، سَوْفَ أقْبَلُ الزَّواجَ بِكَ .»

اسْتَطْرَدْتُ قائِلاً : « لَقَدِ اشْتَرَيْتُ لَكِ خاتَماً بَديعاً . دَعيني أضَعْهُ في إصْبَعِكِ الجَميلَةِ ، لِيَكونَ رَمْزاً لِما يَرْبطُ بَيْنَنا مِنْ حُبٍّ وَ وَفاءٍ أبَدِيٍّ .»

وَألْبَسْتُها الخاتَمَ قائِلاً : « وَالآنَ ، وَأنْتِ تَضَعينَ خاتَمي في إصْبَعِكِ ، تَذَكَّري دائِماً أنَّكِ سَتَكونينَ زَوْجَتي في المُسْتَقْبَلِ .»

قالَتْ : « وَلكِنْ لا بُدَّ مِنْ إخْفاءِ الأمْرِ عَنْ أبي في الوَقْتِ الحاضِرِ .»

سَأَلْتُ في دَهْشَةٍ : « لِماذا ؟»

أجابَتْ في رِقَّةٍ وَ دَلالٍ : « لأنَّهُ سَوْفَ يَغْضَبُ إذا عَلِمَ بِأنَّني وَعَدْتُكَ بِالزَّواجِ ، دونَ الرُّجوعِ إلَيْهِ .»

قُلْتُ في اسْتِسْلامٍ : « حَسَنٌ ، لِيَكُنْ ما تُريدينَ .»

لَمْ أَرَ دورا كَثيراً بَعْدَ ذَلِكَ اليَوْمِ ، غَيْرَ أَنَّنا تَبادَلْنا عِدَّةَ خِطاباتٍ. وَلَقَدْ عِشْتُ حينَئِذٍ فَتْرَةً مِنْ أَسْعَدِ فَتَراتِ حَياتي ، بَلْ كُنْتُ إِخالُني ، في تِلْكَ الأَيّامِ ، أَسْعَدَ رَجُلٍ في العالَمِ !

الفصل الحادي عشر

وَقَعَتْ في تِلْكَ الأَثْناءِ أَحْداثٌ غَريبَةٌ أَثارَتْ قَلَقي واضْطِرابي ؛ فَقَدْ ظَهَرَ السَّيِّدُ ميكاوْبر مَرَّةً أُخْرى في لندن . وَعِنْدَما ذَهَبْتُ لِزِيارَتِهِ ذاتَ مَساءٍ ، أَلْفَيْتُهُ في قِمَّةِ الجَذَلِ وَالانْشِراحِ ، وَقالَتْ لِيَ السَّيِّدَةُ زَوْجَتُهُ ، وَهِيَ تَضْحَكُ في فَرَحٍ عارِمٍ : « سَوْفَ نَذْهَبُ إِلى كانْتربري في الغَدِ . لَقَدْ واتانا الحَظُّ آخِرَ الأَمْرِ ! »

سَأَلْتُ السَّيِّدَ ميكاوْبر : « بِماذا سَتَشْتَغِلُ في كانْتربري ؟ »

أَجابَ في زَهْوٍ وَفَخارٍ : « لَقَدِ اسْتَدْعاني السَّيِّدُ هيپ لأَعْمَلَ مَعَهُ هُناكَ . »

صِحْتُ في دَهْشَةٍ وَاسْتِغْرابٍ : « هيپ ؟ يُرْيا هيپ ؟ »

قالَ الرَّجُلُ ، وَقَدِ ارْتَسَمَتْ عَلى وَجْهِهِ ابْتِسامَةٌ سَعيدَةٌ : « أَجَلْ .

إنَّهُ عَمَلٌ طَيِّبٌ لِلْغايَةِ ، وَقَدْ يَنْتَهي بي إلى أَنْ أُصبِحَ مُحامِياً يَوْماً ما .»

وَعُدْتُ إلى مَنْزِلي حائِراً مُنْقَبِضَ الصَّدْرِ ، وَقَدْ تَمَلَّكَني إحْساسٌ كَئيبٌ بِأَنَّ الرَّجُلَ قَدْ وَقَعَ في حَبائِلِ يُرْيا الماكِرِ اللَّئيمِ ، وَأَنَّهُ سَيَكونُ مَطِيَّةً لِتَحْقيقِ أَهْوائِهِ الغادِرَةِ وَمَآرِبِهِ الدَّنيئَةِ .

وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ أَذْهَلَتْني مُفاجَأَةٌ أُخْرى في اليَوْمِ التَّالي ؛ فَلَقَدْ عُدْتُ إلى مَنْزِلي في مَساءِ ذَلِكَ اليَوْمِ لأَجِدَ عَمَّتي بِتْسي تروتوود جالِسَةً في انْتِظاري . وَعانَقْتُها في شَوْقٍ بالِغٍ ، وَقُلْتُ لَها في سُرورٍ طاغٍ : « أَيُّ ريحٍ طَيِّبَةٍ حَمَلَتْكِ إلى هُنا يا عَمَّتاهُ ! لَقَدْ فاجَأْتِني بِهَذِهِ الزِّيارَةِ ، فَأَنا أَعْلَمُ أَنَّكِ تَكْرَهينَ ضَوْضاءَ لندن وَلا تُحِبِّينَ الارْتِحالَ إلَيْها !»

تَطَلَّعَتْ إلَيَّ في حُزْنٍ شَديدٍ ، فَصِحْتُ قائِلاً : « ماذا حَدَثَ يا عَمَّتي ؟ بِرَبِّكِ خَبِّريني !»

أجابَتْ ، وَالأَسى يُطِلُّ مِنْ عَيْنَيْها : « إنَّني عَجوزٌ حَمْقاءُ يا داڤيد! عَجوزٌ حَمْقاءُ !»

« ماذا ؟»

« لَقَدْ خَسِرْتُ كُلَّ نُقودي وَأَصْبَحْتُ مُفْلِسَةً تَماماً . هَلْ يُمْكِنُ أَنْ أَعيشَ مَعَكَ في هَذا المَسْكَنِ ؟»

أَجَبْتُ في ذُهولٍ : « بِالطَّبْعِ يا عَمَّتي العَزيزَةَ . أَرْجوكِ أَنْ تَفْعَلي ذَلِكَ .»

وَتَناوَلْنا مَعاً طَعامَ العَشاءِ ، ثُمَّ ذَهَبَتِ العَمَّةُ لِتَنامَ ، وَذَهَبْتُ إلى فِراشي بَعْدَ قَليلٍ ، غَيْرَ أَنَّ الكَرى لَمْ يُراوِدْ جَفْنَيَّ . لَقَدْ أَصْبَحْتُ الآنَ فَقيراً بَعْدَ أَنْ أَفْلَسَتْ عَمَّتي . هَلْ يُمْكِنُ لِشابٍّ فَقيرٍ مِثْلي أَنْ يَتَزَوَّجَ بِدورا ؟ إنَّ أَباها سَوْفَ يَرْفُضُ بِالتَّأْكيدِ . وَلَكِنْ هَلْ تَقْبَلُ دورا أَنْ تَتَزَوَّجَني وَأَنا شابٌّ فَقيرٌ ؟ قَدْ تَقْبَلُ إذا كانَتْ تُحِبُّني ، فَهِيَ فَتاةٌ رَقيقَةٌ حالِمَةٌ ، كَما أَنَّني سَأَعْمَلُ وَأُكافِحُ لِلْحُصولِ على المالِ اللاَّزِمِ . وَلَكِنَّني لَنْ أُصْبِحَ مُحامِياً يَوْماً ما .

هَكَذا تَقاذَفَتْني الأَفْكارُ حَتَّى انْبَلَجَ الصُّبْحُ . وَفي الصَّباحِ تَوَجَّهْتُ إلى مَكْتَبِ السَّيِّدِ سبينلو ، وَصارَحْتُهُ بِكُلِّ ما حَدَثَ قائِلاً : « لَقَدْ خَسِرَتْ عَمَّتي بِتْسي كُلَّ نُقودِها ، فَأَصْبَحْتُ بِالتَّالي شابًّا فَقيراً . سَوْفَ أَعْجِزُ ، لِلأَسَفِ ، عَنْ الاسْتِمْرارِ في الدِّراسَةِ وَالتَّأَهُّلِ لِمِهْنَةِ المُحاماةِ ، فَهَلْ يُمْكِنُكَ أَنْ تُعيدَ لِعَمَّتي ما دَفَعَتْهُ مِنْ نُقودٍ لِهَذا الغَرَضِ ؟»

شَرَدَ الرَّجُلُ بِفِكْرِهِ هُنَيْهَةً ، ثُمَّ قالَ : « يا لَهُ مِنْ خَبَرٍ مُزْعِجٍ ! يُمْكِنُ أنْ أُعيدَ لِعَمَّتِكَ الألْفَ جُنَيْهٍ ، عَلى سَبيلِ التَّجاوُزِ وَالاسْتِثْناءِ ، غَيْرَ أنَّ لي شَريكًا في هَذا المَكْتَبِ ، كَما تَعْلَمُ ، هُوَ السَّيِّدُ جوركنز ، وَهُوَ رَجُلٌ صَعْبُ المِراسِ ، وَلَنْ يُوافِقَ عَلى رَدِّ النُّقودِ إلى عَمَّتِكَ بِحالٍ مِنَ الأحْوالِ ! »

كُنْتُ أعْرِفُ يَقينًا أنَّ السَّيِّدَ جوركنز رَجُلٌ طَيِّبُ القَلْبِ ، وَأنَّ السَّيِّدَ سبينلو يَكْذِبُ في زَعْمِهِ لِرَغْبَتِهِ الشَّخْصِيَّةِ في اسْتِبْقائي وَعَدَمِ رَدِّ النُّقودِ ، غَيْرَ أنَّني انْصَرَفْتُ دونَ مُجادَلَتِهِ في الأمْرِ .

وَخَرَجْتُ إلى الشّارِعِ مَغيظًا مُحْنَقًا ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا نِسائِيًّا يُناديني ؛ وَتَلَفَّتُّ ، وَإذا بِأغْنيس تُطِلُّ مِنْ داخِلِ إحْدى العَرَباتِ .

قالَتْ أغْنيس : « لَقَدْ وَقَفْتُ بِالعَرَبَةِ هُنا وَقْتًا طَويلاً في انْتِظارِ خُروجِكَ مِنَ المَكْتَبِ . يُؤْسِفُني ما سَمِعْتُهُ عَنْ إفْلاسِ عَمَّتِكَ . وَلكِنَّني أُريدُ مَعْرِفَةَ شَيْءٍ هامٍّ : هَلْ أبي هُوَ الَّذي أضاعَ نُقودَ العَمَّةِ ؟ »

أجَبْتُها : « لَسْتُ أدْري عَلى وَجْهِ التَّحْديدِ ، وَلكِنْ يُمْكِنُنا الذَّهابُ إلَيْها لاسْتِجْلاءِ حَقيقَةِ الأمْرِ . »

وَانْطَلَقْنا بِالعَرَبَةِ إلى مَنْزِلي . وَقالَتْ لي أغْنيس في أثْناءِ السَّيْرِ :

« لَقَدِ انْتَقَلَتِ السَّيِّدَةُ هيب وَيُرِيا إلى مَنْزِلِنا ، وَهُما يَعيشانِ الآنَ مَعَنا تَحْتَ سَقْفٍ واحِدٍ . غَيْرَ أنَّ ما يَحْزُنُني وَيُثيرُ حَنَقي هُوَ أنَّ والِدي أضْحى تابِعًا ذَليلاً لِيُرِيا ، لا يَمْلِكُ أنْ يُعارِضَ لَهُ رَأيًا أوْ يَعْصي أمْرًا . وَمَعَ غَيْظي وَكَمَدي البالِغَيْنِ لِذَلِكَ ، فَأنَّني لَمْ أُكاشِفْ والِدي في شَيْءٍ حَتَّى الآنَ . »

وَما إنْ رَأتِ العَمَّةُ أغْنيس حَتَّى حَيَّتْها في وُدٍّ ، ثُمَّ قالَتْ : « وَلكِنْ لِماذا حَضَرْتِ إلى لندن ، يا صَغيرَتي ؟ »

قالَتْ أغْنيس : « حَضَرْتُ لأنَّني في قَلَقٍ بِشَأنِ والِدي . هَلْ يُمْكِنُني أنْ أسْألَكِ سُؤالاً ؟ »

« يُمْكِنُكِ ، بِالتَّأْكيدِ . »

« هَلْ أبي هُوَ الَّذي أضاعَ نُقودَكِ ، أمْ سِواهُ ؟ »

أجابَتِ العَمَّةُ عَلى الفَوْرِ : « لا ، لا أنا الَّتي أضَعْتُ نُقودي بِنَفْسي . لَقَدْ حاوَلَ هُوَ الإبْقاءَ عَلَيْها ، وَلكِنَّني أضَعْتُها بِحُمْقي وَجَهالَتي حَتَّى آخِرِ بِنْس . »

وَتَنَفَّسَتِ الفَتاةُ الصُّعَداءَ ، وَقالَتْ : « أشْكُرُكِ ؛ فَقَدْ أزَحْتِ كابوسًا ثَقيلاً كانَ يَجْثُمُ عَلى صَدْري . إنَّني أُعْرِبُ عَنْ أسَفي

العَميق لِخسارَتِكِ ، وَعَن استِعْدادي لِتَقْديم كُلِّ ما أَمْلِكُ مِنْ عَوْنٍ .»

والْتَفتَتْ أغْنيس إليَّ ، وَقالَتْ باهْتِمامٍ شَديدٍ : « أعرِفُ رَجُلاً لَدَيْهِ عَمَلٌ مناسِبٌ لكَ يا داقيد . هَلْ أَنْتَ عَلى اسْتِعْدادٍ لِذلِكَ ؟»

أجَبْتُها في سُرورٍ بالغٍ : « إنَّني عَلى اسْتِعْدادٍ لِبَذْلِ أقْصى جُهْدي في أيِّ عَمَلٍ شَريفٍ ، فَأنا الآنَ في حاجَةٍ ماسَّةٍ إلى النُّقودِ .»

نَظَرَتِ الفَتاةُ إليَّ في حَنانٍ ، وَقالَتْ : « أعرِفُ ذَلِكَ .» ثُمَّ أخرَجَتْ وَرَقَةً مِنْ جَيْبِ مِعْطَفِها ، وقَدَّمَتْها إليَّ قائِلَةً : « هاكَ عُنْوانَ الرَّجُلِ ، وَسَوْفَ أخْبِرُهُ اليَوْمَ بِأنَّكَ سَتَبْدأُ العَمَلَ مَعَهُ مِنَ الغَدِ .»

وَشَكَرْتُها بِحرارَةٍ ، ثُمَّ تَرَكْتُها مَعَ عَمَّتي لأزورَ دورا في مَنْزِلِ الآنِسَةِ جوليا مِلْز .

اِقْتَرَبْتُ مِنْ دورا ، وَهَمَسْتُ في أُذُنِها قائِلاً : « أنْتِ تَبْدين رائِعَةَ الحُسْنِ وَالبَهاءِ .»

وجَلَسْتُ إلى جانِبِها ، وَبَدَأتُ الحَديثَ قائِلاً : « أصْغي إليَّ جَيِّداً يا دورا ، فَسَأُفْضي إلَيْكِ بِخَبَرٍ هامٍّ .»

« أهُوَ خَبَرٌ سارٌّ ؟»

« لَيْسَ تَماماً .»

قالَتْ في دَلالٍ : « إذاً فَلا أرْغَبُ في سَماعِهِ . أريدُ أخْباراً سارَّةً مُبْهِجَةً .» ثُمَّ ضَحِكَتْ ضِحْكَةً طَويلَةً ناعِمَةً ، وأخَذَتْ تُداعِبُ كَلْبَها الصَّغيرَ .

وَاسْتَجْمَعْتُ أطْرافَ شَجاعَتي ، وقُلْتُ : « لكِنْ لا مَناصَ مِنْ أن أفْضيَ إلَيْكِ الآنَ بِالحَقيقَةِ ، وَإنْ كانَتْ مُؤْلِمَةً . دورا ، لَقَدْ أصْبَحْتُ مُفْلِساً . لَقَدْ أصبَحْتُ شحّاذاً .»

أجابَتْ ، وَهِيَ تَسْتَرْسِلُ في الضَّحِكِ : « كُفَّ عَنْ هذا المُزاحِ الثَّقيلِ يا داقيد . لَسْتَ بِشَحّاذٍ عَلى الإطْلاقِ . إنَّني أعْرِفُ الشَّحّاذينَ بِأجْسادِهِمُ النَّحيلَةِ ، و وُجوهِهِمُ المُعَفَّرَةِ القَذِرَةِ .»

قُلْتُ : « لَسْتُ أعْني أنَّني مُتَسَوِّلٌ أشْحَذُ مِنَ المارَّةِ في الطُّرُقاتِ ، وَلكِنْ أعْني أنَّني قَدْ أصْبَحْتُ فَقيراً بَعْدَ أنْ فَقَدَتْ عَمَّتي بِتْسي كُلَّ ثَرْوَتِها ، فَهِيَ الَّتي كانَتْ تُمِدُّني بِالمالِ .»

صاحَتْ دورا قائِلَةً في سَذاجَةٍ بَلْهاءَ : « فَقيرٌ ! لا تَقُلْ ذَلِكَ يا داقيد ! آه ، إنَّكَ تُخيفُني !»

أخَذْتُ أهَدِّئُ مِنْ رَوعِها قائِلاً : « لا تَخْشَيْ شَيْئاً يا دورا . لَنْ

نَعيشَ في فَقْرٍ مُدْقِعٍ ، وَلكِنّنا لَنْ نَحيا حياةَ الأَثْرياءِ .»

قَطَّبَتْ ما بَيْنَ حاجِبَيْها ، وَقالَتْ : « آه ! لا تَتَحَدَّثْ هكَذا ، يا داڤيد ! أَنْتَ تُزْعِجُني بِهَذا الكَلامِ !»

غَيْرَ أَنّني اسْتَطْرَدْتُ قائِلاً : « لا تَنْزَعِجي ، يا حَبيبَتي . دَعيني أَشْرَحْ لَكِ الأَمْرَ .»

قالَتْ وَقَدْ نَفِدَ صَبْرُها : « ماذا تُريدُ أَنْ تَقولَ ؟»

قُلْتُ ، مُحاوِلاً أَنْ أُلَخِّصَ ما يَدورُ في ذِهْني : « أَعْني أَنَّهُ لَنْ يَكونَ لَدَيْنا خَدَمٌ مِنْ أَيِّ نَوْعٍ . هَلْ تُجيدينَ الطَّهْيَ ، يا دورا ؟»

« الطَّهْيَ ؟ لا ، لا أَعْرِفُ شَيْئاً عَنْهُ !»

« ولكِنَّكِ تَسْتَطيعينَ تَعَلُّمَهُ بِالطَّبْعِ ، كَما تَسْتَطيعينَ تَعَلُّمَ الاقْتِصادَ المَنْزِلِيَّ أَيْضاً ، أَلَيْسَ كَذلِكَ ؟»

صاحَتْ بِغَضَبٍ : « لا ، لا أَسْتَطيعُ تَعَلُّمَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، كَما لا أَرْغَبُ في تَعَلُّمِهِ . آه يا داڤيد ، لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ أَنَّكَ قاسِيَ القَلْبِ هكَذا !»

وَانْفَجَرَتْ في البُكاءِ ، وَصاحَتْ مُنادِيَةً صَديقَتَها جوليا لِتَشْكُوَني

إِلَيْها . واسْتَمَعَتْ جوليا إِلى شَكْواها الغَريبَةِ ، ثُمَّ احْتَضَنَتْها وهَمَسَتْ في أُذُنِها بِبَعْضِ الكَلِماتِ ، فَهَدَأَتْ ثائِرَتُها في الحالِ . ورَغْمَ أَنّني لَمْ أَفْعَلْ ما يَسْتَوْجِبُ غَضَبَها ، إِلّا أَنّني لَمْ أَمْلِكْ نَفْسي مِنَ الانْدِفاعِ نَحْوَها وأَخْذِها بَيْنَ ذِراعَيَّ . وَقُلْتُ لَها في تَأَثُّرٍ شَديدٍ : « مَعْذِرَةً يا صَغيرَتي الجَميلَةَ المُدَلَّلَةَ . لَنْ أَكونَ سَبَباً في حُزْنِكِ بَعْدَ الآنَ ، فَأَنا أُحِبُّكِ مِنْ أَعْماقِ قَلْبي .»

أَجابَتْ دورا ، وَهِيَ تُجَفِّفُ دُموعَها : « وَأَنا أُحِبُّكَ كَذَلِكَ يا داڤيد . وَلكِنْ لا تَتَحَدَّثْ ثانِيَةً عَنْ حاجَتِكَ إِلى النُّقودِ .»

وَغادَرْتُ مَنْزِلَ جوليا مِلْز في اضْطِرابٍ شَديدٍ . وَ وَطَّدْتُ العَزْمَ عَلى العَمَلِ بِأَقْصى ما أَمْلِكُ مِنْ جَهْدٍ ، كَيْ أَكْسِبَ أَكْبَرَ قَدْرٍ مُتاحٍ مِنَ المالِ .

وَتَوَجَّهْتُ إِلى مَنْزِلِ صَديقي ترادِلْز لاسْتِشارَتِهِ في الأَمْرِ ، فَأَشارَ عَلَيَّ بِتَعَلُّمِ فَنِّ الاخْتِزالِ ؛ زاعِماً بِأَنَّهُ مِنْ أَيْسَرِ الطُّرُقِ لِلْحُصولِ عَلى الكَسْبِ . وَلَقَدْ ساعَدَني ترادِلْز كَثيراً في تَعَلُّمِ هَذا الفَنِّ .

وهكَذا كُنْتُ أَقْضي طيلَةَ النَّهارِ وَشَطْراً مِنَ اللَّيْلِ في العَمَلِ الدَّءوبِ المُتَّصِلِ . فَفي الصَّباحِ الباكِرِ كُنْتُ أَذْهَبُ إِلى عَمَلي الجَديدِ الَّذي هَيَّأَتْهُ لي أَغْنيس ، ثُمَّ مِنْهُ إِلى مَكْتَبِ السَّيِّدِ سبينْلو

حَيْثُ كُنْتُ أعملُ بقيّةَ النّهارِ . وَفي المساءِ كُنْتُ أتعلّمُ الاخْتزالَ على يدَيْ ترادلز .

وذاتَ يومٍ ، أرسلَ السيّدُ سبينلو في طلبي . كانَ جالساً في غُرفةِ مكتبِهِ ، وإلى جوارِهِ الآنسةُ مِردسْتون ، وكان الشررُ يتطايرُ مِنْ عينيْهِ .

وبادرني قائلاً في غضبٍ وانفعالٍ : « كوبرفيلد ، لقدْ خدعْتني ! والخداعُ ليسَ مِنْ شِيَمِ الكِرامِ .»

كانتْ مفاجأةً مُقلقةً فاضطربَ تفكيري ، ولَمْ أستطعْ تبيُّنَ الأمرِ في الحالِ . وصِحتُ بعدَ لأيٍ : « أنا خدعْتُكَ ؟»

وانبرتِ الآنسةُ مِردسْتون قائلةً ، وهي تلوّحُ بحزمةٍ مِنَ الخطاباتِ: « أجلْ ، لقدْ خدعْتَهُ . انظُرْ إلى هذهِ الأوراقِ . أنتَ شابٌّ شرّيرٌ .»

ثُمَّ استطردتْ قائلةً في صياحٍ : « لقدْ كُنتَ ولداً شرّيراً في الماضي ، والآنَ ها أنتَ ذا لا تزالُ على نفسِ الأخلاقِ السيّئةِ .»

قالَ السيّدُ سبينلو بصوتٍ مُرتفعٍ : « أصمُتي يا آنسةَ مِردسْتون ، ودعيني أتكلّمْ .» وأشارَ إلى الخطاباتِ قائلاً : « هلْ أنتَ الّذي كتبتَ هذهِ الخطاباتِ ، يا كوبرفيلد ؟»

« أجلْ ، إنّها خِطاباتي .»

وناولني الخطاباتِ قائلاً : « هلْ تستطيعُ أنْ تقرأَ لي ما جاءَ فيها ؟»

أجبتُهُ ، وقدِ استعدْتُ شيئاً مِنَ الثّباتِ ورباطةِ الجأشِ : « لستُ في حاجةٍ لذلكَ ، يا سيّدي ، فأنا أستطيعُ الآنَ أنْ أقولَ دونما خجلٍ أوْ حياءٍ إنّني أحبُّ دورا .»

صاحتِ الآنسةُ مِردسْتون قائلةً : « أنتَ تحبُّ دورا ؟ إنّكَ تحبُّ مالَها فحسْبُ .»

ونهرَها السيّدُ سبينلو قائلاً : « الزمي الصّمْتَ يا آنسةَ مِردسْتون !» والتفتَ نحوي قائلاً : « أنا مُستاءٌ ممّا حدثَ ، يا كوبرفيلد ! لقدْ بدوتَ لي شابّاً مُهذّباً رفيعَ الخُلُقِ ، فسمحتُ لكَ بدخولِ منزلي والتعرُّفِ على أسرتي . ولكنْ ها أنا ذا أكتشفُ – ويا للأسفِ – أنّكَ غيرُ جديرٍ بهذهِ الثّقةِ ؛ فلقدْ استبحتَ لنفسِكَ أنْ تبثَّ ابنتي الهوى والغرامَ مِنْ وراءِ ظهري . كوبرفيلد ، إنّني آمرُكَ بألا تحاولَ رؤيةَ ابنتي بعْدَ الآنَ .»

أجبتُهُ على الفورِ : « هذا ما لا أستطيعُ أنْ أعِدَ بهِ يا سيّدي ؛ فأنا وابنتُكَ متحابّانِ ، ولسوفَ يُسبّبُ الافتراقُ لكلَيْنا تعاسةً بالغةً .»

أطْرَقَ الرَّجُلُ بِرأسِهِ هُنَيْهَةً ، ثُمَّ قالَ : « أنتُما شابّانِ صَغيرا السِّنِّ ، ولَمْ تَتَمَرَّسا بَعْدُ بِالحَياةِ . سَوْفَ أُرْسِلُ دورا إلى فَرَنْسا مَرَّةً أخرى لِأُتيحَ لَكُما فُرْصَةَ التَّخلُّصِ مِنْ هَذا الوَهْمِ الَّذي يُعَشِّشُ في رَأسَيْكُما الفارِغَيْنِ ! »

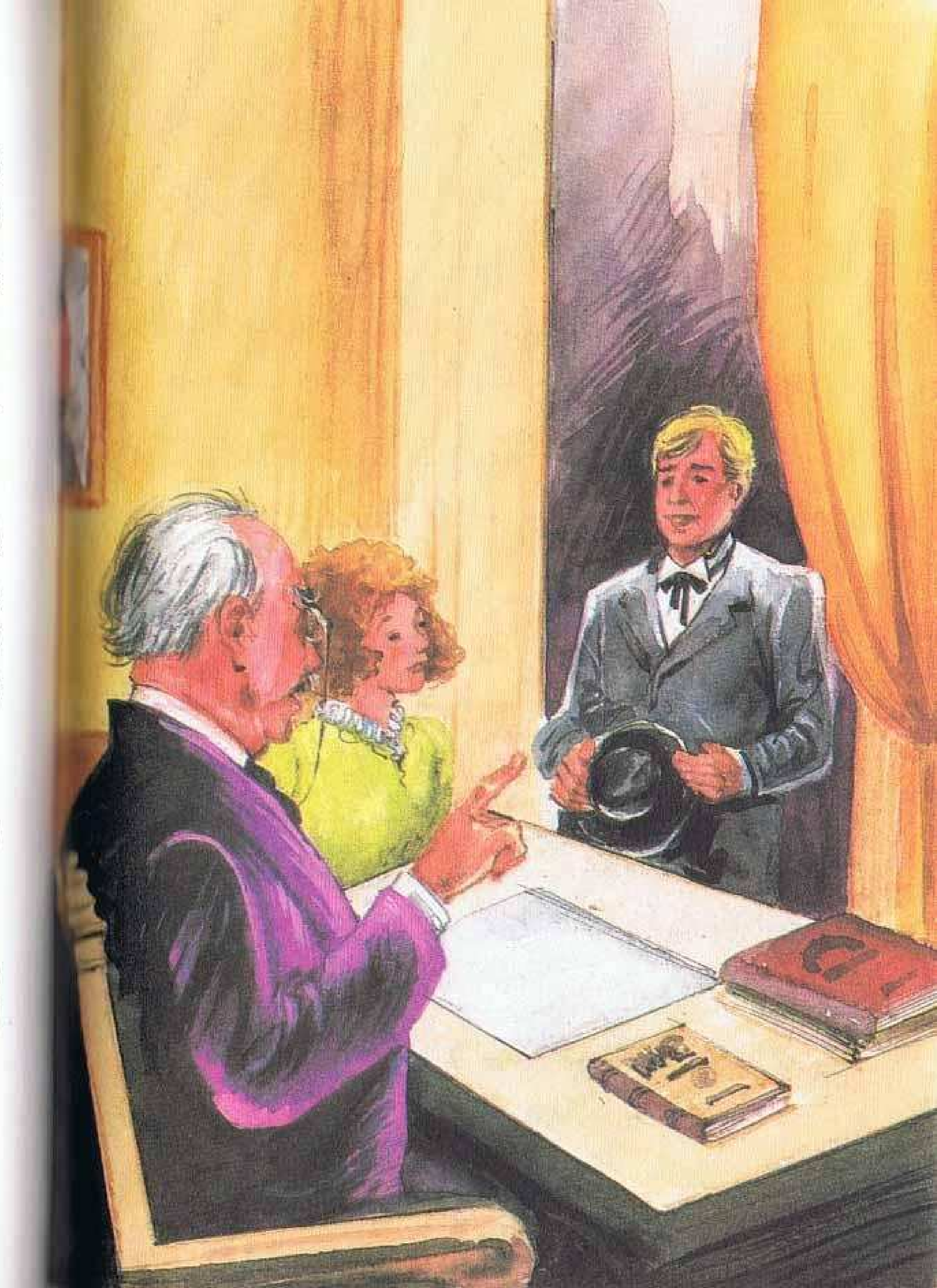
وانْدَفَعْتُ قائِلاً : « لا أسْتَطيعُ مِنْ جانِبي أنْ أنْساها ؛ فَأنا أُحِبُّها حُبًّا عَميقًا . »

صاحَ الرَّجُلُ : « هذِهِ حَماقَةٌ ، وَيَجِبُ أنْ تَنْساها . أصْغِ جَيِّدًا إلى ما سَأقولُ : لَقَدْ فَقَدَتْ عَمَّتُكَ كُلَّ أمْوالِها ، فَأصْبَحْتَ أنْتَ بِذلِكَ شابًّا فَقيرًا مُعْدِمًا ، أمَّا أنا فَرَجُلٌ غَنِيٌّ عَريضُ الثَّراءِ . لَقَدْ أوْصَيْتُ بِكُلِّ ثَرْوَتي لِدورا ، غَيْرَ أنَّني أسْتَطيعُ أنْ أُغَيِّرَ وَصِيَّتي في أيِّ وَقْتٍ أشاءُ . هَلْ فَهِمْتَ ما أعْنيهِ بِهَذا القَوْلِ ، يا كوبرفيلد ؟ »

« أجَلْ ، فَهِمْتُ . تَعْني أنَّهُ يَتَحَتَّمُ أنْ نَفْتَرِقَ ، وَإلّا حَرَمْتَها مِنَ الميراثِ . »

أجابَ السَّيِّدُ سبينلو : « هَذا ما عَنَيْتُهُ بِالضَّبْطِ . فَكِّرْ في الأمْرِ ، وَتَشاوَرْ فيهِ مَعَ عَمَّتِكَ ، فَهِيَ تَعْرِفُ الحَياةَ خَيْرًا مِنْكَ ، وتَعَلَّمْ جَيِّدًا أنَّني لَنْ أسْمَحَ بِزَواجِ ابْنَتي بِرَجُلٍ فَقيرٍ . »

قُلْتُ في غَمٍّ شَديدٍ : « سَوْفَ أُفَكِّرُ في الأمْرِ ، وَلكِنْ بِرَبِّكَ



يا سَيِّدي لا تُغْضِبْ دورا ، ولا تُسَبِّبْ لها أيَّ حُزْنٍ أوْ كَمَدٍ .»

أجابَني في اقْتِضابٍ : « لا تَقْلَقْ بِهذا الشَّأنِ . والآنَ ، يُمْكِنُكَ الانْصِرافُ .»

ذَهَبْتُ إلى مَنْزِلي مَكْروباً مَحْزونَ القَلْبِ ، وتَحَدَّثْتُ إلى عَمَّتي في الأمْرِ ، لكنَّني لم أجِدْ لَدَيْها العَوْنَ المَنْشودَ . ثُمَّ قابَلْتُ جوليا مِلز وَرَوَيْتُ لها ما حَدَثَ ، فَأبْدَتْ أسَفَها لِذلِكَ ، غَيْرَ أنَّها لَمْ تَسْتَطِعْ أنْ تُقَدِّمَ لي مُساعَدَةً فَعَّالَةً .

وَفي الصَّباحِ التَّالي ، ذَهَبْتُ إلى مَكْتَبِ السَّيِّدِ سبينْلو كالْمُعْتادِ ، فَوَجَدْتُ جَميعَ الكَتَبَةِ في حالَةِ اضْطِرابٍ شَديدٍ .

سَألْتُ في قَلَقٍ : « ما الخَطْبُ ؟»

أجابوا : « إنَّهُ السَّيِّدُ سبينْلو !»

« ماذا ؟ هَلْ هُوَ مَريضٌ ؟»

« لَقَدْ ماتَ !»

صِحْتُ في رُعْبٍ وَذُهولٍ : « ماتَ ؟ ولكِنْ كَيْفَ ؟»

أجابَ أحَدُهُمْ : « لَقَدْ جَمَحَ جَوادُ عَرَبَتِهِ فانْقَلَبَتْ بِهِ ، حينَما

كانَ عائِداً إلى بَيْتِهِ في اللَّيْلَةِ الماضِيَةِ .»

عِنْدَئِذٍ دَلَفَ السَّيِّدُ جوركنز – شَريكُ المُتَوَفَّى – إلى الحُجْرَةِ ، وَقالَ في انْفِعالٍ : « هَذِهِ أخْبارٌ سَيِّئَةٌ لِلْغايَةِ ، يا كوبرفيلد . نَحْنُ نَبْحَثُ الآنَ عَنْ وَصِيَّةِ السَّيِّدِ سبينْلو ، وَلكِنْ يَبْدو أنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ كَتَبَها بَعْدُ .»

أجَبْتُ عَلى الفَوْرِ : « بَلْ لَقَدْ كَتَبَها بِالفِعْلِ ، يا سَيِّدُ جوركنز . لَقَدْ تَحَدَّثَ إليَّ أمْسِ في شَأنِها .»

قالَ أحَدُ الكَتَبَةِ : « وَلكِنَّنا لَمْ نَجِدْها في أيِّ مَكانٍ .»

كانَ يَوْماً كَئيباً . وَلَقَدْ تَألَّمْتُ كَثيراً لِما لَحِقَ بِدورا ، وَلكِنَّني لَمْ أسْتَطِعْ أنْ أراها ؛ إذْ كانَتْ قد رَحَلَتْ إلى عَمَّتَيْها في مَدينَةِ بُتْني ، كَما كانَتْ في حالَةٍ من الحُزْنِ لا تَمْلِكُ مَعَهُ أنْ تُفَكِّرَ في شَيْءٍ عدا مُصابِها الفادِحِ .

وَلَمْ يَعْثُرْ مُوَظَّفو المَكْتَبِ عَلى وَصِيَّةِ السَّيِّدِ سبينْلو ، غَيْرَ أنَّ الغُموضَ لَمْ يَلْبَثْ أنْ تَكَشَّفَ بَعْدَ وَقْتٍ قَصيرٍ : لَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ ثَرِيًّا بِحالٍ ؛ فَبَعْدَ تَسْديدِ جَميعِ دُيونِهِ ، لَمْ يَتَبَقَّ لِدورا سِوى النَّزْرِ اليَسيرِ مِنَ المالِ .

وَلقَدْ ذَهَبْتُ في أثْناءِ ذَلِكَ إلى بُتْني عِدَّةَ مرَّاتٍ ، وذَرَعْتُ شَوارِعَها جيئَةً وذَهاباً دونَ أنْ تَكْتَحِلَ عَيْنايَ بِمَرْأى دورا . ولَمّا لَمْ أسْتَطِعْ رُؤْيَتَها ، حينَئِذٍ ، وَقَعْتُ فَريسَةَ القَلَق وَالهواجِسِ .

الفصل الثّاني عشر

أرْهَقَني القَلَقُ ، وَشَعَرْتُ بِحاجةٍ ماسَّةٍ إلى الرَّاحَةِ . وَلَمْ ألْبَثْ أنْ قُمْتُ بِإجازَةٍ مِنَ العَمَلِ ، وتَوَجَّهْتُ إلى مَنْزِلِ السَّيِّدِ وِكْفيلد في كانْتِربري .

قُلْتُ لأغْنيس ، بَعْدَ أنْ رَوَيْتُ لها قِصَّتي مَعَ دورا : « ماذا يُمْكِنُ أنْ أفْعَلَ الآنَ ، يا أغْنيس ؟»

صَمتَتِ الفَتاةُ هُنَيْهَةً ، ثُمَّ قالَتْ : « اُكْتُبْ خِطاباً إلى عَمَّتَيْها في بُتْني ، قُلْ لهُما فيهِ إنَّكَ تَرْغَبُ في زِيارَتِها .»

وَأعْرَبْتُ عَنْ سُروري بِهَذِهِ الفِكْرَةِ الصَّائِبَةِ ؛ ثُمَّ طَلَبَتْ مِنِّي أغْنيس أنْ أحْكِيَ لَها المَزيدَ عَنْ دورا ، فَقُلْتُ : « إنَّها رائِعَةُ الجَمالِ ، وَأنا أحِبُّها حُبًّا جمًّا ، غَيْرَ أنَّها شَديدَةُ الإسْرافِ ، كَما أنَّها لا تَعْرِفُ شَيْئاً عَنِ الطَّهْيِ ، وَعَنْ تَدْبيرِ شُئونِ المَنْزِلِ .»

ضَحِكَتْ أغْنيس ، ثُمَّ قالَتْ : « لا تَقْلَقْ بِهَذا الخُصوصِ ، فَإنَّ دورا ما زالَتْ صَغيرَةَ السِّنِّ ، وَلَسَوْفَ تَتَعلَّمُ قَريباً كُلَّ ما تَجْهَلُ مِنْ هَذِهِ الأشْياءِ . »

شَكَرْتُ صَديقَتي الطَّيِّبَةَ عَلى نَصيحَتِها المُخْلِصَةِ ، ثُمَّ اسْتَطْرَدْتُ قائِلاً : « إنَّكِ تُساعِدينَني كَثيراً ، يا أغْنيس . أنْتِ أخْلَصُ وَأعَزُّ أصْدِقائي قاطِبَةً . »

وَرَمَقَتْني الفَتاةُ بِنَظْرَةٍ رَقيقَةٍ حانِيَةٍ ، ثُمَّ ابْتَسَمَتْ قائِلَةً : « وَلَسَوْفَ أظَلُّ صَديقَتَكَ الوَفِيَّةَ ، وَأُقَدِّمُ لَكَ العَوْنَ طَوالَ حَياتي . »

وَفي المَساءِ ، صَعِدْتُ إلى غُرْفَةِ أغْنيس ، وَأخَذْنا نَتَحَدَّثُ مَعاً . وَلكِنَّ السَّيِّدَةَ هيپ لازَمَتْنا طَوالَ الوَقْتِ ؛ فَلَمْ تُتَحْ لَنا فُرْصَةُ الكَلامِ عَلى انْفِرادٍ . وَشَعَرْتُ بِالغَضَبِ لِذَلِكَ ، غَيْرَ أنَّني كَتَمْتُ هَذا الشُّعورَ لِعِلْمي بِأنَّ أغْنيس وَأباها يَتَجَنَّبانِ الاصْطِدامَ بِيُرْيا وَأُمِّهِ . وَلكِنْ ما إنْ جاءَتِ السَّيِّدَةُ هيپ وَجَلَسَتْ مَعَنا في اليَوْمِ التّالي كَذَلِكَ ، حَتّى اسْتَأْذَنْتُ في الخُروجِ ، وَغادَرْتُ المَنْزِلَ في غَضَبٍ .

وَلَمْ يَلْبَثْ يُرْيا أنْ لَحِقَ بي قائِلاً : « إلى أيْنَ أنْتَ ذاهِبٌ يا سَيِّدُ داڤيد ؟ » أجَبْتُهُ في امْتِعاضٍ : « أنا خارِجٌ لِلتَّرَيُّضِ ؛ فَإنَّ أُمَّكَ تُلاحِقُني ، وَلا تُتيحُ لي فُرْصَةَ الحَديثِ مَعَ أغْنيس مُنْفَرِدَيْنِ ! »

« أعْرِفُ ذَلِكَ . »

« لِماذا تُراقِبُنا السَّيِّدَةُ هيپ ؟ »

أغْمَضَ الفَتى عَيْنَيْهِ الحَمْراوَيْنِ ، وَالْتَوى الْتِواءَتَهُ المَقيتَةَ المَعْهودَةَ ، ثُمَّ قالَ : « آهٍ يا سَيِّدُ داڤيد ! الكُلُّ يَعْلَمُ أنَّكَ شابٌّ وَسيمٌ جَذّابٌ . »

« وَلكِنْ لِماذا تُراقِبُنا أُمُّكَ ؟ »

أجابَ الفَتى في بُرودٍ : « لأنَّ أغْنيس قَدْ تَقَعُ في حُبِّكَ . لأنَّكَ قَدْ تَتَطَلَّعُ إلى الزَّواجِ بِأغْنيس . »

صِحْتُ : « أتَزَوَّجُ بِأغْنيس ؟ وَلكِنْ كَيْفَ وَأنا أُحِبُّ دورا ، وَأعْتَزِمُ الزَّواجَ بِها ؟ »

سَألَ الفَتى في لَهْفَةٍ : « دورا ؟ وَمَنْ تَكونُ دورا هَذِهِ ؟ »

وَحَكَيْتُ لَهُ قِصَّةَ حُبّي في اقْتِضابٍ .

وَتَنَفَّسَ الفَتى الصُّعَداءَ ، ثُمَّ قالَ في سُرورٍ واضِحٍ : « هَذِهِ أنْباءٌ سارَّةٌ لِلغايَةِ ، يا سَيِّدُ داڤيد . سَوْفَ أذْهَبُ لأُخْبِرَ أُمّي في الحالِ . »

صِحْتُ قائِلاً عَلى الفَوْرِ : « وَلكِنَّ أغْنيس لَنْ تَتَزَوَّجَكَ أنْتَ . »

وَأغْمَضَ عَيْنَيهِ الحَمْراوَيْنِ وَفَتَحَهُما ، ثُمَّ عَقَدَ يَدَيْهِ مَعاً ، وَقالَ في

هُدوءٍ شَديدٍ : « أ تظُنُّ أنّها تَرْفُضُ الزّواجَ بي ، يا سَيِّدُ داقيد ؟»

أجَبْتُ في حَسْمٍ : « بِالتَّأكيدِ !»

وَفي ذَلِكَ المَساءِ ، تَناوَلْتُ طَعامَ العَشاءِ مَعَ السَّيِّدِ وِكْفيلد ويُرْيا ، وَأخَذَ الفَتى يُغْري السَّيِّدَ وِكْفيلد بِالشَّرابِ ، ويَملأ كَأسَهُ بِالشَّرابِ مَرَّةً تِلْوَ الأخْرى ، حَتّى ثَمِلَ الرَّجُلُ تَماماً ، في حينِ لَمْ يَتَناوَلْ هُوَ إلّا قَدْراً ضَئيلاً مِنَ الشَّرابِ .

وَقالَ الفَتى لِلسَّيِّدِ وِكْفيلد : « إنَّ أغْنيس فَتاةٌ جَميلَةٌ ولَطيفَةٌ .»

فَتَحَ الرَّجُلُ عَيْنَيْهِ ، وكَفَّ عَنِ الشَّرابِ . واسْتَطْرَدَ الفَتى قائِلاً : « سَوْفَ يَكونُ زَوْجُها رَجُلاً سَعيدَ الحَظِّ .»

رَدَّدَ السَّيِّدُ وِكْفيلد في عَجَبٍ : « زَوْجُها ؟ تَقولُ زَوْجَها ؟»

أجابَ يُرْيا : « أجَلْ ، قُلْتُ ذَلِكَ ... أ لا يُمكِنُ أنْ أكونَ أنا هَذا الزَّوْجَ السَّعيدَ ؟»

عِنْدَئِذٍ امْتَقَعَ وَجْهُ السَّيِّدُ وِكْفيلد ، وَنَهَضَ مُتَرَنِّحاً وَهُوَ يَصيحُ في غَضَبٍ شَديدٍ : « أنتَ ؟ أنْتَ زَوجُها ؟ أنْتَ ، أيُّها الكَلْبُ الحَقيرُ !»

اسْتَشاطَ الفَتى غَضَباً ، وَصاحَ في وَجْهِهِ قائِلاً : « كُفَّ عَنْ هَذا الحُمْقِ يا وِكْفيلد ! وتَذَكَّرْ أنَّكَ الآنَ في قَبْضَةِ يَدَيَّ ! إنَّني

أَسْتَطيعُ أنْ أتَزَوَّجَ بِابْنَتِكَ رَغْمَ أنفِكَ !»

أشارَ السَّيِّدُ وِكْفيلد بِإصْبَعِهِ إلى الفَتى ، وَصَرَخَ قائِلاً في غَضَبٍ عارِمٍ : « أنْتَ ؟ أنْتَ ؟»

وَهُرِعَتْ أغْنيس إلى الحُجْرَةِ قائِلَةً : « هَدِّئْ مِن رَوْعِكَ يا أبي . هيّا مَعي إلى فِراشِكَ .» ثُمَّ اصْطَحَبَتْ أباها إلى خارِجِ الحُجْرَةِ .

وَالْتَفَتَ يُرْيا إليَّ ، وَقالَ : « إنَّهُ ثَمِلٌ بِالشَّرابِ . سَوْفَ يَنْدَمُ في الغَدِ عَلى ما تَفَوَّهَ بِهِ . وَالآنَ ، أرْجوكَ أنْ تَنْسى الأمْرَ بِرُمَّتِهِ يا سَيِّدُ داقيد .»

وَلكِنَّني أعْرَبْتُ لِيُرْيا عَنْ غَضَبي لِتَهَوُّرِهِ عَلى السَّيِّدِ وِكْفيلد ، ثُمَّ تَرَكْتُهُ مُتَوَجِّهاً إلى غُرْفَتي .

وَفي الصَّباحِ التّالي ، غادَرْتُ كانْتِربري عائِداً إلى لندن . وَقُلْتُ لأغْنيس ، وَأنا أُصافِحُها لَحْظَةَ الرَّحيلِ : « وَداعاً يا أغْنيس ، وَأرْجو أنْ تَتَزَوَّجي بِرَجُلٍ شَهْمٍ كَريمٍ جَديرٍ بِحُسْنِكِ وخُلُقِكِ الرَّفيعِ .»

أجابَتْ بِقَوْلِها : « أشْكُرُكَ . لا تَقْلَقْ بِخُصوصي ، يا داقيد .»

وَلكِنَّ الحُزْنَ كانَ يُطِلُّ مِنْ عَيْنَيْها الجَميلَتَيْن .

وَما إنْ وَصَلْتُ إلى لندن حَتّى قَصَصْتُ عَلى عَمَّتي بِتْسي ما دارَ

بَيْنَ يُرْيا وَالسَّيِّدِ وِكْفيلد ، فَصاحَتْ غاضِبَةً : « يَجِبُ أَلا تَتَزَوَّجَ أغْنيس بِيُرْيا . إِنَّهُ رَجُلٌ خَبيثٌ شِرِّيرٌ .»

وَذاتَ يَوْمٍ ، كُنْتُ أَسيرُ عائِداً إِلى بَيْتي بَعْدَ الفَراغِ مِنَ العَمَلِ ، عِنْدَما لَمَحْتُ رَجُلاً واقِفاً أَمامَ أَحَدِ المَتاجِرِ. وَكانَ الرَّجُلُ هُوَ السَّيِّدَ بيغوتي .

وأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ، وعانَقْتُهُ قائِلاً : « يا لَها مِنْ مُفاجَأَةٍ ! كَيْفَ حالُكَ ، يا سَيِّدُ بيغوتي ؟»

أَجابَ : « بِخَيْرٍ ، يا سَيِّدُ داڤيد . أَشْكُرُكَ .»

« وإميلي ؟»

هَزَّ رَأْسَهُ في أَسًى ، وَقالَ : « لا توجَدُ لَدَيَّ أَيَّةُ أَخْبارٍ عَنْها .»

سَأَلْتُهُ : « وَأَيْنَ كُنْتَ خِلالَ الفَتْرَةِ الماضِيَةِ ؟»

« كُنْتُ في فَرَنْسا رَغْمَ جَهْلي بِاللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ ، وَلٰكِنَّ الفَرَنْسِيِّينَ غايَةٌ في الرِّقَّةِ واللُّطْفِ . وَلَقَدْ جُبْتُ كَثيراً مِنَ المُدُنِ هُناكَ بَحْثاً عَنِ الفَتاةِ . فَلَمّا لَمْ أَجِدْها ، عُدْتُ أُجَرْجِرُ أَذْيالَ الخَيْبَةِ إِلى إِنْجِلْترا . وَلٰكِنْ عِنْدَ عَوْدَتي إِلى يارْمَوْث ، وَجَدْتُ رِسالَةً أُرَجِّحُ أَنَّها مِنْ إِميلي ، وإِنْ لَمْ تَحْمِلْ توقيعاً ما . كانَتِ الرِّسالَةُ مِنْ

كَلِمَتَيْنِ فَقَطْ « اُعْفُ عَنّي !» وَكانَتْ بِداخِلِها وَرَقَةٌ مالِيَّةٌ قيمَتُها خَمْسونَ جُنَيْهاً .»

وَقَفَتِ امْرَأَةٌ عَلى مَقْرُبَةٍ مِنّا ، وَكَأَنَّها تُريدُ أَنْ تَتَسَمَّعَ حَديثَنا ، وَرَمَقَتْها بِنَظْرَةِ امْتِعاضٍ ، ولٰكِنَّها لَمْ تَبْتَعِدْ . وَما إِنْ نَظَرْتُ إِلى المَرْأَةِ مَلِيًّا حَتّى تَذَكَّرْتُ مَنْ تَكونُ . كانَتْ هِيَ مارْتا إِندلز .

قُلْتُ لِبيجوتي : « وَكَيْفَ حالُ هام ؟»

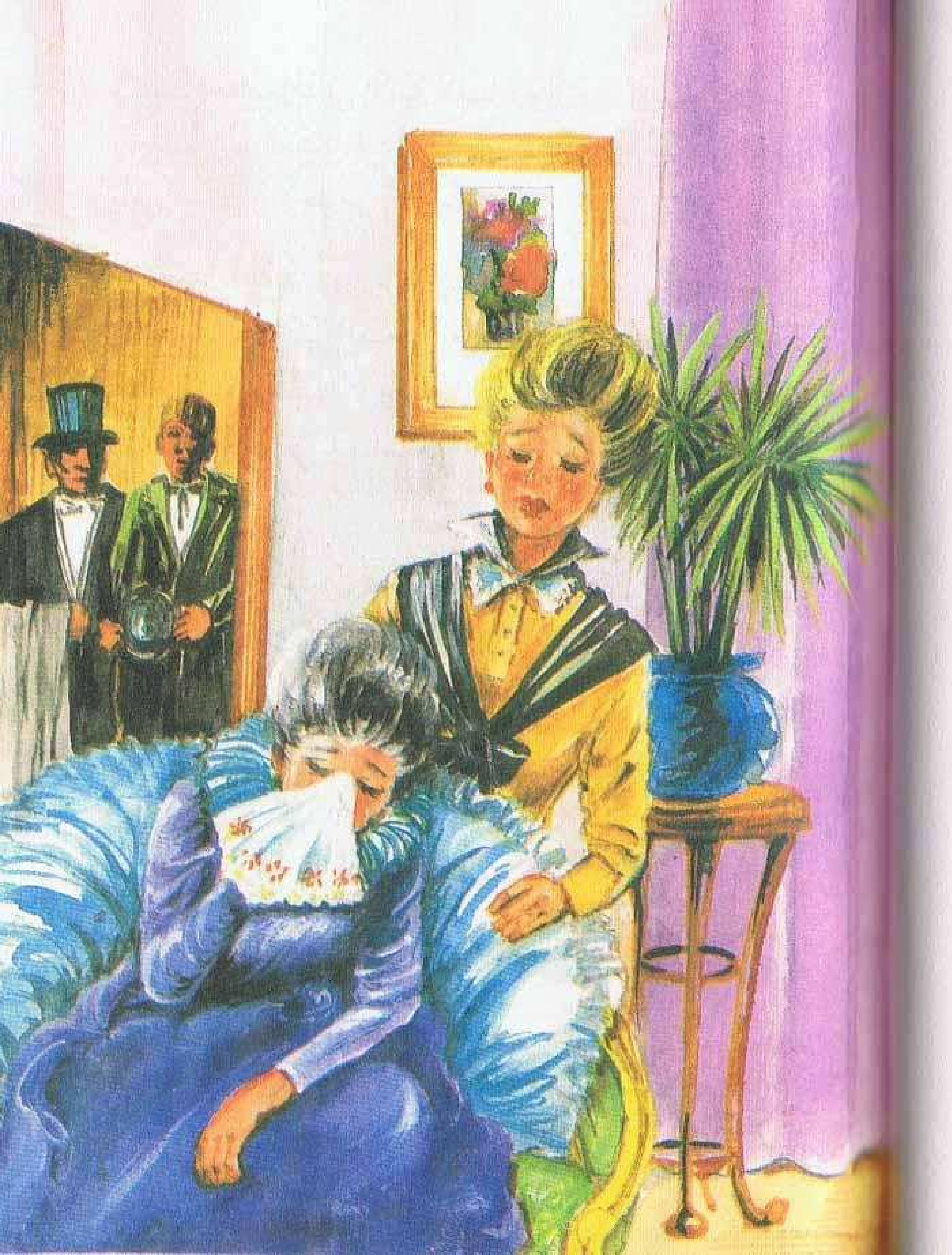
« بِخَيْرٍ ، يا سَيِّدُ داڤيد . إِنَّهُ يَعْمَلُ بِجِدٍّ وَاجْتِهادٍ ، وَلٰكِنَّهُ حَزينٌ عَلى الدَّوامِ .»

« ماذا سَتَفْعَلُ الآنَ ، يا سَيِّدُ بيجوتي ؟»

أَجابَ : « سَوْفَ أُواصِلُ البَحْثَ عَنْ إِميلي . وَالآنَ ، وَداعاً ، يا سَيِّدُ داڤيد .»

عانَقْتُهُ بِحَرارَةٍ ، وَ وَقَفْتُ أَرْقُبُهُ في حُزْنٍ وَهُوَ يَسيرُ مُبْتَعِداً دونَ أَنْ يَتَطَلَّعَ إِلى الوَراءِ . ثُمَّ تَلَفَّتُّ حَوْلي لِكَيْ أَرى مارْتا إِندلز ثانِيَةً ، وَلٰكِنَّها كانَتْ قَدِ اخْتَفَتْ تَماماً .

وَتَلَقَّيْتُ الرَّدَّ عَلى خِطابي الَّذي أَرْسَلْتُهُ إِلى عَمَّتَيْ دورا ، وَإِذا بِهِما تَدْعُوانِني إِلى زِيارَتِهِما ، عَلى أَنْ يَكونَ بِرُفْقَتي أَحَدُ



الأصْدقاءِ .

وَسَرْعانَ ما اتَّفَقْتُ مَعَ ترادِلز على أنْ نَذْهَبَ معًا إلى مَنْزِلِ العَمَّتَيْنِ . وحَدَّثَني الصَّديقُ في أثْناءِ سَيْرِنا عَنْ مَحْبوبَتِهِ الَّتي يَعْتَزِمُ الزَّواجَ بِها ، فَقالَ : « صوفي فَتاةٌ أثيرَةٌ لَدَيَّ ، وَأنا أحِبُّها كَثيرًا ، وَأريدُ الزَّواجَ بِها في أقْرَبِ وَقْتٍ . غَيْرَ أنَّها تَرْعى عِدَّةَ أخَواتٍ لها ، وَهَؤُلاءِ الأخَواتُ يَتَمَسَّكْنَ بِبَقائِها مَعَهُنَّ ، وَيُعارِضْنَ في زَواجِها بأيِّ رَجُلٍ في الوَقْتِ الرّاهِنِ .»

« وَلكِنَّها سَوْفَ تَتَزَوَّجُكَ يَوْمًا ما ، أ لَيْسَ كَذلِكَ ؟»

أجابَ ترادِلز ، وَالحُزْنُ يُطِلُّ مِنْ عَيْنَيْهِ : « لَسْتُ عَلى يَقينٍ مِنَ الأمْرِ ؛ إذْ كُلَّما سَألْتُها عَنْ مَوْعِدِ عَقْدِ القِرانِ ، أجابَتْ بِأنَّها لا تَسْتَطيعُ بَعْدُ أنْ تُحَدِّدَهُ .»

وَ واسَيْتُ صَديقي قائِلاً : « لا تَبْتَئِسْ يا ترادِلز ، فَلَسَوْفَ تَتَزَوَّجُ بِمَحْبوبَتِكَ حَتْمًا . عَلَيْكَ بِالصَّبْرِ بَعْضَ الوَقْتِ .»

عَقَّبَ ترادِلز بِقَوْلِه : « أجَلْ ، أنا وَصوفي صَغيرا السِّنِّ وَيُمْكِنُنا الانْتِظارُ .»

كانَتْ عَمَّتا دورا مُتَقَدِّمَتَيْنِ في السِّنِّ ، وَلكِنَّهُما كانَتا عانِسَيْنِ ،

وَكانَتْ إِحْداهُما تُدْعى الآنِسَةَ لافينيا ، وَالأُخْرى الآنِسَةَ كلاريسّا . وَتَحَدَّثَتْ إِلَيْنا العَمَّتانِ في أَدَبٍ جَمٍّ ، وَقالَتْ إِنَّهُ يُمْكِنُني المَجيءُ يَوْمَي السَّبْتِ وَالأَحَدِ مِنْ كُلِّ أُسْبوعٍ .

وَهكَذا أَخَذْتُ أَزورُ دورا في هَذا المَوْعِدِ مِنْ كُلِّ أُسْبوعٍ ، وكانَتْ عَمَّتي بِتْسي تَصْحَبُني في تِلْكَ الزِّياراتِ . وَلَقَدْ أُغْرِمَتْ عَمَّتي بِدورا وَعَمَّتَيْها ، وَأَصْبَحْنا جَميعاً أُسْرَةً واحِدَةً . وَتَنافَسَتِ العَمّاتُ الثَّلاثُ في إِرْضاءِ دورا وَتَدْليلِها ؛ فَلَمْ أَطْمَئِنَّ أَنا كَثيراً لِذَلِكَ .

قُلْتُ لِدورا ، ونَحْنُ نَتَجاذَبُ أَطْرافَ الحَديثِ مَعاً ذاتَ يَوْمٍ : « لَقَدِ اشْتَرَيْتُ لَكِ كِتاباً ثَميناً ، يا عزيزتي . »

« حقا ؟ أَشْكُرُكَ ، يا داڤيد ! »

« إِنَّهُ كِتابٌ في فَنِّ الطَّهْي . »

صاحَتْ : « آه ! كتابٌ في الطَّهْي ؟ »

أَجَبْتُ في هُدوءٍ : « أَجَلْ . اِقْرَئيهِ يا دورا ، وَلَسَوْفَ تُتْقِنينَ الطَّهْيَ في أَمَدٍ وَجيزٍ . »

أجابَتْ ، وَفي صَوْتِها رَنَّةُ حُزْنٍ : « حَسَنٌ ، سَوْفَ أُحاوِلُ . »

وَلَقَدْ حاوَلَتْ بالفِعْلِ . وَلَكِنْ سُرْعانَ ما تَوَقَّفَتْ ذاتَ يَوْمٍ ، وَقالَتْ في تَبَرُّمٍ وَنَفادِ صَبْرٍ : « لا أَسْتَطيعُ الاسْتِمْرارَ في هَذا العَمَلِ الصَّعْبِ . إِنَّهُ يُسَبِّبُ لي ضيقاً وَاكْتِئاباً . »

وَعِنْدَما قَدِمَتْ أَغْنيس إِلى لندن بَعْدَ ذَلِكَ ، اسْتَأْذَنَتْ في زِيارَةِ دورا . وَقالَتْ لي دورا بَعْدَ انْتِهاءِ الزِّيارَةِ : « إِنَّها فَتاةٌ رائِعَةُ الجَمالِ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

أَجَبْتُها : « أَجَلْ ، إِنَّها جَميلَةٌ وَرَقيقَةٌ لِلْغايَةِ . »

« مُنْذُ مَتى وَأَنْتَ تَعْرِفُها ؟ »

« مُنْذُ أَمَدٍ طَويلٍ . مُنْذُ أَنْ كُنّا طِفْلَيْنِ مَعاً . »

سَأَلَتْ دورا في نَبْرَةٍ غاضِبَةٍ : « إِذاً لِماذا أَحْبَبْتَني أَنا ؟ »

أَجَبْتُ في وَجْدٍ وَهُيامٍ : « لأَنَّ أَغْنيس بِمَثابَةِ أُخْتٍ لي . أَمّا أَنْتِ فَفاتِنَتي الَّتي أَذوبُ فيها حُبّاً . »

الفصل الثالث عشر

انْغَمَسْتُ في العَمَلِ بِكُلِّ اجْتِهادٍ ومُثابَرَةٍ ، وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أَحْصُلَ عَلى دَخْلٍ لا بَأْسَ بِهِ مِنَ الاشْتِغالِ بِالاخْتِزالِ . ثُمَّ كَتَبْتُ قِصَّةً وَنَجَحْتُ في بَيْعِها لأَحَدِ النَّاشِرينَ ، فَشَجَّعَني ذَلِكَ عَلى الاسْتِمرارِ في الكِتابَةِ . ومَرَّتْ بِضْعَةُ شُهورٍ ، وبَلَغْتُ الواحِدَةَ وَالعِشْرينَ مِنْ عُمْري ، فَشَرَعْتُ في عَمَلِ التَّرْتيباتِ اللَّازِمَةِ لِزَواجي بِدورا .

وَما إِنْ عَثَرتُ عَلى مَنْزِلٍ صَغيرٍ أنيقٍ حَتَّى قُلْتُ لَها : « يَجِبُ أَنْ نَبْدَأَ في تَأْثيثِ هَذا المَنْزِلِ لِيَكونَ عُشَّنا السَّعيدَ . نَحْنُ في حاجَةٍ لِمَناضِدَ ومَقاعِدَ وَأَشياءَ أُخْرى كَثيرَةٍ . »

وَتَرَدَّدْنا مَعاً عَلى مُخْتَلِفِ المَتاجِرِ ، وَلَكِنَّنا لَمْ نَشْتَرِ سِوى القَليلِ مِنَ الأَثاثِ ؛ ذَلِكَ أَنَّ دورا أَصَرَّتْ عَلى شِراءِ بَيْتٍ حَديدِيٍّ ذي أَجْراسٍ لِكَلْبِها جيب . وَقَدْ كَلَّفَني بَيْتُ الكَلْبِ هَذا مَبْلَغاً كَبيراً

مِنَ المالِ ، وكُنْتُ أُفَضِّلُ أَنْ أَشْتَرِيَ كُلَّ الأَثاثِ اللَّازِمِ لِمَنْزِلِنا عَلى أَنْ أَشْتَرِيَ بَيْتاً لِلْكَلْبِ . وَلَكِنَّ حُبِّي لِدورا حالَ دونَ أَنْ أُبْدِيَ لَها اعْتِراضاً أَوِ امْتِعاضاً .

ثُمَّ حانَ يَوْمُ الزِّفافِ . وَلا أَسْتَطيعُ تَذَكُّرَ ما حَدَثَ عَلى وَجْهِ الدِّقَّةِ ، فَلَقَدْ كُنْتُ أُحَلِّقُ في سَماءٍ مِنَ البَهْجَةِ والسَّعادَةِ ، وَأَسْبَحُ في حُلْمٍ رائِعٍ لا أَرْغَبُ في الاسْتيقاظِ مِنْهُ .

وحَمَلَتْني وَدورا عَرَبَةٌ خاصَّةٌ إلى بَيْتِنا الجَديدِ . وَما إِنْ أَصْبَحْنا مُنْفَرِدَيْنِ ، حَتَّى بادَرَتْني بِقَوْلِها : « هَلْ أَنْتَ سَعيدٌ ، يا داڤيد ؟ »

طَوَّقْتُها بِذِراعَيَّ ، وتَفَرَّسْتُ في عَيْنَيْها الزَّرْقاوَيْنِ السَّاحِرَتَيْنِ ، ثُمَّ قُلْتُ : « كُلَّ السَّعادَةِ ، يا حَياتي ! »

أَسْبَلَتْ عَيْنَيْها الجَميلَتَيْنِ ، وَقالَتْ : « الآنَ وَقَدْ أَصْبَحْتُ زَوْجَتَكَ بِالفِعْلِ ، هَلْ أَنْتَ مَسرورٌ بِذَلِكَ حَقًّا ؟ »

« أَجَلْ ، بِكُلِّ تَأْكيدٍ . »

كُنْتُ سَعيداً وَقْتَئِذٍ بِالفِعْلِ ؛ إِذْ كُنْتُ أَهيمُ بِزَوْجَتي هُياماً شَديداً . وَلَكِنْ ما هِيَ إِلَّا أَسابيعُ قَلائِلُ ، حَتَّى أَخَذْتُ أَسْتَشْعِرُ القَلَقَ وَعَدَمَ الارْتِياحِ ؛ لأَنَّ زَوْجَتي كانَتْ عاجِزَةً تَماماً عَنْ إِدارَةِ شُئونِ البَيْتِ !

كانَتْ ماري آن أوَّلَ خادِمَةٍ تَعْمَلُ في مَنْزِلنا ، وَكانَتْ سَيِّدَةً حَمْقاءَ شَديدَةَ الوَلَعِ بِالشَّراب . وَذاتَ مَساءٍ ، تَأَخَّرَ إعْدادُ العَشاءِ طَويلاً ، فَقُلْتُ لِدورا :

« لَقَدْ دَأَبَتْ ماري آن عَلى التَّأَخُّرِ في إعْدادِ الطَّعامِ ، كَما أَنَّها تُقَدِّمُ طَعاماً رَديءَ الطَّهْيِ وَالمَذاقِ . يَجِبُ أَنْ تَنْهَريها بِشِدَّةٍ عَلى ذَلِكَ ! يَجِبُ أَنْ تَقومي بِمَهامِّ رَبَّةِ البَيْتِ ! »

أجابَتْ في سُخْطٍ وَتَبَرُّمٍ : « لا يا دافيد ! لا أَسْتَطيعُ ! أنا لَمْ أُمارِسْ هَذِهِ المَهامَّ مِنْ قَبْلُ ، كَما أَنَّني أَخْشى الاحْتِكاكَ بِالخَدَمِ . لَقَدْ أَصْبَحْتَ ، يا دافيد إنْساناً فَظّاً ، غَليظَ القَلْبِ . »

وَلَمْ تَلْبَثْ أَنِ انْخَرَطَتْ في البُكاءِ ، فَصِحْتُ قائِلاً في غَيْظٍ مَكْتومٍ : « لا تَبْكي يا عَزيزَتي ، أَرْجوكِ ! سَوْفَ أَتَصَرَّفُ أنا في الأَمْرِ . »

وأَعْفَيْتُ ماري آن مِنَ العَمَلِ في التَّوِّ ، وأَحْلَلْتُ مَكانَها امْرَأَةً مُتَقَدِّمَةً في السِّنِّ . غَيْرَ أَنَّ الخادِمَةَ الجَديدَةَ لَمْ تَسْتَطِعِ النُّهوضَ بِأَعْباءِ البَيْتِ عَلى وَجْهٍ مُرْضٍ ، فَلَمْ أَجِدْ بُدّاً مِنَ الاسْتِغْناءِ عَنْها آخِرَ الأَمْرِ .

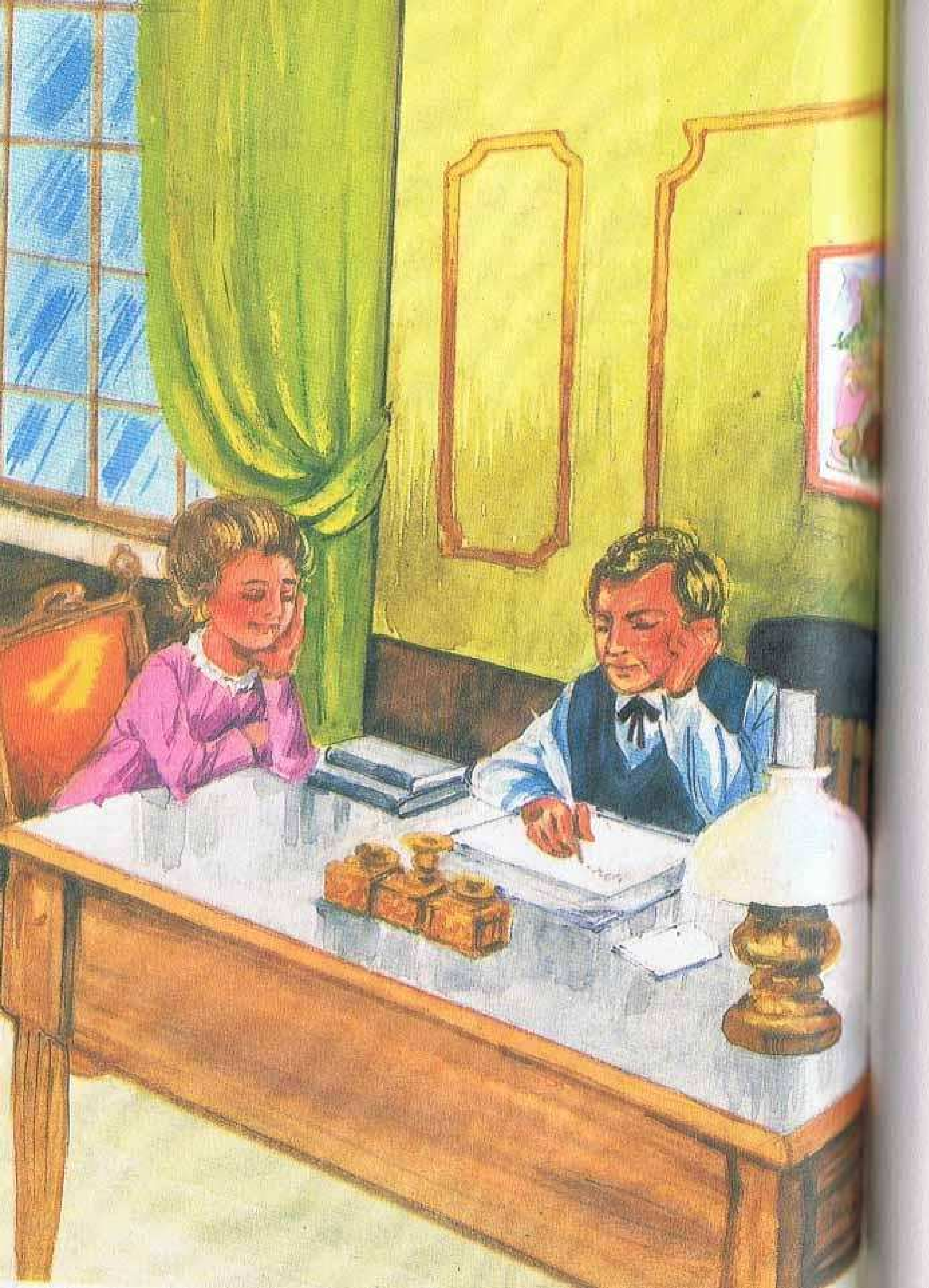
وَبالإضافَةِ إلى رَداءَةِ الطَّعامِ وَاضْطِرابِ أَحْوالِ البَيْتِ ، كانَتْ

دورا شَديدَةَ التَّبْذيرِ . وَلَقَدْ شَكَوْتُ لَها ذاتَ يَوْمٍ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، فَصاحَتْ قائِلَةً : « أَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّني رَبَّةُ بَيْتٍ فاشِلَةٌ ؛ فَأَنا لا أُجيدُ الطَّهْيَ ، وَلا خِبْرَةَ لي بِإدارَةِ شُئونِ المَنْزِلِ ، هَذا بِالإضافَةِ إلى أَنَّني مُولَعَةٌ بِالإنْفاقِ ، وَلَمْ أَعْتَدْ أَنْ أَعْمَلَ لِلْمالِ حِساباً . وَرَغْمَ كُلِّ ذَلِكَ فَقَدْ أَحْبَبْتَني ، وَكُنْتَ مُتَلَهِّفاً عَلى الزَّواجِ بي . لَكِنْ يَبْدو أَنَّكَ تَشْعُرُ الآنَ بِالنَّدَمِ عَلى ذَلِكَ . أنا حَزينَةٌ لِذَلِكَ يا دافيد ، فَأَنا ما زِلْتُ أُحِبُّكَ . »

وَتَطَلَّعَتْ إِلَيَّ في أَسًى وَعِتابٍ . وَاغْرَوْرَقَتْ عَيْناها الجَميلَتانِ بِالدُّموعِ ، فَأَسْرَعْتُ قائِلاً في حَنانٍ بالِغٍ : « لا تَبْكي يا حَبيبَتي ، أَرْجوكِ ! وَجَفِّفي دُموعَكِ عَلى الفَوْرِ ، فَأَنا ما زِلْتُ أُحِبُّكِ كُلَّ الحُبِّ ، وَلَمْ أَنْدَمْ قَطُّ عَلى زَواجي بِكِ . »

وَانْفَرَجَتْ أَساريرُها في الحالِ ، وَعادَتْ إلى طَبيعَتِها اللاّهِيَةِ المَرِحَةِ .

لَمْ أَعُدْ إلى لَوْمِ دورا لإسْرافِها ، أَوْ عَجْزِها عَنْ أَداءِ واجِباتِها المَنْزِلِيَّةِ . وَعِنْدَما تَحَدَّثْتُ إلى عَمَّتي بِتْسي في الأَمْرِ ، وَطَلَبْتُ إِلَيْها إسْداءَ النُّصْحِ إلى زَوْجَتي ، سارَعَتْ بِالقَوْلِ : « كَلاَّ يا دافيد ، لَنْ أَقَعَ في هَذا الخَطَأِ مَرَّةً أُخْرى . لَقَدْ كانَتْ أُمُّكَ عَلى شاكِلَةِ دورا ،



وَعِنْدَما لُمتُّها ذاتَ يَوْمٍ في شَيْءٍ مِنَ العُنْفِ ، كَرِهَتْني وَأَصْبَحَتْ تَتَحاشاني . أنا لا أُريدُ أَنْ أَقِفَ مِنْ زَوْجَتِكَ مَوقِفَ المُعلِّمِ ؛ خَشْيَةَ أَنْ تَتَجَنَّبَني أَوْ تَكْرَهَني . إِنَّ دورا تُحِبُّكَ بِشِدَّةٍ يا داڤيد – تَذَكَّرْ ذلِكَ . إِنَّها لَيْسَتْ ماهِرَةً في الشُّئونِ المَنْزِلِيَّةِ ، وَلكِنَّها جَميلَةٌ وَرَقيقَةٌ لِلْغايَةِ ، كَما أَنَّها تُحِبُّكَ حُبًّا جَمًّا ، وَهذا يَكْفيكَ . لا تَكُنْ غَليظًا مَعَها ، ولا تُكْثِرْ مِنْ أَوامِرِكَ وَنَواهيكَ ، حَتَّى لا تَنْفِرَ مِنْكَ ، أَوْ تَسْتَشْعِرَ التَّعاسَةَ في حَياتِها مَعَكَ .»

وَلَقَدِ اتَّبَعْتُ نَصيحَةَ عَمَّتي مُنْذُ ذلِكَ الحينِ . وَذاتَ يَوْمٍ حَضَرَ صَديقي ترادِلز لِلْعَشاءِ ، وَكانَ الطَّعامُ رَديئًا لِلْغايَةِ . وَأَسْقَطَتِ الخادِمُ بَعْضَ الأَطْباقِ عَلى الأَرْضِ ، كَما قَفَزَ كَلْبُنا المُدَلَّلُ إِلى ما فَوْقَ المائِدَةِ . وَتَمَلَّكَني الغَضَبُ لِذلِكَ ، وَإِنْ كانَ صَديقي قَدِ اسْتَمَرَّ في رِوايَةِ النِّكاتِ وَالقِصَصِ المُسَلِّيَةِ ؛ مُتَعَمِّدًا عَدَمَ إِشْعاري بِشَيْءٍ غَيْرِ عادِيٍّ .

وَبَعْدَ انْصِرافِ الضَّيْفِ ، جاءَتْ دورا وَجَلَسَتْ إِلى جانِبي في خَجَلٍ شَديدٍ ، ثُمَّ قالَتْ ، وَقَدْ كَسَتْ وَجْهَها مِسْحَةٌ مِنَ الحُزْنِ : « لَقَدْ كانَ عَشاءً رَديئًا يا داڤيد . أَعْرِفُ ذلِكَ ، وَأَشْعُرُ بِالخَجَلِ مِنْ أَجْلِهِ .»

أَجَبْتُها قائِلاً : « لا تَقْلَقي ، يا عَزيزَتي ، بِهذا الخُصوصِ .»

« وَلكِنَّني قَلِقَةٌ وَحَزينَةٌ في الواقِعِ ، فَأنا أجاهِدُ لِكَيْ أكونَ زَوْجَةً صالِحَةً ، دونَ أنْ أحَقِّقَ نَجاحاً يُذْكَرُ . إنَّني أشْعُرُ بِالتَّعاسَةِ وَالإحْباطِ ، لأنَّني لَمْ أخْلَقْ لأكونَ رَبَّةَ بَيْتٍ ماهِرَةً . ما زِلْتُ مِثْلَ طِفْلَةٍ صَغيرَةٍ مُدَلَّلَةٍ ، وَما زالَ المَنْزِلُ غَيْرَ مُريحٍ بِالنِّسْبَةِ لَكَ . لكِنْ لا تَغْضَبْ مِنّي يا حَبيبي ، وَقُلْ لِنَفْسِكَ إذا ما ساوَرَكَ الحَنَقُ : إنَّ دورا لا تَزالُ طِفْلَةً صَغيرَةً ، وَهِيَ تُحِبُّكَ أشَدَّ الحُبِّ . حينَئِذٍ سَوْفَ يَزولُ عَنْكَ غَضَبُكَ .»

عَلى أنَّني لَمْ أغْضَبْ مِنْها ألْبَتَّةَ ، وَلَمْ أكُنْ أمْلِكُ أنْ أفْعَلَ ؛ فَقَدْ كانَتْ مِثْلَ زَهْرَةٍ حُلْوَةٍ ناضِرَةٍ تَخْرُجُ مِنْ كُمِّها في مَطْلَعِ الرَّبيعِ ، كَما كانَتْ آيَةً في الرِّقَّةِ وَالعُذوبَةِ . وَلَقَدِ اكْتَفَيْتُ مِنْها بِالجُلوسِ إلى جانِبي في أثْناءِ كِتابَةِ قِصَصي في اللَّيْلِ . وَكُنْتُ أجِدُ مُتْعَةً في ذلِكَ ، رَغْمَ جَهْلِها التّامِّ بِما أفْعَلُ .

وَذاتَ يَوْمٍ ، أرْسَلَتْ روزا دارتل في طَلَبي ؛ فَهُرِعْتُ إلى مَنْزِلِ السَّيِّدَةِ ستيرفورث لِمُقابَلَتِها . وَهُناكَ فاجَأتْني بِنَبَأٍ مُذْهِلٍ : لَقَدِ انْفَصَلَتْ إميلي عَنْ ستيرفورث !

وَأسْرَعْتُ إلى حُجْرَةِ السَّيِّدِ بيغوتي في لندن . وَما إنْ أخْبَرْتُهُ بِالنَّبَأِ حَتّى هَبَّ مِنْ مَقْعَدِهِ ، وَصاحَ قائِلاً : « أحَقًّا ما تَقولُ ؟

يا لَفَتاتي الصَّغيرَةِ المِسْكينَةِ ! أيْنَ يُمْكِنُ أنْ تَكونَ الآنَ ؟»

« روزا لا تَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ ذلِكَ . كُلُّ ما تَعْرِفُهُ أنَّ إميلي قَدِ انْفَصَلَتْ عَنْ ستيرفورث ، وَأنَّها ما زالَتْ عَلى قَيْدِ الحَياةِ .»

صاحَ السَّيِّدُ بيجوتي في فَرَحٍ : « ما زالَتْ عَلى قَيْدِ الحَياةِ ! شُكْراً لِلّهِ ! وَالآنَ ، لَقَدْ تَجَدَّدَ لَدَيَّ الأمَلُ في العُثورِ عَلَيْها ، ولكِنْ أيْنَ ؟»

قُلْتُ : « لَقَدْ قَصَدَتْ أوْ سَوْفَ تَقْصِدُ لندن عَلى الأغْلَبِ ؛ إذْ يُمْكِنُ لَها التَّخَفّي في هَذِهِ المَدينَةِ الكَبيرَةِ ، لكِنَّها لَنْ تَذْهَبَ بِالقَطْعِ إلى يارْمَوْث ؛ خَجَلاً مِنْ مُواجَهَةِ النّاسِ هُناكَ !»

أجابَ الرَّجُلُ : « هَذا رَأيٌ صائِبٌ . وَلكِنَّني بَحَثْتُ عَنْها في هَذِهِ المَدينَةِ شُهوراً طِوالاً دونَ جَدْوى .»

وَفي الحالِ ، لاحَتْ في ذِهْني صورَةُ مارتا إندلز ، فَقُلْتُ لِلسَّيِّدِ بيغوتي : « هَلْ تَذْكُرُ مارتا إندلز ؟»

« أجَلْ ، أذْكُرُها . لَقَدْ ساعَدَتْها إميلي ذاتَ يَوْمٍ عِنْدَما كانَتْ تَمُرُّ بِمِحْنَةٍ .»

« إنَّها تَعيشُ في لندن الآنَ ، وَمِنَ المُمْكِنِ أنْ تَرُدَّ لإميلي

الجَميلَ .»

كانَتْ مارتا تَهيمُ في شَوارِعِ المَدينَةِ ، فَكانَ مِنَ السَّهْلِ العُثورُ عَلَيْها في زَمَنٍ وَجيزٍ . وتَبِعتُها مَعَ بيغوتي عَنْ بُعْدٍ ذاتَ لَيْلَةٍ ، وَهِيَ تَسيرُ عَبْرَ شَوارِعَ ضَيِّقَةٍ قَذِرَةٍ في اتِّجاهِ نَهْرِ التّيمز . كانَتْ تَرْتَدي مَلابِسَ رَثَّةً مُهَلْهَلَةً ، وَكانَ يُغَلِّفُ وَجْهَها حُزْنٌ صامِتٌ عَميقٌ . وما إنْ شارَفَتِ النَّهْرَ حَتّى تَوَقَّفَتْ قَليلاً ، ثُمَّ سارَتْ عَلى ضِفَّتِهِ بِضْعَ خُطُواتٍ . وَعَلى حينِ غِرَّةٍ هَمَّتْ بِإلْقاءِ نَفْسِها في الماءِ .

قَفَزْتُ نَحْوَها على الفَوْرِ ، وَجَذَبْتُها بِشِدَّةٍ مِنْ يَدِها ؛ فَصَرَخَتْ قائِلَةً : « دَعْني أَمُتْ ! دَعْني ! إنَّ النَّهْرَ يَفْتَحُ لي ذِراعَيْهِ ، وَأَنا أُريدُ أَنْ أَغيبَ في أَعْماقِهِ .»

صِحْتُ قائلاً : « مارتا ! ماذا دَهاكِ ؟»

حاوَلَتِ التَّمَلُّصَ مِنْ قَبْضَتي ، وَهِيَ تَبْكي وَتَقولُ : « دَعْني أَهْلِكُ ، فالمَوْتُ أَرْحَمُ بِشَقِيَّةٍ شِرِّيرَةٍ مِثْلي . لَقَدْ أَصْبَحْتُ مُعْدَمَةً لا أَمْلِكُ قُوتَ يَوْمي .»

وَعاوَنَني بيغوتي في حَمْلِ المَرْأَةِ بَعيداً عَنِ النَّهْرِ ، في حينِ كانَتْ تَصْرُخُ وَتَبْكي بِصَوْتٍ عالٍ .

وَلَمّا هَدَأَتْ بَعْضَ الشَّيْءِ ، أَسْرَعْتُ بِالقَوْلِ : « مارتا ، سَوْفَ نُقيلُكِ مِنْ عَثْرَتِكِ ، وَنُساعِدُكِ عَلى تَجاوُزِ مِحْنَتِكِ . هَلْ تَرْغَبينَ في مُساعَدَتِنا بِدَوْرِكِ في أَمْرٍ ما ؟»

تَطَلَّعَتْ إلى وَجْهَيْنا في حُزْنٍ ، وَقالَتْ : « مَنْ أَنْتُما ؟ وَماذا تُريدانِ مِنّي ؟»

قَدَّمْتُ إلَيْها السَّيِّدَ بيغوتي ، وَذَكَّرْتُها بِلِقائِها السّابِقِ مَعَ إميلي ذاتَ يَوْمٍ في يارْمَوْث . ثُمَّ رَوَيْتُ لَها قِصَّةَ إميلي مَعَ ستيرفورث ، وَطَلَبْتُ إلَيْها أَنْ تُساعِدَنا في البَحْثِ عَنِ الفَتاةِ .

وَبَعْدَ أَنْ فَرَغَتْ مِنَ الحَديثِ جَفَّفَتْ دُموعَها ، ثُمَّ نَهَضَتْ قائِلَةً: « لَقَدْ أَسْدَتْ إميلي إلَيَّ ذاتَ يَوْمٍ جَميلاً لَنْ أَنْساهُ . وَها أَنْتَ ذا قَدْ أَتَيْتَ اللَّيْلَةَ لِتُنْقِذَ حَياتي ، وَتُشَجِّعَني عَلى مُواصَلَةِ العَيْشِ . سَوْفَ أَجوبُ شَوارِعَ المَدينَةِ واحِداً تِلْوَ الآخَرِ ، وَأَسْأَلُ كُلَّ مَنْ أُقابِلُ مِنَ النّاسِ ، إلى أَنْ أَعْثُرَ عَلى صَديقَتي الطَّيِّبَةِ ؛ عِنْدَئِذٍ سَوْفَ أَسْتَبْقيها في حُجْرَتي ، رَيْثَما أُخْبِرُكَ بِالأَمْرِ .» فَأَعْطَيْتُها عُنْواني ، ثُمَّ شَكَرْتُها، وَقَدَّمْتُ إلَيْها مَبْلَغاً مِنَ المالِ ، غَيْرَ أَنَّها رَفَضَتْ أَخْذَهُ ، قائِلَةً : « لا لَنْ أُؤَدِّيَ هَذِهِ الخِدْمَةَ لِقاءَ ثَمَنٍ ، وَلَكِنْ رَدًّا لِصَنيعِكُما الحَميدِ .»

وَانْصَرَفْتُ مَعَ السَّيِّدِ بيغوتي ، وَقَدْ أَفْعَمَ قَلْبانا بِأَمَلٍ جَديدٍ .

الفصل الرابع عشر

أنْهَيْتُ تأليفَ كِتابِيَ الأوَّلِ ، وصادَفَ نجاحاً باهِراً ، فَكَسَبْتُ مِنْ وَرائِهِ مَبْلَغاً طائِلاً مِنَ المالِ . غَيْرَ أنَّ أحْوالي المَنْزِلِيَّةَ كانَتْ لا تَزالُ مُضْطَرِبَةً بِسَبَبِ جَهْلِ دورا بِتَدْبيرِ شُئونِ البَيْت .

كانَ لَدَيْنا خَدَمٌ كَثيرونَ ، وَكانَ مِنْ بَيْنِهِمْ غُلامٌ حُكِمَ عَلَيْهِ بِالسِّجْنِ بَعْدَ أنْ سَرَقَنا عِدَّةَ مَرّاتٍ . وَقُلْتُ لِزَوْجَتي عَشِيَّةَ دُخولِهِ السِّجْنَ : « يا عَزيزَتي دورا ، أرى أنَّ أمورَنا لا تَسيرُ كَما يَجِبُ . »

سَألَتْ في دَهْشَةٍ : « ماذا تَعْني ؟ »

« أعْنى أنَّهُ يَجِبُ أنْ نُحْدِثَ تَغْييراً ما . لَدَيْنا عَدَدٌ كَبيرٌ مِنَ الخَدَمِ ، وَلكِنَّ المَنْزِلَ ما زالَ غَيْرَ مُريحٍ . أرى أنَّ الذَّنْبَ في ذَلِكَ يَقَعُ على كاهِلَيْنا كِلَيْنا ؛ إذْ يَجِبُ أنْ يَتَعَلَّمَ كُلٌّ مِنّا كَيْفَ يُشْرِفُ عَلى أعْمالِ الخَدَمِ . »

اغْرَوْرَقَتْ عَيْنا دورا بِالدُّموعِ ، وَهِيَ تَقولُ : « لا يا داڤيد . إنَّ الذَّنْبَ في ذَلِكَ يَقَعُ عَلى كاهِلي أنا وَحْدي ، فَأنا المَسْئولَةُ بِمُفْرَدي عَنِ الإشْرافِ عَلى أعْمالِ الخَدَمِ . إنَّني أعْتَرِفُ بِتَقْصيري ، بَلْ عَجْزي . لا تَكُنْ قاسِياً عَلَيَّ ، يا داڤيد ، أرْجوكَ ! »

أجَبْتُها : « لا تَقْلَقي بِهَذا الخُصوصِ ؛ فَسَوْفَ أشْرِفُ بِنَفْسي عَلى أعْمالِ الخَدَمِ . »

وَاضْطَلَعْتُ بِالمَهَمَّةِ بِالفِعْلِ ، غَيْرَ أنَّ الحَياةَ أصْبَحَتْ شاقَّةً بِالنِّسْبَةِ إليَّ ، إذْ تَوَزَّعَتْ جُهودي بَيْنَ شُئونِ البَيْتِ وَأعْمالي الأُخْرى الخاصَّةِ . وَأخيراً قُلْتُ لِنَفْسي : « وَلكِنَّ دورا يَجِبُ أنْ تَتَغَيَّرَ كَذَلِكَ . يَجِبُ أنْ أعَلِّمَها كَيْفَ تُديرُ شُئونَ البَيْتَ . إنَّها لا تُشارِكُني المَسْئولِيَّةَ في شَيْءٍ ، وَلا تَقومُ بِما يَجِبُ عَلَيْها أنْ تَقومَ بِهِ زَوْجَةً وَشَريكَةً لِحَياتي . إنَّها تَعيشُ كَطِفْلَةٍ ناعِمَةٍ لاهِيَةٍ . » عِنْدَئِذٍ شَرَعْتُ في تَثْقيفِها بِقِراءَةِ مُخْتَلِفِ الكُتُبِ اللّازِمَةِ لَها ، لكِنَّها كانَتْ غَيْرَ راغِبَةٍ في التَّعَلُّمِ . كانَتْ تُريدُ في أعْماقِها أنْ تَظَلَّ طِفْلَةً ناعِمَةً لاهِيَةً .

وَلَمْ تَلْبَثْ أنْ حَمَلَتْ بِطِفْلٍ ، فابْتَهَجْتُ كَثيراً لِذَلِكَ ، وَقُلْتُ لِنَفْسي إنَّ الطِّفْلَ سَوْفَ يَسْتَأثِرُ بِعِنايَتِها وَاهْتِمامِها ، وَأنَّ مَشاعِرَ

الأمومةِ كَفيلةً بِأنْ تُحيلَها إلى زَوْجَةٍ قادِرَةٍ ماهِرَةٍ . غَيْرَ أنَّ الطِّفْلَ لَمْ يَلْبَثْ أنْ ماتَ بَعْدَ زَمَنٍ وَجيزٍ مِنْ وِلادَتِهِ .

وحَزِنْتُ كَثيراً لِمَوْتِ الطِّفْلِ ، كَما مَرِضَتْ دورا ولازَمَتِ الفِراشَ ، غَيْرَ أنَّها سَرْعانَ ما أبَلَّتْ مِنْ مَرَضِها ، فَعاوَدَتْها طَبيعَتُها المَرِحَةُ الطَّروبُ ، وأخَذَتْ تَقْضي مُعْظَمَ ساعاتِ النَّهارِ في أحاديثَ ضاحِكَةٍ مَعَ عَمَّتي .

قالَتْ لي ذاتَ يَوْمٍ : « أنْتَ لَسْتَ تَعيساً ، يا داڤيد ، أ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

أجَبْتُها : « تَعيساً ؟ لا يا حَبيبَتي .»

أرْدَفَتْ قائِلَةً : « لَسْتُ بِزَوْجَةٍ صالِحَةٍ . أعْرِفُ ذلِكَ ، فَأنا لا أحْسِنُ القِيامَ بِواجِباتي المَنْزِلِيَّةِ ، كَما أنَّني لا أفْهَمُ شَيْئاً مِمّا تَقْرَؤُهُ لي مِنْ كُتُبٍ . أنْتَ إنْسانٌ ذَكِيٌّ وَبارِعٌ ، في حينِ أنَّني جاهِلَةٌ وغَبِيَّةٌ . وَلكِنَّني أحِبُّكَ يا داڤيد .. أحِبُّكَ كَثيراً ، فَهَلْ ما زِلْتَ تُحِبُّني ؟»

« أجَلْ يا دورا ، وَلَسَوْفَ أظَلُّ دائِماً أحِبُّكِ .»

كُنْتُ يَوْمَئِذٍ صادِقاً فيما أقولُ ؛ إذْ كُنْتُ لا أزالُ أحِبُّها بِالفِعْلِ .

غَيْرَ أنَّ حَياتي كانَتْ كَئيبَةً وخاوِيَةً ؛ لأنَّ دورا كانَتْ عاجِزَةً تَماماً عَنِ القِيامِ بِمُهِمَّتِها رَبَّةً لِلبَيْتِ ، كَما كانَتْ عاجِزَةً عَنْ مُشارَكَتي أفْكاري وَطُموحاتي . كانَتْ طِفْلَةً كَبيرَةً مُدَلَّلَةً ، فاضْطُرِرْتُ إلى مُعامَلَتِها كَأبٍ ، في حينِ كُنْتُ أتوقُ إلى العَيْشِ في كَنَفِ زَوْجَةٍ أشْعُرُ مَعَها بِنَعيمِ الحَياةِ الأسَرِيَّةِ المُريحَةِ ، ولَذَّةِ الفَهْمِ المُتَبادَلِ .

وَذاتَ صَباحٍ ، جاءَتْني رِسالَةٌ غَريبَةٌ مِنَ السَّيِّدِ ميكاوْبر يَطْلُبُ فيها أنْ أقابِلَهُ عَلى وَجْهِ السُّرْعَةِ ، كَيْ يَسْتَشيرَني في أمْرٍ هامٍّ لا يَسْتَطيعُ أنْ يُكاشِفَ بِهِ أحَداً سِوايَ .

وَأفْضَيْتُ لِصَديقي ترادِلْز بِفَحْوى الخِطابِ ، ثُمَّ دَعَوْتُ السَّيِّدَ ميكاوْبر إلى مَنْزِلي ، كَما دَعَوْتُ ترادِلْز في الوَقْتِ نَفْسِهِ .

وَما إنْ حَضَرَ السَّيِّدُ ميكاوْبر حَتّى بادَرْتُهُ بِالسُّؤالِ عَنْ صِحَّةِ السَّيِّدِ وِكْفيلد ، فَأجابَ بِأنَّهُ في صِحَّةٍ جَيِّدَةٍ . وَلكِنْ عِنْدَما سَألَهُ ترادِلْز عَنْ يُرْيا هيپ شَحَبَ وَجْهُهُ وارْتَعَشَ فَمُهُ ، ثُمَّ صاحَ قائِلاً : « يُرْيا هيپ ! إنَّهُ كَلْبٌ ! حَيَوانٌ !»

وَهالَني مَنْظَرُ الرَّجُلِ ، فَأخَذْتُ في تَهْدِئَتِه قائِلاً : « اِهْدَأْ يا سَيِّدُ ميكاوْبر ، أرْجوكَ ! لَنْ نَتَكَلَّمَ عَنْ هَذا الشَّخْصِ الآنَ . لكِنْ أخْبِرْني بِرَبِّكَ ، كَيْفَ حالُ الآنِسَةِ وِكْفيلد ؟»

تغيَّرتْ نبرتُه على الفورِ ، وأجابَ : « الآنسةُ أغنيس ؟ إنَّها بِخيرٍ. إنَّها غايةٌ في الرِّقةِ والطِّيبةِ ، غيرَ أنَّني لا أستطيعُ التَّفكيرَ في الآنسة أغنيس دونَ أنْ تثورَ مشاعِري . إنَّني ...»

وانْفجرَ السَّيِّدُ ميكاوْبر فجأةً في البُكاءِ ، فتبادلْتُ وترادلْز النَّظراتِ في دهْشةٍ بالغةٍ . ولَمْ يَلْبثِ الرَّجُلُ أنِ استطْردَ قائلاً في انْفعالٍ شديدٍ : « لا أستطيعُ أنْ أكْتُمكُمُ الأمرَ أكثرَ مِنْ ذلِكَ ، فأنْتُمْ جميعاً أصدِقاءُ أوْفياءُ . لقَدْ أحْسنْتُمْ معي الصَّنيعَ ، ولكنَّني لا أسْتحِقُّ عطْفكُمْ . لقَدْ غدوْتُ رجُلاً شرِّيراً مِثلَ هيب ، ولكنِّي أقْسِمُ أنَّني سوْفَ أتغيَّرُ على الفوْرِ . والآنَ سوفَ أخبِرُكُم بسِرٍّ يُرْيا هيب ، رغْمَ أنَّني قدْ أتعرَّضُ وعائلتي لِلسِّجْنِ مِنْ جرَّاءِ ذلِكَ .»

كانَ السَّيِّدُ ميكاوْبر يُرْغي ويُزْبِدُ فلَمْ نسْتطعْ تبيُّنَ ما قالهُ على وجْهِ الدِّقَّةِ . وأخيراً أمْسكْتُ بِذِراعِ الرَّجُلِ ، وقُلْتُ وأنا أحاوِلُ إجْلاسَهُ على المَقْعدِ : « اِهْدأْ ، يا سيِّدُ ميكاوْبر . اِهْدأْ قليلاً ، لوْ سمحْتَ .»

وأفْلتَ مِنّي ، وهُوَ يصيحُ : « لا ، لا أسْتطيعُ أنْ أهْدأَ ! إنَّني أمْقُتُهُ ! أمْقُتُهُ وأزْدريهِ – هذا الوغْدَ ! تعالَ معي إلى كانْتربري في الأسْبوعِ القادمِ . تعالَ وقابِلْني هُناكَ في الفُنْدُقِ ، ولسَوْفَ أكْشِفُ

لكَ ألاعيبَهُ الحقيرةَ .»

كانَ الرَّجُلُ في ذِرْوةِ الانْفِعالِ ، فلَمْ يَقْوَ على مزيدٍ مِنَ الكلامِ. ولَمْ يَلْبثْ أنْ غادرَ المَنْزِلَ مُسْرِعاً .

قالَ ترادِلز : « يا إلهي ! هذا أمْرٌ بالِغُ السُّوءِ ! هَلْ جُنَّ السَّيِّدُ ميكاوْبر ؟»

لكِنَّ الرَّجُلَ كانَ عاقِلاً تماماً . وبَعْدَ أنْ مرَّ يوْمانِ آخرانِ أرْسَلَ لي خِطاباً آخرَ يَعْتذِرُ فيه عمَّا صدَرَ مِنْهُ أثْناءَ وُجودِهِ في منْزِلي ، ويَطْلُبُ إليَّ الحُضورَ إلى كانْتربري في الأسْبوعِ التَّالي ، لإطْلاعي على ما وَعدَ بِهِ مِنْ مُؤامَراتِ يُرْيا هيب .

وفي المَساءِ التَّالي ، كُنْتُ أسيرُ في حَديقَةِ منْزِلي شارِدَ الفِكْرِ فيما عَسى أنْ يُفْضِيَ به إليَّ السَّيِّدُ ميكاوْبِرْ مِنْ سِرٍّ ، حينَ دَلَفَتْ امْرَأَةٌ إلى الحَديقَةِ . وعِنْدما رأيْتُها صِحْتُ : « مارتا ؟ هَلْ لدَيْكِ أخْبارٌ ؟»

أجابَتْ : « أجَلْ . لقَدْ عثَرْتُ على إميلي . ولكِنْ أيْنَ السَّيِّدُ بيغوتي ؟»

« إنَّهُ يزورُني هُنا كُلَّ مَساءٍ تقْريباً ، ولكِنَّهُ لَمْ يَحْضُرِ اللَّيْلَةَ بعْدُ.»

« لَقَدْ ذَهَبْتُ إليْهِ في مَسْكَنِهِ ، ولَمّا لَمْ أجِدْهُ تَرَكْتُ لَهُ خِطاباً . والآنَ ، تَعالَ مَعي عَلى وَجْهِ السُّرْعَةِ ، رَيْثَما يَلْحَقُ بِنا في حُجْرَتي.»

وَاصْطَحَبَتْني مارتا إلى بَيْتٍ مُتَواضِعٍ مُقَسَّمٍ إلى حُجُراتٍ . وَأخَذْنا في صُعودِ السُّلَّمِ ، فَلاحَ لَنا ظَهْرُ فَتاةٍ تَتَقَدَّمُنا بِبِضْعِ دَرَجاتٍ .

قُلْتُ لِمارتا : « أنا أعْرِفُ هَذِهِ المَرْأةَ . إنَّها ...» فَأشارَتْ لي مارتا بِالصَّمْتِ . وَاسْتَمَرَّتِ الفَتاةُ في الصُّعودِ إلى أنْ وَقَفَتْ عِنْدَ بابِ حُجْرَةِ مارتا ، وَتَطَلَّعَتْ إلى البِطاقَةِ الّتي تَحْمِلُ اسْمَ ساكِنَةِ الحُجْرَةِ، ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أنْ دَلَفَتْ إلى الدّاخِلِ .

قُلْتُ لِمارتا في هَمْسٍ : « هَذِهِ المَرْأةُ هِيَ روزا دارتل . هَيّا نَتْبَعُها إلى داخِلِ الحُجْرَةِ ، فَقَدْ تُحاوِلُ إيذاءَ إميلي .»

غَيْرَ أنَّ مارتا نَصَحَتْني بِالتَّرَيُّثِ وَالوُقوفِ أوّلاً عِنْدَ البابِ ، لِنَسْمَعَ ما يَدورُ داخِلَ الحُجْرَةِ .

قالَتْ روزا لِلْفَتاةِ : « اِسْمُكِ إميلي ، أ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

أجابَتْ إميلي : « أجَلْ ، وَلَكِنْ مَنْ أنْتِ ؟»

« اِسْمي روزا دارتل ، وَأعيشُ مَعَ السَّيِّدَةِ ستيرفورث في مَنْزِلِها .»

هَمَسَتْ إميلي : « ستيرفورث ؟»

أجابَتْ روزا في صَوْتٍ بارِدٍ أجَشَّ : « أجَلْ ، ستيرفورث . دَعيني أنْظُرْ إلى وَجْهِكِ . أنْتِ تَمْلُكينَ وَجْهاً جَميلاً ، وَلَكِنَّكِ خَبيثَةٌ وَحَمْقاءُ !»

صَرَخَتْ إميلي ، وَهِيَ تُجْهِشُ بِالبُكاءِ : « لا ، لا ! لِماذا أتَيْتِ إلى هُنا ؟ وَلِماذا تَرْمينَني بِهَذِهِ الكَلِماتِ الجارِحَةِ ؟»

« لأنَّني أكْرَهُكِ . لَقَدِ انْتَزَعْتِ حَبيبي ستيرفورث مِنْ أمِّهِ وَمِنّي . لَقَدْ جَذَبَهُ جَمالُكِ فَهَرَبَ مَعَكِ ، عَلى حينِ كُنْتِ تُريدينَ الاسْتِحْواذَ عَلى أمْوالِهِ فَحَسْبُ . لَقَدْ خَدَعْتِ أمَّهُ وَخَدَعْتِني . أنا أكْرَهُكِ مِنْ أعْماقِ قَلْبي .»

صاحَتْ إميلى : « لا ، لا ! لَقَدْ أحْبَبْتُهُ ، كَما بادَلَني هُوَ الحُبَّ كَذَلِكَ .»

صاحَتْ روزا في قَسْوَةٍ وَتَشَفٍّ : « أحْبَبْتِهِ ؟ وَكَيْفَ تَعْرِفينَ مَعْنى الحُبِّ ، وَأنْتِ فَتاةٌ مِنْ قاعِ المُجْتَمَعِ – اِبْنَةُ صَيّادٍ فَحَسْبُ ! لَقَدِ اشْتَراكِ ستيرفورث بِمالِهِ ، وَكانَ الحُصولُ عَلى نُقودِهِ هُوَ غايَةَ مُبْتَغاكِ .»

صَرَخَتْ إميلي قائِلَةً : « لا ، لا ! هَذا لَيْسَ صَحيحاً ! لماذا أَتيتِ إلى هُنا ، أَيَّتُها المَرْأَةُ القَبيحَةُ ؟ »

« لِكَي أُلْحِقَ بِكِ الأذى ! إنَّهُ ذَنْبُكِ دونَ سِواكِ ، فَأَنْتِ الَّتي بَدَأْتِ بإيذائي . عَلَيْكِ بِمُغادَرَةِ هَذِهِ الحُجْرَةِ ، وَالعَوْدَةِ إلى أُسْرَتِكِ في الحالِ . »

صاحَتْ إميلي قائِلَةً : « لا أَسْتَطيعُ ! لا أَسْتَطيعُ ! إنَّني أَتَحَرَّقُ شَوْقًا لِرُؤْيَةِ عائِلَتي وَخالي بيغوتي مَرَّةً أُخْرى ، وَلَكِنَّني لا أَسْتَطيعُ ؛ فَأَنا خَجْلى مِنْ نَفْسي ! »

قالَتْ روزا في حَنَقٍ شَديدٍ : « إذاً سَوْفَ أَطْرُدُكِ مِنْ هَذِهِ الحُجْرَةِ لأَنَّكِ فَتاةٌ شِرِّيرَةٌ يَجِبُ أَنْ تُغادِري لندن ، بَلْ وَإِنْجِلْترا بِرُمَّتِها عَلى الفَوْرِ ، وَإِلَّا فَضَحْتُكِ وَشَهَّرْتُ بِكِ بَيْنَ النّاسِ . »

أَجابَتْ إميلي باكِيَةً : « دَعيني هُنا ، أَرْجوكِ ، وَلا تَكوني قاسِيَةَ القَلْبِ ، فَأَنا لَسْتُ شِرِّيرَةً ، كَما تَظُنِّينَ ! »

صاحَتْ روزا قائِلَةً : « لا ، بَلِ اخْرُجي مِنْ هُنا في الحالِ ، فَأَنا لَنْ أُطيقَ رُؤْيَةَ وَجْهِكِ عِنْدَ عَوْدَتي مَرَّةً أُخْرى ! » ثُمَّ هَرْوَلَتْ إلى خارِجِ الحُجْرَةِ .

وَاخْتَبَأْتُ مَعَ مارتا خَلْفَ البابِ ، حَتَّى تَهْبِطَ السُّلَّمَ دونَ أَنْ تَرانا . غَيْرَ أَنَّ روزا الْتَقَتْ في أَسْفَلِ السُّلَّمِ بِرَجُلٍ لَمْ تَعْرِفْهُ . كانَ الرَّجُلُ هُوَ السَّيِّدَ بيغوتي .

وَسُرْعانَ ما صَعِدَ السَّيِّدُ بيغوتي الدَّرَجاتِ وَثْبًا ، ثُمَّ دَلَفَ إلى داخِلِ الحُجْرَةِ . وَعِنْدَما رأى إميلي مُسْتَغْرِقَةً في البُكاءِ أَخَذَها في حِضْنِهِ قائِلاً : « لا تَبْكي ، يا عَزيزَتي إميلي . شُكْرًا لِلَّهِ أَنْ عَثَرْتُ عَلَيْكِ آخِرَ الأَمْرِ . لا تَبْكي ، فَأَنْتِ الآنَ في أَمانٍ تامٍّ . »

قُلْتُ لِمارتا : « يَجِبُ أَنْ أُغادِرَ هَذا المَكانَ في الحالِ ؛ خَشْيَةَ أَنْ تَراني إميلي فَيَعْتَرِيَها الخَجَلُ الشَّديدُ . »

وَعُدْتُ إلى مَنْزِلي في التَّوِّ ، وَجَلَسْتُ في انْتِظارِ السَّيِّدِ بيغوتي ، الَّذي لَمْ يَلْبَثْ أَنْ حَضَرَ . كانَتْ دورا تُلازِمُ الفِراشَ في الدَّوْرِ العُلْوِيِّ مِنْ جَرّاءِ مَرَضٍ عُضالٍ أَلَمَّ بِها ، فاسْتَطَعْتُ أَنْ أَقْضِيَ مَعَ بيغوتي وَقْتًا طَويلاً . كانَ جِدَّ سَعيدٍ بِالعُثورِ عَلى إميلي ، وَحَكى لي عَنْ رِحْلَتِها في الخارِجِ ، وَكَيْفَ قابَلَتْ مارتا بَعْدَ عَوْدَتِها إلى إنْجِلْترا ، فَأَخَذَتْها الأَخيرَةُ إلى حُجْرَتِها وَاعْتَنَتْ بِها . ثُمَّ اخْتَتَمَ حَديثَهُ بِالثَّناءِ عَلى مارتا ، قائِلاً : « إنَّ الفَضْلَ يَعودُ إلَيْها في إنْقاذِ حَياةِ إميلي مِنَ الضَّياعِ . »

قُلْتُ لِلسَّيِّدِ بيغوتي : « وَ ماذا تَعْتَزِمُ أنْ تَفعَلَ الآنَ ؟»

أجابَ : « سَوْفَ أهاجِرُ مَعَ إميلي إلى أسْتراليا ، فَإنَّ الحياةَ لَنْ تَطيبَ لَها في يارْمَوْث بَعْدَ الّذي حَدَثَ . غَيْرَ أنّني سَأنْتَظِرُ بِضْعَةَ أسابيعَ رَيْثَما أدبِّرُ لِلسَّيِّدةِ غَميدْج مَبْلغاً مِنَ المالِ ، وَمَسْكناً تَعيشُ فيهِ .»

كانَتْ بيغوتي ، خادِمَتُنا القَديمَةُ ، تَعيشُ في مَنْزِلِ السَّيِّدِ هام ، وَتَرْعى شُئونَهُ ، فَقُلْتُ لِلسَّيِّدِ بيغوتي : « وَلكِنَّ أخْتَكَ سَوفَ تَحزَنُ لِفراقِكَ ، فَهِيَ لَنْ تَذْهَبَ مَعَكُما إلى أستراليا ، أ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

« نَعَمْ ، فَهِيَ سَتَبْقى في إنْجِلْترا .»

وَصَمتَ السَّيِّدُ بيغوتي هُنَيْهَةً ، ثُمَّ أرْدَفَ : « لَدَيَّ خِطابٌ قَصيرٌ لِلسَّيِّدَةِ ستيرفورث ، وَبِداخِلِهِ مَبْلَغٌ مِنَ المالِ كانَ قَدْ أعْطاهُ ابْنُها لإميلي عَلى دُفْعاتٍ . أريدُ الآنَ أنْ أرُدَّ إلَيْها كُلَّ ما دَفَعَهُ . هَلْ يُمْكِنُ ، يا دافيد ، أن تَحْمِلَ إلَيْها هَذا الخِطابَ ؟»

أجَبْتُهُ : « أجَلْ ، بِالتّأْكيدِ .»

« وَهَلْ تَرْغَبُ في الذَّهابِ مَعي إلى يارْمَوْث لِرُؤْيَةِ بيغوتي ؟ إنَّها سَتَسْعَدُ كَثيراً بِذَلِكَ .»

« نَعَمْ ، سَوفَ أذْهَبُ مَعَكَ .»

وَهَكَذا سافَرْتُ مَعَ السَّيِّدِ بيغوتي إلى يارْمَوْث . وَبَعْدَ أن قُمْتُ بِزِيارَةِ شَقيقَتِهِ ، خَرَجْتُ لِلتَّرَيُّضِ مَعَ هام .

قالَ لي هام أثْناءَ سَيْرِنا : « سَوْفَ تُقابِلُ إميلي ، يا سَيِّدُ كوبرفيلد، فَإذا ما سَألَتْكَ عَنّي ، فَقُلْ لَها إنّني بِخَيْرٍ ، وَإنّني أعيشُ حَياةً هانِئَةً . إنَّ هَذا قَدْ يُريحُ ضَميرَها المُعذَّبَ ، وَيُخَفِّفُ مِنْ شُعورِها بِالذَّنْبِ ، لا سِيَّما أنّها تَعرِفُ جَيِّداً أنّي قَدْ غَفَرْتُ لَها . قُلْ لَها ذَلِكَ ، أرْجوكَ ؛ فَهِيَ لَنْ تَراني بَعْدَ الّذي حَدَثَ . إنّني بائِسٌ وَتَعيسٌ في الواقِعِ ، وَلكِنْ لا أريدُها أنْ تَعْرِفَ ذَلِكَ – فَأنا لا أريدُ أنْ أسَبِّبَ لَها مَزيداً مِنَ الحُزْنِ ، لأنّني ما زِلْتُ أحِبُّها .»

وَشَدَدْتُ عَلى يَدِ الرَّجُلِ الطَّيِّبِ الشَّهْمِ ، ثُمَّ تَرَكْتُهُ قاصِداً مَنْزِلَ السَّيِّدِ بيغوتي . وَكانَتْ إميلي مُلازِمَةً لِلْفِراشِ .

وَصاحَتِ السَّيِّدةُ غَميدْج قائِلَةً لي في تَوَسُّلٍ : « أرْجوكَ ، يا سَيِّدُ كوبرفيلد ، قُلْ لِلسَّيِّدِ بيغوتي أنْ يَأخُذَني مَعَهُ إلى أستراليا ، وَألا يَتْرُكَني هُنا وَحيدَةً .»

وَأمْسَكَتْ بِذِراعِ السَّيِّدِ بيغوتي ، وَأرْدَفَتْ قائِلَةً في تَوَسُّلٍ :

« خُذْني مَعَكَ يا دانيل ، بِحَقِّ السَّماءِ ! دَعْني أشارِكْكَ حياتَكَ الجَديدَةَ في أسْتْراليا .»

أجابَ السَّيِّدُ بيغوتي : « حَسَنٌ ، سَوْفَ آخُذُكِ مَعي ، يا سَيِّدَةُ غَميدْج ، وَلَنْ أدَعَكِ هُنا بِمُفْرَدِكِ .»

وَصاحَتِ المَرْأةُ ، وَالفَرْحَةُ تَتَراقَصُ أمامَ عَيْنَيْها : « أشْكُرُكَ يا دانيل ، أشْكُرُكَ مِنْ كُلِّ قَلْبي . لَنْ أشْكُوَ أوْ أتَذَمَّرَ بَعْدَ الآنَ ، بَلْ سَأبْذُلُ قُصارى جَهْدي في خِدْمَتِكَ .»

غادَرْتُ يارْموثَ عائِداً إلى لندن في اليَوْمِ التّالي . وَكانَ الوَقْتُ قَدْ حانَ لِزِيارَةِ السَّيِّدِ ميكاوْبِر ، فاصْطَحَبْتُ ترادِلْز وَعَمَّتي إلى كانْتربري . وَكانَ السَّيِّدُ وِكْفيلد مَريضاً ، فاصْطَحَبَنا السَّيِّدُ ميكاوْبِر لِلاجْتِماعِ بِيُرْيا هيب في مَكْتَبِهِ .

قالَ يُرْيا ، وَهُوَ يَفْرُكُ يَدَيْهِ مُبْتَسِماً كَعادَتِهِ في النِّفاقِ : « السَّيِّدُ كوپرفيلد ، وَالآنِسَةُ تروتوود ، وَالسَّيِّدُ ترادِلْز يَجْتَمِعونَ في مَكْتَبي ؟ يا لَها مِنْ مُفاجَأةٍ سارَّةٍ !»

غَيْرَ أنَّ هيب لَمْ يَكُنْ سَعيداً بِتِلْكَ الزِّيارَةِ ؛ فَلَقَدْ أمَرَ السَّيِّدَ ميكاوْبِر في حَنَقٍ بِأنْ يُغادِرَ الحُجْرَةَ . لكِنَّ السَّيِّدَ ميكاوْبِر لَمْ يَمْتَثِلْ

لِلأمْرِ ، وَصاحَ ، وَقَدْ شَحَبَ وَجْهُهُ ، وَتَلاحَقَتْ أنْفاسُهُ : « لا ، لَنْ أخْرُجَ مِنْ هُنا .»

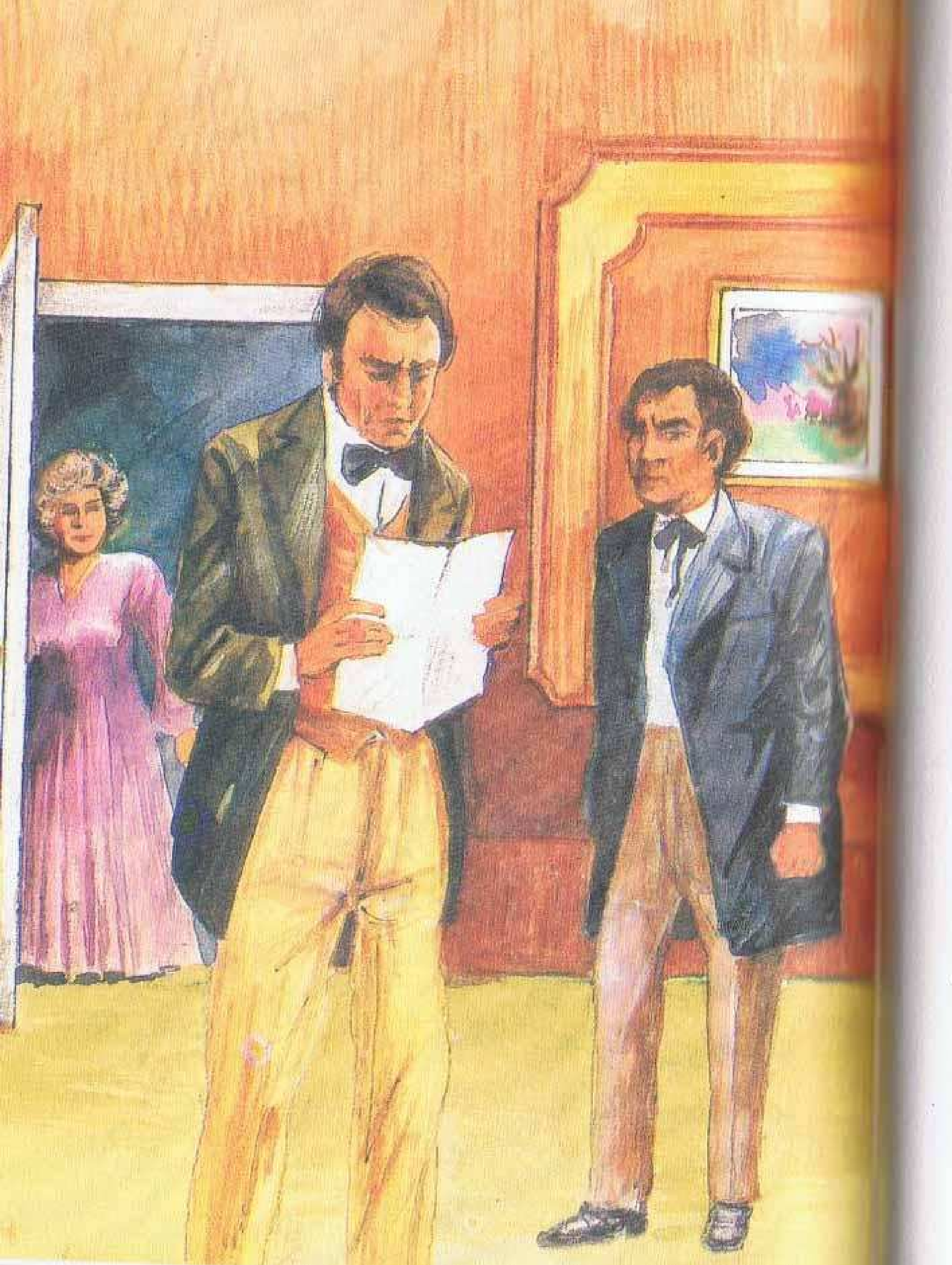
تَطَلَّعَ يُرْيا هيب إلَيَّ ، وَقالَ : « آه ! لَقَدْ فَهِمْتُ الآنَ ! إذاً فَأنْتَ تَتآمَرُ مَعَ خادِمي ميكاوْبِر عَلَيَّ ! أعْرِفُ أنَّكَ تَكْرَهُني مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ ، يا كوپرفيلد .»

صاحَ السَّيِّدُ ميكاوْبِر قائِلاً : « بَلْ أنْتَ الَّذي تَتآمَرُ أيُّها الوَغْدُ ! لَقَدْ دَبَّرْتَ مُؤامَرَةً ضِدَّ السَّيِّدِ وِكْفيلد ، وَسَجَّلْتُ أنا تَفاصيلَها في خِطابٍ ، كُنْتُ أعْتَزِمُ إرْسالَهُ لِجَميعِ أصْدِقاءِ الرَّجُلِ وَأحِبّائِهِ ، لِفَضْحِكَ أمامَهُمْ .» ثُمَّ أخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ وَرَقَةً مَكْتوبَةً وَشَرَعَ في قِراءَتِها . وَحاوَلَ يُرْيا أنْ يَنْتَزِعَها مِنْهُ ، فَضَرَبَهُ السَّيِّدُ ميكاوْبِر بِمِسْطَرَةٍ كَبيرَةٍ كانَتْ في يَدِهِ .

وَصَرَخَ يُرْيا في ذُهولٍ وَهُوَ يَتَراجَعُ إلى الخَلْفِ ، وَهَرَعَتْ أُمُّهُ إلى داخِلِ الحُجْرَةِ ، لكِنَّ السَّيِّدَ ميكاوْبِر صاحَ قائِلاً : « اهْدَأْ يا هيب ، فَلَسَوْفَ أقْرَأُ خِطابي عَلى الحاضِرينَ رَغْماً عَنْكَ .»

وَأخَذَ الرَّجُلُ في قِراءَةِ الخِطابِ في تُؤَدَةٍ وَ وُضوحٍ ، وَكانَتْ سُطورُهُ كالتّالي :

« تَعْلَمونَ جَميعاً أنَّني قَدْ أتَيْتُ لِلْعَمَلِ مَعَ هيب في مَكْتَبِ



السَّيِّدِ وِكْفيلد . واسْتَغَلَّ هيپ حاجَتي فَأَقْرَضَني نُقوداً لَمْ أَسْتَطِعْ سَدادَها ، فَهَدَّدَ بِإِدْخالِي السِّجْنَ . ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ ساوَمَني - تَفادِيًا لِلسِّجْنِ - أَنْ أُنَفِّذَ كُلَّ ما يَأْمُرُني بِهِ ، فَوَعَدْتُهُ بِذَلِكَ . وَلكِنْ ما هِيَ إِلّا أَيّامٌ قَلائِلُ حَتَّى تَكَشَّفَ لي مَآرِبُهُ الدَّنيءُ : كانَ يُريدُني أَنْ أُساعِدَهُ في سَلْبِ أَمْوالِ السَّيِّدِ وِكْفيلد وَتَعْريضِهِ لِسَجْنٍ مُحَقَّقٍ ! ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ مُوَكِّلي المَكْتَبِ كانوا يَتَقَدَّمونَ بِنُقودٍ لِيَسْتَثْمِرَها السَّيِّدُ وِكْفيلد لِحِسابِهِمْ ، وَقَدْ أَلِفَ يُريا أَنْ يَأْخُذَ هَذِهِ النُّقودَ لِنَفْسِهِ ، وَيَحْصُلَ مِنَ السَّيِّدِ وِكْفيلد عَلى إِيصالاتٍ بِتَسَلُّمِهِ إِيّاها . وَكانَ الرَّجُلُ يُوَقِّعُ لِيُرْيا عَلى هَذِهِ الإيصالاتِ عِنْدَما يَفْقِدُ وَعْيَهُ بِتَأْثيرِ الخَمْرِ . وهَكَذا اسْتَطاعَ الوَغْدُ الزَّنيمُ ، بِهَذا النَّهْبِ المُنْتَظِمِ المُخَطَّطِ ، أَنْ يَسْرِقَ مِنَ السَّيِّدِ وِكْفيلد اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ جُنَيْهٍ ، وَيُهَدِّدَهُ بِسَجْنٍ طَويلِ المَدى . وَالمُؤْسِفُ في الأَمْرِ أَنَّ السَّيِّدَ وِكْفيلد المِسْكينَ يَخالُ أَنَّهُ قَدْ بَدَّدَ النُّقودَ ، ويَتَوارى خَجَلاً مِنْ هيپ ، لأَنَّهُ في حالَةِ سُكْرٍ شِبْهِ مُسْتَمِرٍّ !»

صاحَ يُرْيا في غَضَبٍ قائِلاً : « كَذِبٌ وبُهْتانٌ ! ما دَليلُكَ عَلى صِحَّةِ ما تَزْعُمُ ؟»

أَجابَ السَّيِّدُ ميكاوْبر بِقَوْلِهِ : « لَدَيَّ الدَّليلُ النّاصِعُ . لَدَيَّ

المُفَكِّرَةُ الَّتي كَتَبْتَها بِخَطِّ يَدِكَ ، وَالَّتي شَرَحْتَ فيها خُطَّتَكَ الجَهَنَّمِيَّةَ بِالتَّفْصيلِ . لَقَدْ أَخَذْتُ هَذِهِ المُفَكِّرَةَ مِنْ دُرْجِ مَكْتَبِكَ . وَلكِنْ دَعْني أُكْمِلُ خِطابِيَ الَّذي سَطَّرْتُهُ لِهَؤُلاءِ السَّادَةِ .»

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ القِراءَةَ قائِلاً : « وَبِالإِضافَةِ إِلى ما تَقَدَّمَ ، فَإِنَّ يُرْيا سَرَقَ نُقوداً أُخْرى مِنْ خِزانَةِ السَّيِّدِ وِكْفيلد ، وَأَنا كَفيلٌ بِإِثْباتِ ذَلِكَ . كَما أَعْرِفُ أَنَّ السَّيِّدَ وِكْفيلد قَدْ أَحْجَمَ عَنْ مُفاتَحَةِ يُرْيا في الأَمْرِ ؛ خَشْيَةَ بَطْشِهِ وَانْتِقامِهِ .» ثُمَّ طَوى الرَّجُلُ الخِطابَ ، وَ وَضَعَهُ في جَيْبِ سُتْرَتِهِ .

وَعِنْدَئِذٍ قَفَزَتْ عَمَّتي بِتْسي مِنْ مَقْعَدِها ، وَصاحَتْ قائِلَةً لِيُرْيا: « إِلَيَّ بِنُقودي عَلى الفَوْرِ أَيُّها اللِّصُّ ! إِنَّها تِلْكَ الَّتي كانَتْ في الخِزانَةِ ! لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّ السَّيِّدَ وِكْفيلد هُوَ الَّذي أَضاعَها ، فَأَخْفَيْتُ الأَمْرَ عَنْ أَغْنيس ، وَلكِنْ يُمْكِنُني الآنَ الإِفْصاحُ عَنْ ذَلِكَ .» ثُمَّ أَمْسَكَتْ بِتَلابيبِهِ ، وَأَخَذَتْ تَهُزُّهُ بِعُنْفٍ ، وَهِيَ تُرَدِّدُ قائِلَةً : « إِلَيَّ بِالنُّقودِ عَلى الفَوْرِ ! إِلَيَّ بِالنُّقودِ عَلى الفَوْرِ !»

وَأَفْلَتَ ترادلز يُرْيا مِنْ قَبْضَتِها بَعْدَ جَهْدٍ جَهيدٍ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلى الفَتى قائِلاً : « وَالآنَ ماذا تَنْوي أَنْ تَفْعَلَ يا هيب ؟ هَلْ سَتَضْطَرُّنا لإِرْسالِكَ إِلى السِّجْنِ ؟»

صَرَخَتِ السَّيِّدَةُ هيب قائِلَةً : « سِجْنٌ ؟ وا تَعْساً لَكَ يا وَلَدِيَ المِسْكينَ !»

لكِنَّ يُرْيا لَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَطَلَّعَ إِلَيْنا بِعَيْنَيْهِ الحَمْراوَيْنِ الضَّيِّقَتَيْنِ ، ثُمَّ قالَ في غَيْظٍ مَكْتومٍ : « لا ، لَنْ أَذْهَبَ إِلى السِّجْنِ . سَوْفَ أَرُدُّ لَكُمُ النُّقودَ .» ثُمَّ غادَرَ الحُجْرَةَ في حَنَقٍ شَديدٍ .

عِنْدَئِذٍ صاحَ السَّيِّدُ ميكاوْبر في حُبورٍ : « الآنَ أَسْتَطيعُ أَنْ أَنْعَمَ بِالسَّعادَةِ وَسَكينَةِ النَّفْسِ . لَقَدْ كُنْتُ خائِناً مِثْلَ هيب ، وَلكِنَّني أَرَحْتُ ضَميري بِالإِفْضاءِ إِلَيْكُمْ بِهَذا السِّرِّ . أَعْرِفُ أَنَّني مَدينٌ لِهيب بِمَبْلَغٍ كَبيرٍ مِنَ المالِ ، وَأَنَّهُ قَدْ يُرْسِلُني بِهَذِهِ الذَّريعَةِ إِلى السِّجْنِ الَّذي هُوَ جَزاءٌ عادِلٌ لأَمْثالي ، وَلكِنَّني أَسْتَطيعُ أَنْ أَقِفَ ، مُنْذُ هَذِهِ اللَّحْظَةِ ، مَرْفوعَ الرَّأْسِ ، مُسْتَريحَ الضَّميرِ !»

قالَتْ عَمَّتي لِلسَّيِّدِ ميكاوْبر : « لَقَدْ غَدَوْتَ الآنَ بِلا عَمَلٍ ، فَماذا تَنْوي أَنْ تَفْعَلَ ؟»

أَجابَ الرَّجُلُ في ابْتِهاجٍ لَمْ أَعْهَدْهُ فيهِ مِنْ قَبْلُ : « عَمَلٌ ؟ أَنا لا تَعْنيني الأَعْمالُ الآنَ . رُبَّما نَرْحَلُ إِلى أُسْتُراليا عَمَّا قَريبٍ . وَالآنَ ، يَجِبُ أَنْ أَعودَ أَدْراجي لِلِقاءِ أُسْرَتي .»

وَمَضى الرَّجُلُ ، وَهُوَ يُغَنِّي في نَشْوَةٍ عارِمَةٍ . عِنْدَئِذٍ نَظَرْتُ إلى عَمَّتي فَنَظَرَتْ إليَّ . وسُرْعانَ ما تَعانَقْنا في فَرْحَةٍ غامِرَةٍ .

الفصل الخامس عشر

غَيْرَ أنَّ الحُزْنَ انْبَثَقَ مِنْ بَيْنِ ثَنايا الفَرَحِ والابْتهاجِ ؛ فَلَقَدِ اشْتَدَّ المَرَضُ بِدورا فَغَدَتْ عاجِزَةً عَنْ مُبارَحَةِ الفِراشِ ، وَإنْ بَقِيَتْ دائِبَةً عَلى مُلاعَبَةِ وَتَدْليلِ جيبٍ ، كَما أضْحى الكَلْبُ عَجوزاً لا يَقْوى عَلى الكَرِّ وَالفَرِّ ، وَقَنِعَ بِالجُلوسِ إلى جانِبِ صاحِبَتِهِ ، دونَ أنْ يَعْدُوَ هُنا وَيَثِبَ هُناكَ كَما كانَ يَفْعَلُ مِنْ قَبْلُ .

وَقالَتْ عَمَّتي لِدورا ذاتَ يَوْمٍ : « لَقَدْ شاخَ جيب وَأصابَهُ الوَهَنُ، فَهَلْ تُحِبِّينَ أنْ أشْتَرِيَ لَكِ جِرْواً يَكونُ أقْدَرَ عَلى تَسْلِيَتِكِ ؟»

أجابَتْ دورا : « لا يا عَمَّتيَ بِتْسي ، أشْكُرُكِ . لَقَدْ قَدَّمَ لي داقيد ذاتَ يَوْمٍ باقَةً مِنَ الزُّهورِ ، فَشَرَعَ جيب في قَضْمِها ، غَيْرَ أنَّني كُلَّما تَطَلَّعْتُ إلى كَلْبي الآنَ ، تَذَكَّرْتُ تِلْكَ الأيّامَ الحُلْوَةَ الجَميلَةَ . لا ، يا عَمَّتي . لا أريدُ أنْ أسْتَبْدِلَ بِجيب كَلْباً آخَرَ .»



وتَمكَّنَ المَرضُ مِنْ دورا فَأصْبَحتْ ضَعيفَةً شاحِبَةَ الوَجْهِ ، بَيْدَ أنها كانَتْ دائِمَةَ التَّفاؤُلِ وَالابْتِسامِ . وَذاتَ يَوْمٍ ، زايلَتِ البَسْمَةُ وَجْهَها الصَّبوحَ . وَتَطَلَّعتْ إليْها في حُزْنٍ وَقَلَقٍ ، فَقالَتْ : « داڤيد، أريدُ أنْ أرى أغْنيس . أرْجوكَ أنْ تُرْسلَ في طَلَبِها .»

وَما إنْ تَلَقَّتْ أغْنيس خِطابي حَتَّى هُرِعَتْ إلى مَنْزِلنا . وجَلَسَتْ إلى جانِبِ دورا في الفِراشِ ، وأخَذَتْ تُؤانِسُها بِحَديثٍ شائِقٍ مَرِحٍ . ثُمَّ أعانَتْ دورا بَعْدَ ذَلِكَ على كَثيرٍ مِنْ أمرِها في رِقَّةٍ وَعَطْفٍ وَهُدوءٍ . وسُرَّتْ دورا بِوُجودِ أغْنيس إلى جانِبِها سُروراً بالِغاً ، وَرَجَتْها أنْ تَبْقى مَعَنا أطْوَلَ فَتْرَةٍ مُمْكِنَةٍ .

وَمرَّتِ الأيّامُ ، واشْتَدَّ الضَّعْفُ بِدورا ، فَلَمْ تَعُدْ تَقْوى على الجُلوسِ في الفِراشِ . وَصارَتْ تَتَحدَّثُ إلَيْنا هَمْساً ؛ إذْ أصْبَحتْ عاجِزَةً حتَّى عَنِ الكَلامِ .

وَذاتَ مَساءٍ ، هُرِعَتْ إليَّ أغْنيس ، وَقالَتْ وَالحُزْنُ مُرْتَسِمٌ في عَيْنَيْها : « دورا تُريدُ أنْ تَراكَ .»

صَعدْتُ السُّلَّمَ وَثْباً إلى الطّابَقِ العُلْويِّ . وَبَدَتْ لي دورا ضَئيلَةَ الجِسْمِ في فِراشِها الضَّخْمِ العَريضِ ، غَيْرَ أنَّ وَجْهَها كانَ لا يَزالُ جَميلاً فَتّاناً . وَجلَسْتُ إلى جانِبِها ، وَأخَذْتُ راحَتَها بَيْنَ كَفَّيَّ ،

فَقالَتْ في هَمْسٍ مَشوبٍ بِالتَّأثُّرِ وَالانْفِعالِ : « أَنْصِتْ يا داڤيد إلى ما سَأقولُ ؛ لَقَدْ كُنْتُ زَوْجَةً غَيْرَ مَسْئولَةٍ – لَمْ أَعْتَنِ بِالمَنْزِلِ كَما يَجِبُ ، وَلَمْ أُعاوِنْكَ عَلى شَأنٍ مِنْ شُئونِ حَياتِكَ . لَمْ أَكُنْ أَفْهَمُ ما تَقْرَأ مِنْ كُتُبٍ وما تُؤَلِّفُ مِنْ قِصَصٍ ، غَيْرَ أَنَّني أَحْمِلُ لَكَ في قَلْبي قَدْرًا هائِلاً مِنَ الحُبِّ . اِغْفِرْ لي ، يا داڤيد ، أَرْجوكَ ! »

صِحْتُ ، وَأنا أَجْهَشُ بِالبُكاءِ : « أَبدًا لَمْ تَكوني زَوْجَةً سَيِّئَةً ، يا دورا . إنَّني أُحِبُّكِ كُلَّ الحُبِّ . »

أَشْرَقَ وَجْهُها بِابْتِسامَةٍ عَريضَةٍ ، ثُمَّ هَمَسَتْ قائِلَةً : « يَكْفيني مِنَ السَّعادَةِ ما قَدْ سَمِعْتُ ، غَيْرَ أَنَّني سَأُغادِرُ هَذا العالَمَ عَمَّا قَريبٍ . حَزينَةٌ أنا لِفِراقِكَ يا حَبيبي ، وَلَكِنَّني سَعيدَةٌ في ذاتِ الوَقْتِ؛ إذْ يُمْكِنُكَ عِنْدَئِذٍ أَنْ تَتَزَوَّجَ بِفَتاةٍ جَديدَةٍ . وأَدْعو اللَّهَ أَنْ تَكونَ زَوجَةً صالِحَةً ، وَ وَفِيَّةً لَكَ . »

قُلْتُ في تَأَثُّرٍ بالِغٍ : « لا ، لا يا حَبيبَتي ! لَسْتُ راغِبًا في أَيَّةِ زَوْجَةٍ عَداكِ ! »

تَحَسَّسَتْ شَعْري ، وَقالَتْ وَهِيَ تُحاوِلُ الابْتِسامَ : « إنَّني أَشْعُرُ بِالسَّعادَةِ ، لأَنَّكَ ما زِلْتَ راغِبًا في زَوْجَتِكَ الغَبِيَّةِ الحَمْقاءِ . وَالآنَ قَبِّلْني ، يا داڤيد ، ثُمَّ ابْعَثْ بِأَغْنيس إليَّ . »

قَبَّلْتُها في حُبٍّ وَحَنانٍ ، ثُمَّ نَزَلْتُ لاسْتِدْعاءِ أَغْنيس ، الَّتي صَعِدَتْ لِتَوِّها إلى غُرْفَةِ دورا . وَجَلَسْتُ وَحيدًا في غُرْفَةِ المَعيشَةِ ، وَأَخَذْتُ أُداعِبُ الكَلْبَ الَّذي كانَ قابِعًا إلى جانِبِ مَقْعَدي .

قُلْتُ مُخاطِبًا الكَلْبَ : « مِسْكينٌ أَنْتَ يا جيب ! إنّي أُحِسُّ أَنَّ صاحِبَتَكَ قَدْ تَموتُ عَمَّا قَريبٍ . سَوْفَ تَحْزَنُ كَثيرًا لِفِراقِها ، أَ لَيْسَ كَذلِكَ ؟ » غَيْرَ أَنَّ جيب لَمْ يُبْدِ حَراكًا . وَمَدَدْتُ يَدي أَتَحَسَّسُهُ ؛ فَوَجَدْتُ أَنَّهُ قَدْ ماتَ .

وَنَزَلَتْ أَغْنيس مُهَرْوِلَةً ، وَالفَزَعُ في عَيْنَيْها ، فَقَفَزْتُ مِنْ مَقْعَدي صائِحًا : « أَغْنيس ، ماذا حَدَثَ ؟ هَلْ أُصيبَتْ دورا بِمَكْروهٍ ؟ »

أَجابَتِ الفَتاةُ في أَسًى : « لَقَدِ الْتَحَقَتْ بِالرَّفيقِ الأَعْلى في سَلامٍ ! »

وَبَكَيْتُ بُكاءً مُرًّا . ثُمَّ أَخَذَتْ نَوْباتُ البُكاءِ تُعاوِدُني بَيْنَ حينٍ وَآخَرَ . وَظَلِلْتُ عَزوفًا عَنْ مُحادَثَةِ النّاسِ أَيامًا كَثيرَةً ؛ فَلَقَدْ كُنْتُ أُحِبُّ دورا حُبًّا صادِقًا عَميقًا .

وَأَخيرًا فَكَّرْتُ في مُغادَرَةِ إنْجِلْترا ؛ إذْ بَدَتْ لي مَكانًا مُوحِشًا كَئيبًا . غَيْرَ أَنَّني رَأَيْتُ أَنْ أَزورَ السَّيِّدَ ميكاوْبِر وترادِلْز أَوَّلاً ، لا سِيَّما

أنَّهما كانا يُعاوِنانِ السَّيِّدَ وِكْفيلد في مِحْنَتِهِ

وَعَلِمْتُ مِنْ ترادلز أنَّ السَّيِّدَ وِكْفيلد فَقَدَ نُقوداً طائِلَةً مِنْ جَرّاءِ ألاعيبِ يُرْيا هيپ ، وَأنَّ وَطْأَةَ المَرَضِ قَدْ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ ، وَأنَّ أغنيس تُعْنَى بِهِ تَماماً ، وَأنَّها سَوْفَ تُنْشِئُ مَدْرَسَةً صَغيرَةً لِتَكْسِبَ مِنْ وَرائِها بَعْضَ المالِ .

أمّا عَمَّتي بِتْسي فَقَدِ اسْتَعادَتْ نُقودَها كامِلَةً ، وَكانَتْ تَبْلُغُ خَمْسَةَ آلافِ جُنَيْهٍ . وَقالَتْ لِي العَمَّةُ عَشِيَّةَ اسْتِرْدادِها لِلنُّقودِ : « سَوْفَ أقومُ بِسَدادِ الدَّيْنِ الَّذي لِيُرْيا هيپ في ذِمَّةِ السَّيِّدِ ميكاوْبر ، حَتَّى يُمْكِنَ لِلأخيرِ أنْ يَرْحَلَ إلى أسْتُراليا في سَلامٍ . لَنْ أدَعَ يُرْيا يُهَدِّدُ الرَّجُلَ بِالسِّجْنِ مَرَّةً أخرى . »

وَفي اليَوْمِ التَّالي ، قامَتِ العَمَّةُ فِعْلاً بِسَدادِ الدَّيْنِ ، وَكانَتْ قيمَتُهُ عِشْرينَ جُنَيْهاً . وَما إنْ عَلِمَ السَّيِّدُ ميكاوْبر بِالأمْرِ حَتَّى بَكى مِنْ فَرْطِ التَّأثُّرِ ، وَأخَذَ يُقَبِّلُ يَدَيْها شُكْراً وَعِرْفاناً .

وَفي صَباحِ اليَوْمِ التَّالي ، عاوَدَتْ عَمَّتي الحَديثَ عَنِ السَّيِّدِ ميكاوْبر فَقالَتْ إنَّها سَوْفَ تَتَبَرَّعُ لَهُ بِمَبْلَغِ خَمْسِمائَةِ جُنَيْهٍ أخرى لِيَبْدَأَ بِها حَياتَهُ الجَديدَةَ في أسْتُراليا . وَهُنا تَدَخَّلْتُ قائِلاً لِلْعَمَّةِ : « لا تُعْطي المَبْلَغَ لِلسَّيِّدِ ميكاوْبر في يَدِهِ فَإنَّهُ مُسْرِفٌ مِتْلافٌ .

أرى أنَّ مِنَ الأفْضَلِ إعْطاءَهُ لِلسَّيِّدِ پيغوتي لِلاحْتِفاظِ بِهِ لِحِسابِ الرَّجُلِ ، إلى حينِ تَدْعو الحاجَةُ لِتَقْديمِهِ لَهُ هُناكَ ؛ فَإنَّ السَّيِّدَ پيغوتي سَوْفَ يَرْحَلُ مَعَ ميكاوْبر إلى أسْتُراليا . »

وَامْتَدَحَتْ عَمَّتي هَذا الرَّأيَ ، وَطَلَبَتْ مِنِّي العَمَلَ عَلى تَنْفيذِهِ ؛ فَذَهَبْتُ إلى السَّيِّدِ پيغوتي في غُرْفَتِهِ بِلندن ، وَخاطَبْتُهُ في الأمْرِ ، فَقَبِلَ الاحْتِفاظَ بِنُقودِ السَّيِّدِ ميكاوْبر لَدَيْهِ ، كَما وَعَدَ بِرِعايَةِ الرَّجُلِ في الوَطَنِ الجَديدِ . وَصَمَتَ السَّيِّدُ پيغوتي لِلَحْظَةٍ ، ثُمَّ قالَ : « لَدَيَّ خِطابٌ كَتَبَتْهُ إميلي لِهام ، وَطَلَبَتْ أنْ أُسَلِّمَهُ إلَيْهِ . لكِنَّني لَنْ أسْتَطيعَ الذَّهابَ إلى يارْمَوْث نَظَرًا لانْشِغالي الشَّديدِ هُنا بِالإعْدادِ لِلسَّفَرِ . هَلْ يُمْكِنُكَ القِيامُ بِهَذِهِ المَهَمَّةِ ، يا سَيِّدُ كوپرفيلد ؟ »

أجَبْتُهُ : « يُمْكِنُني بِالطَّبْعِ . سَوْفَ أذْهَبُ إلى يارْمَوْث في الغَدِ ، وَأُسَلِّمُ الخِطابَ لِهام . »

وَهَكَذا سافَرْتُ إلى يارْمَوْث في الصَّباحِ التَّالي . كانَ الطَّقْسُ رَديئًا في ذَلِكَ اليَوْمِ ، فَقَدْ كانَتِ السَّماءُ مَليئَةً بِالسُّحُبِ الدَّاكِنَةِ ، كَما كانَتِ الرِّياحُ تَعْوي وَتُزَمْجِرُ في صَخَبٍ شَديدٍ . وَما إنْ وَصَلْتُ إلى البَلْدَةِ حَتَّى غادَرْتُ العَرَبَةَ ، وَلكِنَّ الرِّياحَ الهُوجَ كانَتْ لا تَزالُ تَعْوي وَتُزَمْجِرُ . وَلِهَذا فَقَدْ تَوَجَّهْتُ إلى الفُنْدُقِ في الحالِ .

قالَ لي أحَدُ الرِّجالِ هُناكَ : « الطَّقْسُ فَظيعٌ ، وَلَمْ تَشْهَدْ لَهُ يارْمَوْث مَثيلاً مِنْ قَبْلُ . لَقَدْ تَسَبَّبَ البَحْرُ الهائجُ في غَرَقِ كَثيرٍ مِنَ السُّفُنِ ، ومَصْرَعِ عَدَدٍ كَبيرٍ مِنَ الرِّجالِ . »

أجَبْتُهُ قائِلاً : « إنَّهُ أمرٌ مُؤْسِفٌ . » ثُمَّ اسْتَأْذَنْتُ مُنْصَرِفًا إلى حُجْرَتي .

غَيْرَ أنَّهُ لَمْ يَغْمُضْ لي جَفْنٌ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ اللَّيْلاءِ ؛ فَلَقَدْ راعَتْني الرِّياحُ العاتِيَةُ الَّتي ظَلَّتْ تُزَمْجِرُ حَتَّى بُزوغِ الفَجْرِ . وَما إنِ انْبَلَجَ الصُّبْحُ حَتَّى هَرْوَلَ إليَّ أحَدُ الخَدَمِ ، وَهُوَ يَصيحُ قائِلاً : « هَيّا مَعي إلى الشّاطِئِ ، يا سَيِّدي . لَقَدْ حاصَرَتِ الأنْواءُ مَرْكَبًا كَبيرًا ، وَلَكِنْ رُبَّما اسْتَطَعْنا إنْقاذَ بَعْضِ الرُّكّابِ . »

عَدَوْتُ مَعَ الخادِمِ نَحْوَ الشّاطِئِ حَيْثُ احْتَشَدَ جَمْعٌ غَفيرٌ مِنَ النّاسِ ، وَكانَ هام يَقِفُ وَسْطَهُمْ .

صَرَخْتُ قائِلاً : « أيْنَ المَرْكَبُ ؟ »

صاحَ أحَدُ الواقِفينَ مُشيرًا بِيَدِهِ إلى مَكانٍ قَصِيٍّ : « ها هُوَ ذا يَتَأرْجَحُ فَوْقَ المَوْجِ هُناكَ ! »

كانَ عَلى ظَهْرِ المَرْكَبِ أرْبَعَةُ رِجالٍ . وَسُرْعانَ ما زَحَفَتْ

عَلَيْهِ جِبالُ المَوْجِ ، فَغَيَّبَتِ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ . وَتَطَلَّعْتُ في فَزَعٍ ، فَرَأيْتُ الاثْنَيْنِ الباقِيَيْنِ عَنْ بُعْدٍ ، كانَ أحَدُهُما طَويلَ القامَةِ ، وَيَضَعُ قُبَّعَةً حَمْراءَ .

صاحَ هام قائِلاً : « إليَّ بِحَبْلٍ طَويلٍ ، فَلَرُبَّما اسْتَطَعْتُ إنْقاذَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ . »

وَأتَوْا إلَيْهِ بِالحَبْلِ ، فَرَبَطَهُ هام حَوْلَ جَسَدِهِ رَبْطًا مُحْكَمًا . ثُمَّ وَقَفْنا جَميعًا نَتَطَلَّعُ إلى المَرْكَبِ الَّذي تَتَقاذَفُهُ الأمْواجُ كَريشَةٍ في مَهَبِّ الرّيحِ . وَكانَ الرَّجُلانِ لا يَزالانِ واقِفَيْنِ عَلى مَتْنِها .

عِنْدَئِذٍ صِحْتُ في هام : « لا تَذْهَبْ . إنَّ المَوْجَ سَيَصْرَعُكَ عَلى الفَوْرِ . »

لَكِنَّهُ أجابَ قائِلاً في إصْرارٍ : « بَلْ سَأذْهَبُ . يَجِبُ أنْ أُنْقِذَ هَذَيْنِ التَّعيسَيْنِ . »

وَسُرْعانَ ما ألْقى بِنَفْسِهِ في خِضَمِّ البَحْرِ ، في حينَ أمْسَكَ بَعْضُ الرِّجالِ الواقِفينَ عَلى الشّاطِئِ بِالحَبْلِ . وَلَكِنَّ الأمْواجَ الهادِرَةَ لَمْ تَلْبَثْ أنْ هاجَمَتِ المَرْكَبَ مَرَّةً أُخْرى ، فابْتَلَعَتْ في جَوْفِها أحَدَ الرَّجُلَيْنِ . وَعِنْدَئِذٍ أسْرَعَ الرِّجالُ بِجَذْبِ الحَبْلِ وَإعادَةِ

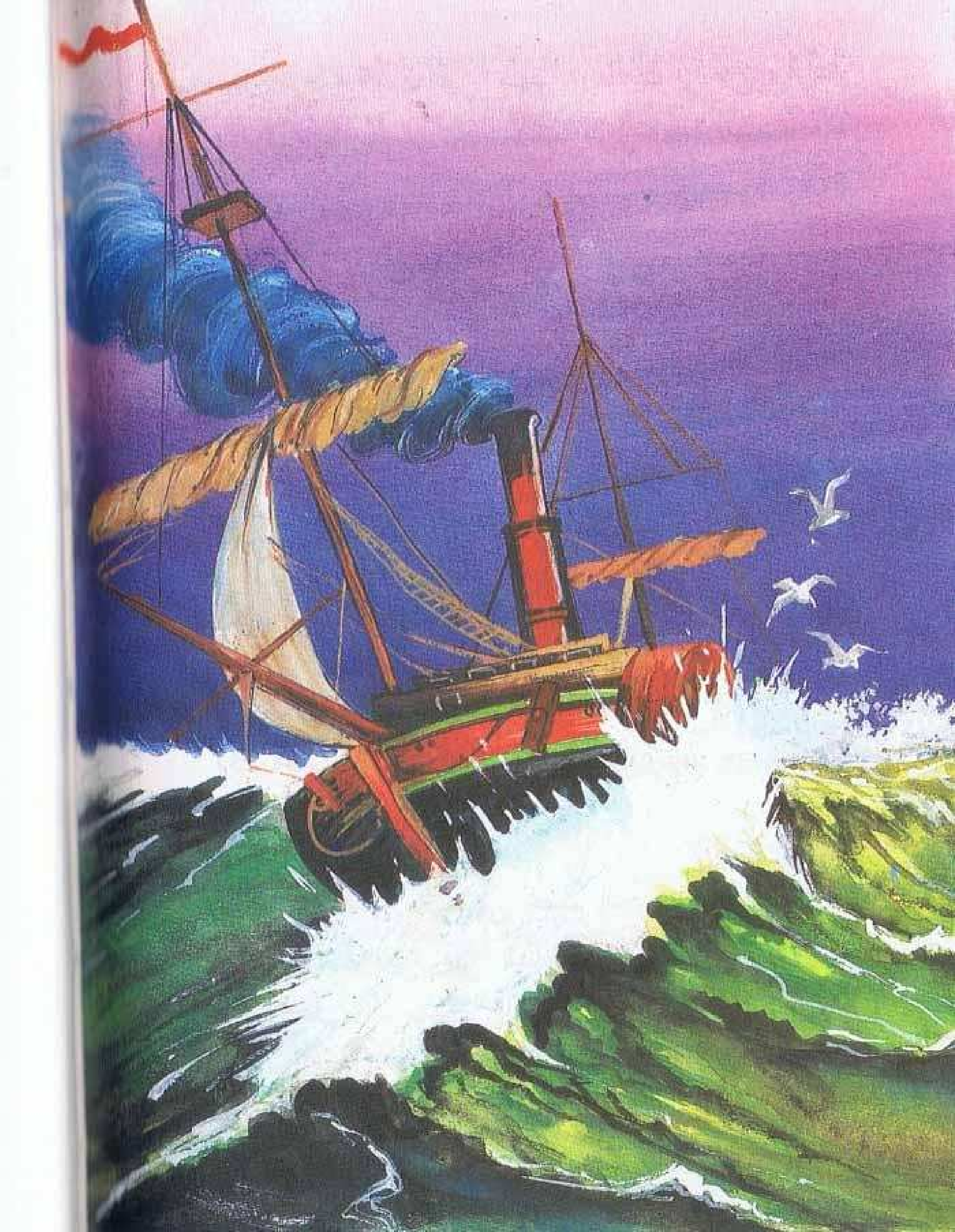
هام إلى الشَّاطِئ .

وَصاحَ هام طالِباً مزيداً مِنَ الحِبالِ ، فَصَرَخْتُ في وَجْهِهِ قائِلاً : « لا تَنْزِلْ إلى البَحرِ الهائجِ يا هام ، فَسَيَبْتَلِعُكَ هذهِ المَرَّةَ بالتَّأكيد. »

لكِنَّ الرَّجُلَ الشَّهْمَ أصَرَّ في بَسالَةٍ نادِرَةٍ عَلى أنْ يَخوضَ المَعْرَكَةَ مَعَ البَحرِ ؛ كَيْ يُنْقِذَ حَياةَ آخِرِ رَجُلٍ يَقِفُ في ذُعْرٍ عَلى ظَهرِ المَرْكَبِ .

وَألْقى البَطَلُ بِنَفْسِهِ بَيْنَ الأمْواجِ المُتَلاطِمَةِ . وَكانَتِ الرِّياحُ الصَّاخِبَةُ تُزَمْجِرُ في عُنْفٍ فَلا تَسْمَعُ غَيْرَ عُوائِها المُرْعِبِ المُخيفِ . وَلَمْ أسْتَطِعِ الرُّؤْيَةَ بِوُضوحٍ في خِضَمِّ العاصِفَةِ ، غَيْرَ أنَّني أبْصَرْتُ رَأسَ هام تَبْرُزُ فَوْقَ سَطْحِ الماءِ ، وَهُوَ يُصارِعُ المَوْجَ لِلْوُصولِ إلى الرَّجُلِ الواقِفِ عَلى ظَهْرِ المَرْكَبِ البَعيدِ ، وَالَّذي كانَ يُلَوِّحُ لَهُ بِقُبَّعَتِهِ الحَمْراءِ الزَّاهِيَةِ .

وَأخيراً اقْتَرَبَ هام مِنَ الرَّجُلِ ، بَيْدَ أنَّ الأمْواجَ العارِمَةَ المُصْطَخِبَةَ ، سُرْعانَ ما عاوَدَتِ الزَّحْفَ عَلى المَرْكَبِ في شَراسَةٍ بالِغَةٍ . وَلَمَّا انْحَسَرَتْ مُتَراجِعَةً ، كانَتْ قَدْ غَيَّبَتِ المَرْكَبَ وَالرَّجُلَ الواقِفَ فَوْقَهُ في جَوْفِ اليَمِّ .



وَتطَلَّعَ الرِّجالُ الواقِفونَ عَلى الشَّاطِئِ إلى بَعيدٍ ، ثُمَّ صاحَ أحَدُهُمْ قائِلاً : « لَقَدْ تَحطَّمَ المَرْكَبُ ، وَلَقِيَ الرَّاكِبُ حَتْفَهُ . هَيّا اجْذِبوا هام إلى الشَّاطِئِ . »

وَجذَبَ الرِّجالُ الحَبْلَ في سُرْعَةٍ بالِغَةٍ ، غَيْرَ أنَّ هام كانَ قَدْ لَقِيَ حَتْفَهُ كَذَلِكَ . لَقَدْ صَرَعَهُ البَحْرُ الهائِجُ مِثْلَ وَحْشٍ مُفْتَرِسٍ .

وَحمَلَهُ الرِّجالُ إلى مَنْزِلِه . وَلكِنْ قَبْلَ أنْ يَتوارَوْا عَنِ الأنْظارِ ، كان اليَمُّ قَدْ قَذَفَ إلى الشَّاطِئِ بِجُثَّةٍ أخْرى . وَتَحلَّقَ بَعْضُ الرِّجالِ حَوْلَها ، ثُمَّ صاحوا قائِلينَ : « إنَّها جُثَّةُ الرَّجُلِ الَّذي كانَ عَلى المَرْكَبِ . إنَّهُ يَقْبِضُ بِيَدِهِ عَلى قُبَّعَتِهِ الحَمْراءِ . »

وَنَظَرْتُ إلى الجُثَّةِ فَإذا بِها لِرَجُلٍ أعْرِفُهُ تَماماً – كانَتْ جُثَّةَ صَديقي ستيرفورث .

وَتهالَكْتُ عَلى الرِّمالِ مَحزوناً ، ثُمَّ انْخَرَطْتُ في بُكاءٍ مَريرٍ . لَقَدْ فَقَدْتُ زَوْجَتي ، وَبَعْدَها هام وَستيرفورث في أمَدٍ وَجيزٍ .

بَعْدَ أيّامٍ قَلائِلَ ، ذَهَبْتُ لِوداعِ أصْدِقائِيَ المُسافِرينَ إلى أسْتْراليا. وَ وَقَفْتُ بَيْنَهُمْ عَلى ظَهْرِ السَّفينَةِ ، وَمَعي عَمَّتي بِتْسي ، وَبيغوتي شَقيقَةُ السَّيِّدِ بيغوتي .

كانَ السَّيِّدُ ميكاوْبر في ذِرْوَةِ الفَرَحِ وَالابْتِهاجِ . وَقالَ لِعَمَّتي ، بَعْدَ أنْ قَبَّلَ يَدَها عِدَّةَ مَرَّاتٍ : « أشْكُرُكِ مِنْ أعْماقِ قَلْبي يا آنِسَةُ تروتْوود . سَوْفَ أعْمَلُ في أسْتْراليا بِكُلِّ جِدٍّ ومُثابَرَةٍ ، لأغْدُوَ رَجُلاً ذا شَأنٍ هُناكَ . »

وَانْتَحى بِيَ السَّيِّدُ بيغوتي جانِباً ، ثُمَّ قالَ : « هَلْ سَلَّمْتَ الخِطابَ لِهام ؟ »

أجَبْتُهُ كَذِباً بِأنَّني قَدْ فَعَلْتُ ؛ ذَلِكَ لأنَّني لَمْ أُرِدْ أنْ أُفْسِدَ سَعادَتَهُمْ بِالسَّفَرِ . وَسَألْتُهُ : « أيْنَ إميلي ؟ »

أجابَني مُشيراً إلى بَعيدٍ : « إنَّها تَقِفُ هُناكَ . »

وَنَظَرْتُ نَحْوَها ، فَرَأيْتُ امْرَأةً تُمْسِكُ بِيَدِها ، وكانَتِ المَرْأةُ هي مارتا .

وَاسْتَطْرَدَ السَّيِّدُ بيغوتي قائِلاً : « لَقَدْ رَغِبَتْ مارتا في الرَّحيلِ مَعَنا لِتَبْدَأ حَياةً أفْضَلَ في أسْتْراليا . سَوْفَ نَحْيا جَميعاً حَياةً أفْضَلَ هُناكَ . »

وَشَدَدْتُ عَلى يَدِ السَّيِّدِ بيغوتي ، وَأنا أقولُ : « وَداعاً ، يا سَيِّدُ بيغوتي ! أرْجو أنْ تَحمِلَ سَلامي وَتَمَنِّياتي الطَّيِّبَةَ إلى إميلي وَمارتا . »

أجابَني الرَّجُلُ : « سَوْفَ أَفْعَلُ ، وَسَوْفَ أعودُ إلى إنْجِلْترا لِزِيارَتِكُمْ يَوْماً ما . »

وَعِنْدَما تَقَدَّمْتُ إلى أُسْرَةِ ميكاوْبِر لِتَوْديعِها ، بَكَتِ السَّيِّدَةُ ميكاوْبِر وَهِيَ تُصافِحُني ، وَقالَتْ : « سَوْفَ أَكْتُبُ لَكَ خِطاباتٍ كَثيرَةً مِنْ أُسْتِراليا ، يا عَزيزي كوپرفيلد . »

وَما إِنْ صافَحْتُ السَّيِّدَ ميكاوْبِر حَتَّى صاحَ أَحَدُ المَلَّاحينَ قائِلاً : « اِهْبِطوا إلى البَرِّ . سَنُبْحِرُ بَعْدَ دَقائِقَ قَليلَةٍ . »

غادَرَتِ السَّفينَةُ مَعَ عَمَّتي وَپيغوتي ، وَلٰكِنَّ أَبْصارَنا ظَلَّتْ مُتَعَلِّقَةً بِالمَرْكَبِ وَهُوَ يَبْتَعِدُ رُوَيْداً رُوَيْداً ، إلى أَنِ اخْتَفى في الأُفُقِ البَعيدِ .

بَعْدَ ساعاتٍ قَلائِلَ ، وَقَعْتُ فَريسَةً لِكَآبَةٍ شَديدَةٍ ؛ لَقَدْ فارَقَني هٰؤُلاءِ الأَحِبَّاءُ ، وَأَنا في مَسيسِ الحاجَةِ إِلَيْهِمْ ، بَعْدَ أَنْ ماتَتْ عَنّي زَوْجَتي ، ثُمَّ ستيرفورث وَهام .

وَبَعْدَ أَيّامٍ مَعْدوداتٍ ، عَزَمْتُ عَلى أَنْ أُغادِرَ إِنْجِلْترا ، وَأَطوفَ بِعَدَدٍ كَبيرٍ مِنَ الأَقْطارِ الأَجْنَبِيَّةِ ، لِكَيْ أُفْلِتَ مِنْ قَبْضَةِ أَحْزاني ، وَأَبْدأَ بِدَوْري حَياةً أُخْرى جَديدَةً .

الفصل السّادس عشر

زُرْتُ كَثيراً مِنَ البِلادِ في أوروبّا ، وَلٰكِنَّني ظَلِلْتُ أَسيرَ الهَمِّ وَالحُزْنِ . وَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ مَرِضْتُ فَأَصْبَحْتُ عاجِزاً عَنْ تَأْليفِ القِصَصِ الَّتي كُنْتُ أَعْتَزِمُ كِتابَتَها في أَثْناءِ الرِّحْلَةِ . وَبَعْدَ بِضْعَةِ شُهورٍ ، وَصَلْتُ إلى سويسرا ، وَنَزَلْتُ وادِياً بالِغَ الرَّوْعَةِ وَالجَمالِ . وَهُناكَ أَبْلَلْتُ مِنْ مَرَضي ، كَما أَخَذَتْ حالَتي النَّفْسِيَّةُ في التَّحَسُّنِ . وَبَدَأْتُ في تَأْليفِ كِتابٍ جَديدٍ . وَعِنْدَما فَرَغْتُ مِنْ كِتابَتِهِ أَرْسَلْتُهُ لِصَديقي ترادِلز ، الَّذي قامَ بِتَسْويقِهِ نِيابَةً عَنّي لِأَحَدِ النّاشِرينَ في إِنْجِلْترا ، فَحَصَلْتُ بِذٰلِكَ عَلى مَبْلَغٍ لا بَأْسَ بِهِ مِنَ المالِ .

وَذاتَ يَوْمٍ تَلَقَّيْتُ خِطاباً رَقيقاً مِنْ أَغْنيس . وَبَعْدَ أَنْ قَرَأْتُهُ عِدَّةَ مَرّاتٍ ، قُلْتُ لِنَفْسي : « لا شَكَّ أَنَّكَ عَلى شَيْءٍ مِنَ الغَفْلَةِ وَالحُمْقِ يا داڤيد ! هَلْ عَرَفْتَ الآنَ أَنَّكَ تُحِبُّها وَتَهْواها ؟ لَقَدْ

كُنْتَ تَزْعُمُ مِنْ قَبْلُ أَنَّها بِمَثابَةِ أُخْتٍ لَكَ فَحَسْبُ – كما كانَتْ تَزْعُمُ هِيَ أَيْضاً ذَلِكَ .»

لَمْ أَكُنْ أَسْتَطيعُ أَنْ أَكْتُبَ لَها قائِلاً : أنا أُحِبُّكِ يا أَغْنيس ، وَأُريدُ الزَّواجَ بِكِ . وَلِذَلِكَ فَقَدْ عَزَمْتُ عَلى السَّفَرِ إلى إنْجِلترا في الحالِ . وَفي اليَوْمِ التّالي ، بَدَأْتُ رِحْلَةَ العَوْدَةِ . وَ وَصَلْتُ إلى لندن في يَوْمٍ مُمْطِرٍ شَديدِ البُرودَةِ ، وَلَكِنَّني كُنْتُ سَعيداً بِرُؤْيَةِ شَوارِعِ المَدينَةِ وَمَبانيها مَرَّةً أُخْرى . وَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ تَوَجَّهْتُ إلى مَنْزِلِ ترادلز ، وَكانَ يَسْتَأْجِرُ آنَذاكَ شَقَّةً تَتَأَلَّفُ مِنْ ثَلاثِ غُرَفٍ صَغيرَةٍ . وَلَكِنْ عِنْدَ صُعودِيَ السُّلَّمَ ، سَمِعْتُ أَصْواتَ عِدَّةِ فَتَياتٍ .

وَما إنْ فَتَحَ صَديقِيَ البابَ حَتّى صاحَ قائِلاً في ابْتِهاجٍ شَديدٍ : « عَزيزي كوبرفيلد ! يا لَها مِنْ مُفاجَأَةٍ سَعيدَةٍ !»

وَتعانَقْنا في شَوْقٍ ، ثُمَّ دَلَفْتُ إلى الدّاخِلِ ، فَرَأَيْتُ سَيِّدَةً جَميلَةً جالِسَةً في غُرْفَةِ الجُلوسِ . وَسُرْعانَ ما قَدَّمَ لي ترادلز السَّيِّدَةَ بِقَوْلِهِ: « هَذِهِ هِيَ صوفي زَوْجَتي . لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنا أَخيراً بِالزَّواجِ . وَها أَنا ذا قَدْ غَدَوْتُ ، كَما تَرى ، رَجُلاً سَعيداً هانِئَ البالِ !»

قُلْتُ : « وَلَكِنَّكَ لَمْ تُخْبِرْني بِهَذا الأَمْرِ مِنْ قَبْلُ يا ترادلز .»

ضَحِكَ صَديقي ، وَقالَ : « لا ، لَقَدْ آثَرْتُ أَنْ أُفاجِئَكَ بِالنَّبَأِ السَّعيدِ .»

كانَتْ صُوفي فَتاةً بارِعَةَ الجَمالِ . وَكانَتْ أَخَواتُها الأَرْبَعُ يَعِشْنَ مَعَها في الشَّقَّةِ نَفْسِها ، غَيْرَ أَنَّ ترادلز كانَ يَشْعُرُ بِالرّاحَةِ وَالسَّعادَةِ في شَقَّتِهِ الصَّغيرَةِ ، رَغْمَ اكْتِظاظِها بِالسُّكّانِ ؛ ذَلِكَ لأَنَّ زَوْجَتَهُ كانَتْ بارِعَةً في إدارَةِ شُئونِ البَيْتِ . وَلَقَدْ قَضَيْتُ مَعَ صَديقي وَزَوْجَتِهِ وَقَريباتِها أُمْسِيَةً مُمْتِعَةً قَبْلَ أَنْ أَعودَ إلى مَنْزِلي في المَدينَةِ .

كانَتْ عَمَّتي قَدْ عادَتْ إلى مَنْزِلِها الأَنيقِ في دوفر ، بَعْدَ اسْتِرْجاعِها لِلنُّقودِ الَّتي أَوْدَعَتْها مَكْتَبَ السَّيِّدِ وِكْفيلد . وَفي الصَّباحِ التّالي ، ذَهَبْتُ إلى دوفر لِلِقائِها ، حَيْثُ أَطْلَعَتْني عَلى آخِرِ الأَنْباءِ ؛ كانَ السَّيِّدُ بيغوتي وَالسَّيِّدُ ميكاوبر سَعيدَيْنِ في أُسْتراليا ، كَما كانَ الأَخيرُ يَعْمَلُ في جِدٍّ وَاجْتِهادٍ ، وَيُرْسِلُ نُقوداً إلى العَمَّةِ بَيْنَ الحينِ وَالآخَرِ .

سَأَلْتُ عَمَّتي في لَهْفَةٍ : « هَلْ تَزَوَّجَتْ أَغْنيس ؟»

أَجابَتْ : « لا ، وَلَكِنْ قَدْ تَتَزَوَّجُ في القَريبِ العاجِلِ .» ثُمَّ رَمَقَتْني بِنَظْرَةٍ غَريبَةٍ ، وَهِيَ تَقولُ : « أَغْنيس فَتاةٌ جَميلَةٌ وَرَقيقَةٌ ، كَما أَنَّها ذاتُ شَخْصِيَّةٍ رَصينَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ . لا شَكَّ أَنَّ كَثيرينَ مِنَ

الرِّجالِ يَتطَلَّعونَ إلى الفَوْزِ بِها .»

قُلْتُ في شَيْءٍ مِنَ الاضْطِرابِ : « أعْرِفُ ذَلِكَ .»

نَظَرَتْ إليَّ العَمَّةُ نَظْرَةً أخرى ذاتَ مَغْزًى ، ثُمَّ اسْتَطْرَدَتْ قائلَةً: « إنَّها لَيْسَتْ جاهِلَةً وَلا مُدَلَّلَةً مِثْلَ كثيرينَ غَيْرِها ، كَما أنَّها لَيْسَتْ حَمْقاءَ مِثْلَ بَعْضِ الفَتَياتِ ، فَبَعْضُهُنَّ يَقَعُ فَريسَةً لِلرُّعونَةِ وَالحُمْقِ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

وَسُرْعانَ ما غادَرْتُ دوڤر قاصِداً كانْتِربري . وَكانَتْ أغْنيس بِمُفْرَدِها في المَنْزِلِ . وَاسْتَقْبَلَتْني في تَرْحابٍ ، سائِلَةً : « كَيْفَ حالُكَ ، يا داڤيد ؟»

« أنا في تَمامِ الصِّحَّةِ وَالسَّعادَةِ .»

غَيْرَ أنَّني لَمْ أكُنْ صادِقًا فيما قُلْتُ ، ثُمَّ أرْدَفْتُ قائِلاً : « أظُنُّ أنَّ لَدَيْكِ أخْباراً سارَّةً ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟»

« أخْبارٌ سارَّةٌ ؟ أيَّةُ أخْبارٍ ؟»

« سَمِعْتُ أنَّكِ قَدْ تَتَزَوَّجينَ في القَريبِ العاجِلِ ؛ أَلَيْسَ هَذا خَبَراً سارًّا ؟»

أجابَتْ عَلى الفَوْرِ : « لا ، هَذا لَيْسَ صَحيحاً . لَنْ أتَزَوَّجَ ! فَأنا لا أسْتَطيعُ الزَّواجَ !»

وَتَساقَطَتِ الدُّموعُ غَزيرَةً مِنْ عَيْنَيْها ، وَأرْدَفَتْ قائِلَةً في حَياءٍ : « لا تَنْظُرْ إليَّ هكَذا ، فَأنا فَتاةٌ حَمْقاءُ .»

قُلْتُ في دَهْشَةٍ : « ما خَطْبُكِ يا عَزيزَتي ؟ لماذا لا تَسْتَطيعينَ الزَّواجَ ؟»

أجابَتْ بَعْدَ شَيْءٍ مِنَ التَّرَدُّدِ : « لأنَّني مُتَعَلِّقَةٌ بِرَجُلٍ ما .»

« وَلماذا لا تَتَزَوَّجينَهُ ؟»

« لأنَّهُ لا يُبادِلُني الحُبَّ .»

صِحْتُ قائِلاً في انْفِعالٍ : « وَمَنْ هُوَ هَذا الأبْلَهُ الغافِلُ عَنْ مَحاسِنِكِ ؟»

سارَتْ مُبْتَعِدَةً ، وَهِيَ تَقولُ : « لَنْ أخْبِرَكَ بِاسْمِهِ . لا ، لا أسْتَطيعُ .»

قَفَزْتُ في إثْرِها ، وَأمْسَكْتُ بِذِراعَيْها قائِلاً : « أغْنيس ! أخْبِريني ! مَنْ هُوَ هَذا الرَّجُلُ ؟»

نَظَرَتِ الفَتاةُ في عَيْنَيَّ ، وَقالَتْ : « إنَّهُ أَنْتَ ، يا داڤيد ! غَيْرَ أَنَّني آسِفَةٌ لِذَلِكَ . أَعْرِفُ أَنَّكَ تُعامِلُني كَأُخْتٍ ، وَأَنَّكَ لَمْ تَتَطَلَّعْ إلَيَّ زَوْجَةً يَوْمًا ما . »

صِحْتُ في جَذَلٍ عارِمٍ : « وَلكِنَّني أُريدُ الآنَ مِنْ أَعْماقِ قَلْبي أَنْ أَتَزَوَّجَكِ . لَقَدْ كُنْتُ طائِشًا وَذاهِلاً عَنْ نَفْسي فيما مَضى ، وَلكِنَّني أَفَقْتُ الآنَ ، وَأَصْبَحْتُ واثِقًا بِحَقيقَةِ مَشاعِري . إنَّني أُحِبُّكِ يا أَغْنيس ؛ فَهَلْ تُحِبّينَني حَقًّا ؟ وَهَلْ تَقْبَلينَني زَوْجًا لَكِ ؟ »

أَجابَتْ في صِدْقٍ وَإِخْلاصٍ ظاهِرَيْنِ : « لَقَدْ أَحْبَبْتُكَ عَلى الدَّوامِ يا داڤيد ، وَسَأَظَلُّ أُحِبُّكَ إلى الأَبَدِ . إنَّني أَقْبَلُ الزَّواجَ بِكَ بِالتَّأْكيدِ . »

وَاقْتَرَبْتُ مِنْها . غَيْرَ أَنَّني لَمَحْتُ في عَيْنَيْها ظِلالَ هَمٍّ صامِتٍ دَفينٍ ، فَسَأَلْتُها في قَلَقٍ وَلَهْفَةٍ : « لِماذا أَنْتِ حَزينَةٌ ، يا أَغْنيس ؟ »

« لَسْتُ مَهْمومَةً يا داڤيد ، غَيْرَ أَنَّ دورا قَدْ طافَتْ بِخاطِري . أَتَذْكُرُ يَوْمَ اسْتَدْعَتْني إلى غُرْفَتِها ، وَهِيَ عَلى فِراشِ المَوْتِ ؟ أَنْتَ لا تَعْلَمُ ماذا قالَتْ لي حينَئِذٍ ، فَقَدْ أَبْقَيْتُهُ سِرًّا دَفينًا لَمْ أُفْضِ بِهِ لِأَحَدٍ . لَقَدْ طَلَبَتْ مِنّي أَنْ أَعِدَها بِالزَّواجِ مِنْكَ ، وَلَقَدْ وَعَدْتُها حينَئِذٍ بِذَلِكَ ، كَيْ تَرْجِعَ روحُها إلى السَّماءِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً . »

قُلْتُ : « ها قَدْ آنَ أَوانُ الوَفاءِ بِالوَعْدِ . »

وَتَزَوَّجْتُ بِأَغْنيس في غَمْرَةٍ مِنْ أَفْراحِ الأَهْلِ وَالأَصْدِقاءِ ، وَعَلى رَأْسِهِمُ السَّيِّدُ وِكْفيلد وَعَمَّتي وَ ترادِلْز . وَأَقَمْنا في لندن حَيْثُ أَنْجَبْنا أَرْبَعَةَ أَطْفالٍ لِطافٍ أَصِحّاءَ .

وَفي يَوْمٍ هَبَطَ عَلَيْنا ضَيْفٌ عَزيزٌ غالٍ . لَقَدْ أَتى السَّيِّدُ بيغوتي مِنْ أُسْتُراليا عَلى جَناحِ الشَّوْقِ لِيَزورَ أُسْرَتَنا السَّعيدَةَ ، وَيَرى صِغارَنا الأَرْبَعَةَ .

وَسَأَلْناهُ عَنْ إيميلي ، فَقالَ : « لَقَدْ عَزَفَتْ إيميلي عَنِ الزَّواجِ ، وَنَذَرَتْ نَفْسَها لِخِدْمَةِ الآخَرينَ ، وَهِيَ سَعيدَةٌ بِذَلِكَ . »

« وَمارتا ؟ »

« لَقَدْ تَزَوَّجَتْ مارتا بِشابٍّ طَيِّبٍ ، وَهُما يَعيشانِ مَعًا في وِئامٍ . »

« وَالسَّيِّدَةُ غَميدْج ؟ »

هَزَّ بيغوتي رَأْسَهُ الَّذي اشْتَعَلَ شَيْبًا ، ثُمَّ ضَحِكَ قائِلاً : « السَّيِّدَةُ غَميدْج لَمْ تَتَزَوَّجْ بَعْدُ . لَقَدْ تَقَدَّمَ لَها رَجُلٌ في الخَمْسينَ مِنَ العُمْرِ ، وَلكِنَّها آثَرَتِ التَّفَرُّغَ لِرِعايَةِ شُئوني الخاصَّةِ . عَلى أَنَّها كَفَّتْ عَنِ الحُزْنِ وَالتَّذَمُّرِ مُنْذُ أَنْ هَبَطَتْ أُسْتُراليا . وَنَحْنُ سُعَداءُ

جَميعاً بِالحَياةِ هُناكَ .»

« وَالسَّيِّدُ ميكاوبِر ؟ ماذا حَدَثَ لَهُ في الوَطَنِ الجَديدِ ؟»

« آه ! لَقَدْ تَحَوَّلَ بِدَوْرِهِ إلى إنْسانٍ جَديدٍ هُناكَ ، وَغَدا بِجِدِّهِ وَاجْتِهادِهِ مِنْ رِجالِ الأعْمالِ البارِزينَ ، كَما اسْتَطاعَ أنْ يُكَوِّنَ ثَرْوَةً طائِلَةً في زَمَنٍ وَجيزٍ .»

وَأخْرَجَ السَّيِّدُ بِيغوتي مِنْ جَيْبِهِ خِطاباً أرْسَلَهُ السَّيِّدُ ميكاوبِر . وَكانَ خِطاباً رَقيقاً يَنْضَحُ بِالوُدِّ والعِرْفانِ ، وَيَنِمُّ عَنْ سَعادَةِ عائِلَتِهِ وسَعادَتِهِ في الوَطَنِ الجَديدِ .

وَأخيراً رَزَقَنا اللّهُ بِطِفْلَةٍ جَميلَةٍ أسْمَيْناها « دورا » ؛ فَأصْبَحَ لَدَيْنا بِذَلِكَ خَمْسَةُ أطْفالٍ . وَأتَت بِيغوتي – خادِمَتُنا القَديمَةُ – من يارْمَوْث لِتُقيمَ مَعَنا في لندن ، وَتَرْعى أطْفالَنا الّذينَ تُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَها كُلَّ الحُبِّ .

أمّا عَمَّتي بِتْسي ، فَقَدْ سَعِدَتْ بِمَجيءِ حَفيدَتِها الجَديدَةِ الصَّغيرَةِ أيَّما سَعادَةٍ . لَقَدْ تَلاشَتْ كَراهِيَتُها لِلْفَتياتِ ، بَعْدَ مُرورِ هَذِهِ السَّنَواتِ الطِّوالِ .

وَالآنَ ، وَبَعْدَ قَضاءِ اليَومِ فِي عَمَلٍ دائِبٍ ، ها أنا ذا أسَجِّلُ

لَكُمْ السُّطورَ الأخيرَةَ مِنْ قِصَّةِ حَياتي . لَقَدْ تَجاوَزَ الوَقْتُ مُنْتَصَفَ اللَّيْلِ ، وَلكِنَّها ما زالَتْ جالِسَةً في مَقْعَدِها أمامي ، تَسْهَرُ كَعادَتِها إلى جانِبي حَتّى أنامَ . وعِنْدَما أتَطَلَّعُ إلى عَيْنَيْها الجَميلَتَيْنِ الصّافِيَتَيْنِ ، ويَسْطَعُ وَجْهُها الصَّبوحُ الهادِئُ بِابْتِسامَتِها الحُلْوَةِ المُشْرِقَةِ ، يُنْفَضُ عَنّي غُبارُ النَّصَبِ وَالكَلالِ ، وَتَغْمُرُني سَكينَةُ النَّفْسِ وَراحَةُ البالِ . تِلْكُمْ هِيَ أغْنيس زَوْجَتي الحَبيبَةُ الرَّقيقَةُ الطَّيِّبَةُ ، والَّتي غَدَوْتُ بِفَضْلِها مُؤَلِّفاً مَشْهوراً .

الروايات المشهورة

١ - جين إير
٢ - فرانكنشتاين
٣ - مونفليت
٤ - دراكولا
٥ - لورنا دون
٦ - دكتور جيكل ومستر هايد
٧ - شي الملكة الأسطورة
٨ - كونت مونت كريستو
٩ - الرجل الخفي
١٠ - الزمن العصيب
١١ - الزنبقة السوداء
١٢ - الأمير و الفقير
١٣ - سايلاس مارنر
١٤ - الوادي الغاضب
١٥ - أوليفر تويست
١٦ - دافيد كوبرفيلد



مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت

رقم الكمبيوتر 01 C 198116